د . رمسيس عوض

معسكر الاعتقال النازى

برجن بلسن

مكتبة الأنجلو المصرية

معسكر اعتقال برجن بلسن

(الذى ساهم فى إنشاء دولة إسرائيل)

د. رمسيس عوض

الناشر

مكتبة الأنجلو المصرية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية ، إدارة الشئون الفنية .

عوض ، رمسيس .

معسكر اعتقال برجن بلسن الذى ساهم فى إنشاء دولة

اسرائيل / رمسيس عوض . ـ ط١. ـ

القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ٢٠٠٧ .

٢٥٥ ص ، ١٤× ٢٠ سم

١ـ ألمانيا ـ تاريخ ـ العصر الحديث

أ- العنوان

رقم الإيداع : ١٥٥١

ردمك : ٠ ـ ٢٢٨٨ ـ ٠٥ ـ ٩٧٧   تصنيف ديوى : ٩٤٣,٠٧

المطبعة : محمد عبد الكريم حسان

الناشر : مكتبة الانجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد

القاهرة ـ جمهورية مصر العربية

ت : ٣٩١٤٣٣٧ (٢٠٢) ؛ ف : ٣٩٥٧٦٤٣ (٢٠٢)

E-mail : angloebs@anglo-egyptian.com

Website : www.anglo-egyptian.com

فهرس

مقدمة

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية فى عام ١٩٤٥ قال ثيودور هويس Theodor Haweis أول رئيس جمهورية لألمانيا الاتحادية فى عام ١٩٥٢ فى ذكرى الاحتفال الذى أقيم فى ساكسونيا السفلى فى ذكرى ضحايا معسكر برجن – بلسن : «إن معسكر بلسن للاعتقال وهذه الذكرى التى يحييها تمثل رمزاً تاريخياً فريداً من نوعه ... ذكرى من أجل أبناء وبنات الشعوب الأجنبية ومن أجل اليهود الألمان والأجانب . وهى أيضاً ذكرى للشعب الألمانى بأسره وليس فقط من أجل الأجسام التى ووريت الثرى بسرعة وعجلة . وأقيمت ذكرى ضحايا بلسن للاعتقال من أجل الذين فقدوا أرواحهم تحت النظام النازى حتى لا ينسى الناس الجرائم البشعة التى اقترفها هذا النظام .»

وعندما كانت القوات البريطانية تقوم بتحرير معسكر بلسن فى أبريل عام ١٩٤٥ اكتشفت الجنود والمصورون التابعون لهذه القوات هول الفظائع التى تقشعر لها الأبدان والتى اقترفها ... النظام النازى . وليس أدل على هذه الفظائع من أن السيدة المثقفة سوزان سونتاج Susan Sontag ذكرت أنه أثناء زيارتها لمكتبة لبيع الكتب فى سانت مونيكا بالولايات المتحدة وقعت أنظارها على بعض الصور الملتقطة فى معسكر برجن بلسن وداكاو فى يولية ١٩٤٥ ، مما دفعها إلى التعبير عن نفسها قائلة : «لاشىء شاهدته فى الواقع أو فى الصور الفوتوغرافية ترك فى نفسى هذا الجرح العميق

الغائر بمجرد مشاهدته . ويبدو لى فى الواقع أنه يمكن تقسيم حياتى إلى قسمين : قسم يسبق رؤيتى لهذه الصور وعمرى لا يتجاوز الثانية عشرة وقسم يخلف رؤيتى لها رغم مضى عدة سنوات دون أن استوعب بشكل كامل مغزى هذه الصور .»

وفى نهاية القرن العشرين صارت الأفلام القصيرة التى تدور حول معسكر اعتقال برجن – بلسن شائعة فى وسائل الاعلام وتمثل المراحل الأخيرة من الحرب العالمية الثانية كما تمثل الهولوكست بوجه عام . وتركت مناظر الجرافات وهى تلقى بجثث الموتى فى قبور السجناء الجماعية أبشع الأثر فى نفوس الناظرين كما كانت هذه الصور تهدف إلى رسم صورة وردية وحبيبة إلى النفس لقوات الحلفاء وصورة أخرى قميئة للقوات النازية حتى تبرز بشاعتها دون التركيز على البلاء الذى أصاب اليهود وشعوب أوربا الرازحة تحت نير الاحتلال النازى . وهذا واضح فى الصور التى عرضت فى الاحتفالية التى أقامتها دول الحلفاء بمناسبة مرور خمسين عاماً على انتهاء الحرب العالمية الثانية فى عام ١٩٩٥ . وقد قامت جريدة الديلى ميل بنشر هذه الصور بهدف رسم صورة مقيتة للنظام النازى وزبانيته من رجال وحدة البوليس الخاصة .

وفى عام ١٩٥٨ حاولت الحكومة الفرنسية استعادة رفات ضحاياها من المواطنين الفرنسيين الذين هلكوا فى معسكر بلسن للاعتقال بهدف إعادة دفنهم فى الأراضى الفرنسية غير أن البريجادير البريطانى جلين هيوز Glyn Hughes رئيس ضباط الهيئة الطبية البريطانية المشرفة على معسكر بلسن أبدى نوعاً من اللامبالاة . وهذا واضح مما كتبه بشأن

المطلب الفرنسى : كنت أنا الذى أصدرت الأمر بفتح المقابر الجماعية . حتى ذلك الوقت لم يكن فى الإمكان مطلقاً التعرف على أى من الضحايا . لهذا اندهشت عندما سمعت وزيراً فرنسياً فى باريس يقول إنه يمكن فرز الجثث ونقل المواطنين الفرنسيين من القبور الجماعية . وبطبيعة الحال هذا أمر مضحك من الناحية الطبية . فضلاً عن أنه يبدو لى أنه لا يوجد سبب عقلى يبرر بذل مثل هذه المحاولة .

ومعنى ذلك أن جثث ضحايا معسكر بلسن اختلطت ببعضها البعض وأصبحت مجهولة الاسم والهوية . وأضحى واضحاً للبريطانيين الذين حرروا معسكر بلسن أن سجناءه الباقين على قيد الحياة ليس منهم أى نفع أو فائدة ، ولا أمل فى شفائهم من العلل التى أصابت أجسامهم وعقولهم معاً.

وفى الاحتفاليات التى أقامها الغرب عام ١٩٩٥ بمناسبة ذكرى تحرير معسكر بلسن فى ربيع عام ١٩٤٥ تكررت الإشارة إلى معسكر بلسن باعتباره مثلاً حياً لبشاعة الهولوكست النازى .

وخلال الشهور الستة الأخيرة من الحرب ، لم يكن العالم الغربى يدرك إدراكاً كاملاً أبعاد الكارثة التى حلت باليهود على أيدى النازيين غير أن الاحتفال الذى أقيم عام ١٩٩٥ بمناسبة مرور خمسين عاماً على إنهاء الحرب نجح فى تنبيه الأذهان إلى الفظائع التى ارتكبها النازيون فى معسكر أوشويتز للاعتقال بحيث أصبحت هذه الفظائع محور اهتمام الغرب الذى أدرك للمرة الأولى أن نحو ٩٠٪ من سجناء هذا المعسكر كانوا من اليهود . وأيضاً أخذت وسائل الاعلام الغربية نتيجة لهذه الاحتفالية تفسح المجال واسعاً امام الناجين من الهولوكست للتعبير عن

مصابهم الجلل ، الأمر الذى أعاد إلى هؤلاء الضحايا فرديتهم التى طمستها المحارق وغرف الغاز .

ويتسم معسكر اعتقال برجن – بلسن بأداء وظائف متغيرة داخل الدولة النازية فالتغير المستمر فى أداء هذه الوظائف جعل الإعلام الغربى يقع فى خطأ الاعتقاد بأن معسكر بلسن (وغيره من المعسكرات) استخدم الغازات السامة فى إبادة السجناء استناداً إلى أن هذا المعسكر كان مزوداً بغرف المحارق . غير أن الواقع مختلف تماماً؛ رغم وجود هذه المحارق فى معتقل بلسن فإن هذا المعسكر لم يستخدم غرف الغاز فى إبادة نزلائه . وقد أدى هذا الخلط وسوء الفهم إلى إشاعة فكرة خاطئة مفادها أن جميع معسكرات الاعتقال استخدمت الغاز فى إبادة ضحاياها ، والواقع أن غرف الغاز لم تكن بأى حال من الأحوال شرطاً ملزماً للمعسكرات النازية فى إبادة السجناء . فلا غرو أن انتهز منكرو الهولوكست هذه المعلومة المغلوطة فى أنكاره والتشكيك فى حدوثه .

وقد أسهمت شهادة الكابتن روبرت دانييل Robert Daniell المحارب القديم فى الجيش البريطانى فى الفيلم الذى عرضه فى ٢٢ يناير ١٩٩٥ فى إشاعة المعلومة الخاطئة عن استخدام الغاز فى إبادة سجناء معسكر بلسن بقوله إنه أول جندى بريطانى داخل هذا المعسكر وأنه شاهد فيه أفران الغاز التى تعطل عملها بسبب عدم وجود وقود لتشغيلها وأضاف أن عطل أفران الغاز هو السبب فى مشاهدة ذلك العدد الكبير من الجثث الملقاة على الأرض . وأضاف دانييل أن المنظر كان فاجعاً لدرجة أن نظارات القراءة الخاصة بالضحايا تراكمت على جانب الممرات المؤدية

إلى غرف الغاز حتى وصل ارتفاعها إلى ستة أقدام على أقل تقدير .

وتظهر المعلومة المغلوطة نفسها فى القصة التى ألفها روبرت هاريس Robert Harris عام ١٩٩٢ بعنوان «أرض الوطن» Father land والتى تحولت إلى فيلم من أفلام الإثارة يستقى أحداثه من وقائع مؤتمر وانسى الذى عقده النازيون فى يناير ١٩٤٢ لوضع خطة لإبادة اليهود عن بكرة أبيهم والمعروف فى التاريخ النازى بالحل الأخير ، ونحن نطالع فى هذه القصة حواراً بين بطلة الفيلم وهى صحفية أمريكية وبطله وهو ضابط ألمانى فى وحدة البوليس الخاصة نبذ إيمانه بالنازية يسهم فى إشاعة الاعتقاد الخاطىء باستخدام غرف الغاز فى معسكر بلسن ، وفيما يلى نص هذا الحوار :

– لقد قتلوا جميع اليهود .

– ماذا حدث فى معسكرى أوشويتز وبلسن ؟ وما طبيعة غاز الزيكلون ب ؟

– قتلوهم جميعاً بهذا الغاز .

وتحتوى قصة هاريس على معلومات تتصل بإبادة اليهود ، فهى على سبيل المثال تتضمن القول بأن غاز الزيكلون ب يتكون من بلورات سيانيد الهيدروجين وأن النازيين قبل ذلك كانوا يستخدمون غاز الكاربون مونوكسيد ومن قبله الرصاص . ويضيف هاريس أن غرف الغاز ومحارقها كانت قادرة على إبادة ثمانية آلاف ضحية يومياً . وفى عام الاحتفال بمعسكر برجن – بلسن (١٩٩٥) استأثر هذا المعسكر باهتمام محطة الإذاعة البريطانية فأعدت برنامجاً وثائقياً حوله تحرت فيه الحقيقة موضحة الفروق

التى تميز معسكر اعتقال بلسن عن معسكرات آوشويتز للإبادة قائلة إن الوفيات فى معسكر بلسن نجمت عن الجوع والأمراض ، فى حين أن وفيات معسكر أوشويتز نجمت عن الإبادة . ولكن الإنجليز والأمريكان فيما بعد أعدوا فيلمين بعنوان «أرض الوطن» و«التحرير» لم يتحريا الدقة التى تحراها التوثيق التاريخى السالف الذكر الذى أجرى عام ١٩٩٥ . وأشارت صحيفة التايمز البريطانية فى نفس هذا العام إلى أن معسكر بلسن للاعتقال لم يستخدم الغاز فى إبادة نزلائه .

وعلى أية حال يمثل معسكر بلسن مكانة هامة فى الذاكرة الجماعية للألمان والبريطانيين واليهود المتصلة بالحرب العالمية الثانية . ولم ينس اليهود ذكرى هذا المعسكر أبداً بل حثوا الألمان فى يوم ذكرى الهولوكست ألايسمحوا لأنفسهم بنسيان هذا المعسكر ، وأكد هيرزوج Herzog رئيس دولة إسرائيل الأسبق على ذلك داعياً الألمان فى عهد الرئيس كول ألاينسوا إحساسهم بالذنب أبداً . ومن ناحيته حاول المستشار كول التخفيف من وطأة هذه الكلمات بالحديث عن رسوخ جذور اليهود فى المجتمع الألمانى

ولكن وجود تشايم هيرزوج الرئيس الأسبق لدولة إسرائيل ومئات الناجين من الهوكولست وعائلاتهم بما فيهم سام بلوخ Sam Bloch رئيس جمعية الناجين من الموت فى معسكر برجن بلسن أكد أن الهدف من الاجتماع ليس الحديث عن اليهود الألمان فى إطار تاريخى بل إحياء ذكرى شهداء وضحايا معسكر بلسن .

وتذكر المحتفلون بذكرى معسكر برجن بلسن الأحداث المأساوية التى أفضت إلى وفاة سجينة يهودية اسمها آن فرانك Anne Frank التى توفيت

مع أختها مارجوت فى الأسابيع الأخيرة من وجود معسكر بلسن . وقد أصبحت آن فرانك فى عقد الخمسينيات فى القرن العشرين أيقونة ثقافية ترمز إلى الخسف والاضطهاد .

ولم يفت على الرئيس السابق لدولة إسرائيل هيرزوج أن يذكر هذه الضحية النازية أثناء الاحتفال عام ١٩٩٥ بذكرى معسكر بلسن باعتبارها رمزاً للهولوكست . خلفت هذه المرأة يوميات سطرتها سراً فى معتقل بلسن. ويلاحظ أن هذه الاحتفالية تمخضت عن مجموعة متناقضة متنوعة من آراء السجناء فى بلسن حيث نجد تضارباً فى آراء سجناء هذا المعتقل فى الفترة الباكرة من إنشائه وبين آراء السجناء المرحلين إليه من الشرق خلال الستة شهور الأخيرة من وجوده . وقد أغفل كثير من المؤرخين ذكر سجناء بلسن الأوائل بسبب قيام النازيين بترحيلهم قبيل تحرير هذا المعسكر . وزاد من تعقيد الموقف تنوع جذور السجناء العرقى واختلاف جنسياتهم . وفى حين انصب اهتمام الألمان عام ١٩٩٥ على الضحايا اليهود الذين قضوا فى هذا المعسكر نرى بريطانيا تظهر اهتماماً أقل بمأساتهم . وقد انصب اهتمام سام بلوخ الناجى من الهولوكست على ذكرى هؤلاء الملايين من الضحايا الذين قضوا دون أن يدفنوا فى مقابر . وتوسل سام بلوخ إلى المحتفلين قائلاً : «لاتنسونا وتذكرونا دائماً فى قلوبكم» .

وبعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها ، زعمت بريطانيا أنها خاضت هذه الحروب للقضاء على الوحشية النازية من ناحية والوقوف بجانب اليهود فى محنتهم من ناحية أخرى . وهذا واضح فى الكتاب المدرسى الذى قررته وزارة التربية والتعليم فى بريطانيا على طلبة

المدارس الثانوية ، وهو كتاب يحمل عنوان «نهاية الحرب العالمية الثانية» . ورغم أن هذا الكتاب المدرسى يشير إلى الهولوكست فإنه يركز بوجه خاص على تحرير البريطانيين لمعسكر بلسن عام ١٩٤٥ كما ركز على الدور الأخلاقى الذى لعبه المجهود الحربى البريطانى .

وفى الاحتفال الذى أقيم عام ١٩٩٥ لإحياء ذكرى تحرير معسكر بلسن اهتم البريطانيون بتسليط الضوء على الدور البطولى الذى لعبه الجيش البريطانى أكثر من اهتمامهم بالسماع إلى شهادة الناجين من الموت فى هذا المعسكر . وهذا واضح فى الاحتفالية التى نظمها فى بريطانيا المتحف الحربى الأمبريالى بعنوان «مرور خمسين عامًا على تحرير بلسن» حيث كان معظم المتحدثين فيها من العسكريين البريطانيين الذين قاموا بتحرير هذا المعسكر . ومن الناجين والناجيات من الموت فى هذا المعسكر لم تتحدث سوى سيدة واحدة تدعى أنيتا لاكر ڤالفيخ Anita Lacker Wall-fisch التى تم ترحيلها من معسكر أوشويتز إلى معسكر بلسن . والجدير بالذكر أن المتحف الحربى الأمبريالى فى بريطانيا أقام معرضاً دائماً بعنوان «بلسن عام ١٩٤٥» وهو معرض أعيدت إقامته يوم ١٢ أبريل ١٩٩٥ لتصوير الدور الإنسانى العظيم الذى لعبه الجيش البريطانى فى تحرير سجناء معسكر بلسن .

يقول بول أوبنهايمر Paul Oppenheimer السجين الذين نجا بحياته من معسكرى اعتقال وستربورك Westerbork وبرجن بلسن إن الناس استمعوا لأول مرة إلى صوت الناجين والناجيات من الهولوكست أمثال ألفريد جاروود Alfred Garwod وإستر برونستين Esther Brunstein وأنيتا لاكر ڤالفيخ .

والجدير بالذكر أن الحاضرين فى هذا المؤتمر ضموا كثيراً من الناجين من الهولوكست ممن أدلوا بشهادات تجيش بالعواطف والأشجان وتبث نبض الحياة فى تاريخ يبدو جافًا ونائيًا . وقد اشتمل هذا المؤتمر الخاص بتحرير بلسن على ثمان شهادات أدلى بها الناجون من الهولوكست إلى جانب عشرة أبحاث تقدم بها المؤرخون والدارسون .

وفى شهادات عن بلسن ذكرت أنيتا فيفيوركا Annette Wievior-ka الناجية من الهولوكست أن البريطانيين يحملون فى ذاكرتهم القومية صورة بطولية فريدة عن معسكر بلسن لأنهم هم الذين قاموا بتحريره . ويبدو أن البريطانيين اهتموا برعاية بعض جنسيات السجناء أكثر من بعض الجنسيات الأخرى . تقول فيفيوركا إن البريطانيين أولوا سجناء الحرب الروس فى معسكر بلسن وبعض المعسكرات القريبة منه عظيم رعايتهم وأن اهتمامهم بالسجناء الفرنسيين كان بدرجة أقل . والجدير بالذكر أن هؤلاء السجناء الفرنسيين لم يألوا جهداً فى سرقة الطعام والملابس لتوفيرها لبنى جلدتهم من سجناء بلسن . ولهذا كانوا يشترون بالسجائر ذمم الحراس والممرضين كى يوافقوا على معيشة الفرانكوفينيين فى عنبر واحد .

وعلى أية حال كان اليهود يمثلون السواد الأعظم من السجناء ، آمن الكثيرون منهم بالمذهب الصهيونى وإقامة وطن قومى فى فلسطين . يقول هاجيت لافاسكى Hagit Lavasky إن تحرير الجيش البريطانى لهؤلاء الغلاة لم يكن كافياً فقد رفضوا الرجوع إلى بلادهم الأصلية وطالبوا بإنشاء وطن قومى ليهود الشتات .

هؤلاء الصهاينة من سجناء معسكر بلسن بعد أن تم تحريره عقدوا العزم على تحقيق الحلم الصهيونى بالهجرة إلى إسرائيل ، ولكن المؤرخين البريطانيين لم يهتموا بإبراز هذا الجانب قدر اهتمامهم بتمجيد دور الجيش البريطانى فى تحرير بلسن ، بل إنهم تجاهلوا توثيق تاريخ المعسكر أثناء فترة الحرب العالمية الثانية ، غير أنهم بعد خمسين عاماً من انتهاء الحرب، اهتموا بمعرفة الكثير عن تاريخ هذا المعسكر . واكتشف الدارسون أن الفظاعات النازية التى ارتكبت فى بلسن لاتقل عن مثيلاتها فى كل من معسكر أوشويتز وداكاو .

الفصل الأول

سجن المحظوظين يتحول إلى معسكر إبادة

عرف معسكر برجن بلسن عند إنشائه بمعسكر المحظوظين نظراً لأنه كان يهدف إلى الحفاظ على حياة أسراه من اليهود للمساومة عليهم ومقايضتهم بالأسرى الألمان لدى قوات الحلفاء . ولكن هذا المعسكر المحظوظ مالبث أن تحول إلى معسكر إبادة .

وفى عام ١٩٤٦ – أى بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بعام – حثت الحكومة البريطانية السلطات الألمانية على إقامة مسلة وحائط يحمل أسماء الضحايا فى نفس المكان الذى يقام فيه معسكر احتفال بلسن . وتولت دولة ساكسونيا السفلى العناية بإقامة هذا الشاهد على فظاعات هذا المعسكر فى ١٩٥٢ . وقد كلف المكتب الرئيس للتعليم السياسى إبرهارد كولب Ebe-rhard kolb بإجراء دراسة مستوفاة عن معسكر بلسن فى عام ١٩٦٢ . وتم افتتاح مركز التوثيق الخاص بهذا المعسكر وكذلك المعرض الخاص به للزوار فى عام ١٩٦٦ .

وفى يوم ١٨ أبريل ١٩٨٥ صوتت كل الأحزاب الممثلة فى برلمان ساكسونيا السفلى للموافقة على اقتراح باعادة التنظيم اللائق الخاص بشاهد برجن بلسن وتوسيع مركز الوثائق . وأعرب البرلمان الساكسونى عن نيته فى تحرى الدقة فى تصوير الجرائم النازية التى ارتكبت فى هذا المعسكر . ولهذا ساهم المكتب الرئيسى للتعليم السياسى فى ساكسونيا السفلى فى

تصوير فيلم وثائقى عن المعسكر مستعيناً فى ذلك بالصور التى التقطها الجيش البريطانى عند قيامه بتحرير معسكر بلسن .

وأيضًا اعتمد هذا الفيلم الوثائقى على شهادة شهود العيان والناجين بحياتهم من جحيمه . وخصص المسئولون عن هذا المعرض غرفة لمن يرغبون فى التأمل واسترجاع الجرائم الرهيبة التى ارتكبها النازيون فى بلسن فى صمت وخشوع . وقد أصدر المكتب الرئيسى للتعليم السياسى فى ساكسونيا السفلى فى عام ١٩٨٥ سجلاً تاريخياً للمعسكر باللغة الألمانية تمت ترجمته إلى اللغات الإنجليزية والفرنسية والهولندية .

يقول إبرهارد كولب فى مقدمة الكتاب الذى وضعه عن معسكر بلسن «فى يناير ١٩٦٠ كلفتنى حكومة ساكسونيا السفلى بإعداد دراسة علمية عن معسكر بلسن للاعتقال وجمع الوثائق الخاصة به . وقد غطى هذا الكتاب تاريخ المعسكر فى الفترة من ١٩٤٣ حتى ١٩٤٥ وتم نشره عام ١٩٦٢ . وبحلول عام ١٩٦٦ نفدت جميع النسخ المطبوعة . وعبر الكثيرون عن رغبتهم فى معرفة المزيد عن هذا المعسكر ، الأمر الذى دفع كولب إلى استكمال دراسته ، ونشر مبحثه فى مدينة شتوتجارت عام ١٩٧٠ متضمناً أحدث المعلومات التى تكشفت له بعد صدور كتابه الأول .

لم يكن معسكر بلسن من أوائل المعسكرات النازية فقد تمت إقامته فى وقت متأخر بعض الشىء فى عام ١٩٤٣ . وكما أسلفنا من قبل لم يكن المقصود منه أن يكون معسكر اعتقال بل مجرد معسكر احتجاز خلال عامى ١٩٤٣ و ١٩٤٤ قبل أن يتحول فى عام ١٩٤٥ إلى معسكر إبادة لعشرات الآلاف فى السجناء . ولهذا لايمكننا أن نتحدث عن معسكر برجن – بلسن

بمعزل عن بقية معسكرات الاعتقال .

وحتى قبل عام ١٩٣٣ ، عبر الحزب النازى (أو الإشتراكى القومى) عن استعداده لاستخدام أسلوب القمع ضد معارضيه . فعلى سبيل المثال صرح هتلر يوم ٢٨ فبراير ١٩٢٦ أمام نادى هامبورج القومى قائلاً : «إذا أرادت الحركة النازية محاربة المذهب الماركسى فعليها أن تحاكى الماركسية فى نبذها للتسامح كما يتعين علينا ألا نترك أى مجال للشك فى أننا إذا انتصرنا فسوف نقوم بإبادة الماركسيين .. وسوف نبيدهم عن بكرة أبيهم لأننا أيضاً لانمارس التسامح» ،.

وعندما تقلد هتلر مقاليد الحكم وعين مستشاراً للرايخ الألمانى فى ٣٠ يناير ١٩٣٣ نفذ وعيده وبدأ يضطهد معارضيه السياسيين من جميع الأطياف بوحشية لم تعهدها ألمانيا من قبل عن طريق جهاز SA (المليشيا السياسية للحزب النازى) وجهاز SS أى وحدة البوليس الخاصة. ففى ٣ فبراير عام ١٩٣٣ أوضح رئيس الجستابو روهم Rohm للعاملين معه قائلاً : «إن الهدف من الصراع المتفجر عام ١٩٣٣ قد تحدد» وهو الموت للبلشفية وألمانيا فوق الجميع على الدوام . ويجب إعداد قوات الجستابو ووحدة البوليس الخاصة حتى الآن فصاعداً لتحقيق هذه الأهداف» .

وفى يوم ٤ فبراير ١٩٣٣ أصدر هتلر مرسومًا بفرض قانون الطوارئ . وبمقتضى هذا القانون تمكن النازيون من القبض التعسفى على المعارضين . وبعد الحريق الغامض الذى إندلع فى الريخستاج (البرلمان الألمانى) تولى النازيون تصفية المعارضة وإلغاء كافة الحريات المدنية والحقوق الأساسية بزعم حماية الشعب والدولة . وبعد أن كان الحبس

الاحترازى أو الوقائى لايطبق إلا فى القليل الأقل صار القاعدة العامة والممارسة المعتادة للنظام النازى . ففى بروسيا وحدها ، فى شهرى مارس وأبريل ١٩٣٣ ، تم إلقاء القبض على مالا يقل عن ٢٥ ألف شخص فى غياهب السجون استناداً إلى استنان هذه القوانين الاستثنائية .

وفى ٣١ يولية عام ١٩٣٣ وجد ٢٧ ألف شخص أنفسهم رهن الاحتجاز الوقائى فى أرجاء الرايخ الألمانى .

وفى معظم الأحيان كان الاحتجاز الوقائى يعنى الزج بالمعارضين السياسيين فى الرايخ الألمانى بعد مارس ١٩٣٣ فى السجون . وفى البداية لم تكن لهذه المعسكرات أية تنظيمات موحدة أو متسقة . وإلى جانب معسكرات الاعتقال المحلية التى أقيمت بأمر من البوليس السياسى فى مختلف المناطق ، ظهرت معسكرات أخرى عديدة قام البوليس السياسى بالاشتراك مع وحدة البوليس الخاصة بتشييدها دون إذن البوليس المحلى أو وزارة الداخلية . وكان سجناء هذه المعسكرات – وهم من الألمان المعارضين للنظام النازى – يتعرضون لانتهاكات يومية ويعذبون بقسوة حتى الموت . غير أن وزارة الداخلية الألمانية وسلطات الأمن النازية – ابتداءً من صيف عام ١٩٣٣ – ضاعفت جهودها للقضاء على ظاهرة المعسكرات العشوائية وأصبحت جميعها خاضعة لسيطرة هذه السلطات .

وبحلول شهر يونية عام ١٩٣٣ بدأت بالفعل وحدة البوليس الخاصة فى السيطرة عليها . وفى يونية ١٩٣٣ تحديداً اعترضت وزارة الداخلية البروسية رسمياً على إقامة ستة من هذه المعسكرات العشوائية باعتبارها

معسكرات تابعة للدولة ، كما فكرت فى توسيع نطاق هذه المعسكرات وزيادة عددها فى منطقة الأحراش والمستنقعات فى إمسلاند Emsland (أى فى كل من إستـرانجين Esteranagen وليـخـتنبـرج Lichtenburg وأبسلاند) .

غير أن الأمر كان مختلفاً تماماً فى بافاريا حيث تمكن هنريش هملر، رئيس الوحدة الخاصة ، من السيطرة الكاملة على البوليس الذى كان يبسط نفوذه على الشئون الداخلية . وفى ٩ مارس ١٩٣٣ تم تعيين هملر مؤقتاً رئيساً للبوليس فى ميونيخ ثم تم تعيينه فى إبريل ١٩٣٣ قائداً للبوليس السياسى فى بافاريا ، ومنذ بداية عهده بالسلطة عقد هملر العزم على اخضاع البوليس السياسى لسلطة وحدة البوليس الخاصة التى يرأسها . واستطاع فى مارس ١٩٣٣ إقامة أول معسكر اعتقال كبير تديره وحدة البوليس الخاصة بالقرب من داكاو على أرض مصنع لإنتاج البارود تحت إشراف وحدة البوليس الخاصة .

وقد أصبح هذا المعسكر النموذج الذى احتذاه النازيون فى إقامة جميع معسكرات الاعتقال اللاحقة . ومعنى ذلك أن وحدة البوليس الخاصة أصبحت مهيمنة منذ عام ١٩٣٤ على معسكرات الاعتقال النازية ومن ناحية أخرى قام هملر بتعيين إيك Eicke قائد معسكر داكاو فى وظيفة «مفتش معسكرات الاعتقال والمشرف على وحدات البوليس الخاصة » وأمره بإعادة تنظيم معسكرات الاعتقال وتوحيد النظام المعمول به .

واقتضت مهمة إيك جمع السجناء المتناثرين فى كل أرجاء الرايخ الألمانى فى معسكرات محلية صغيرة ودمجها فى عدد قليل من المعسكرات

الكبيرة الحجم ؛ حتى يتمكن رجال وحدة البوليس الخاصة من إدارتها وتسيير أمورها . وبحلول شهر مارس ١٩٣٥ أصبح إيك يسيطر على سبعة معسكرات تضم ما بين سبعة آلاف إلى تسعة آلاف سجين . وهذه المعسكرات السبعة هى : داكاو Dachau وإسترنيجين Esterwagen وليختنبرج Lichtenburg وساشسنبرج Sachsenburg وكولومبيا هاوس Columbia, House وأورانينبرج Oranienburg وفوهلسباتل Fuhlsbut-tel القريبة من هامبورج . وليس هناك من شك فى أن الحرص على تطوير معسكرات الاعتقال النازية وتوحيد نظمها يدل دلالة قاطعة على أن النازيين كانوا يبيتون النية لإطالة العمل بقانون الطوارىء .

وفى السنوات الأولى من إقامة معسكرات الاعتقال لم تزد نسبة النزلاء اليهود على ١٠ ٪ تقريباً من مجموع السجناء ، فى حين كان ٩٠ ٪ منهم مجموعة منسجمة ومتناغمة من الشيوعيين والاشتراكيين الديموقراطيين ونشطاء الحركات النقابية . غير أن التركيبة المتناسقة من السجناء ما لبثت أن تغيرت تغييراً جذرياً فى عام ١٩٣٧ – ١٩٣٨ عندما أمر هملر بسجن ما يقرب من ١٥ ألف من المسجلين الخطرين ومعتادى الإجرام فى المعتقلات .

ويرر هذا الأجراء بأن ألمانيا بحاجة إلى شحن كل قواها العاملة من أجل دعم موارد البلاد الاقتصادية ، وباستثناء الاحتفاظ بمعسكر داكاو (الذى تم توسيعه ليشمل نحو ستة آلاف سجين بدلاً من ألفى سجين) تمت تصفية جميع المعسكرات التى أنشئت فى الفترات الباكرة ليحل محلها معسكران كبيران للاعتقال هما معسكر بوخنوالد Buchenwald بالقرب من

وايمر Weimer وساشنهاوزن Sachsenhausen بالقرب من برلين . وقد أقيمت هذه المعسكرات الكبيرة فى أماكن مجاورة للمناجم والمحاجر للاستفادة من عمالة السجناء بأقل النفقات .

وهذا الاعتبار الاقتصادى هو الذى دعا فيما بعد إلى إقامة عدد آخر من المعسكرات فى مواقع الإنتاج وهى فلوسنبرج Flossenburg وماوثاوزن Mauthausen وجروس – روزن Gross-Rosen وناتزويلر Natzweiler . والجدير بالذكر أن النازيين استفادوا بوجه خاص من عمالة السجناء الرخيصة منذ عام ١٩٣٧ – ١٩٣٨ فصاعداً فى قطاع التشييد والبناد .

وكانت هناك عدة أسباب للزيادة الكبيرة التى طرأت عام ١٩٣٨ على السجناء والمعسكرات . ويتلخص أحد هذه الأسباب فى أن وحدة البوليس الخاصة قامت بترحيل عدد كبير من المعارضين السياسيين والزج بهم فى معسكرات اعتقال فى المناطق التى ضمها الرايخ الألمانى عام ١٩٣٨ إلى أراضيه وهى النمسا وسودنتلاند Sudentland والمناطق التى تتحدث باللغة الألمانية فى يوغسلافيا ، بالإضافة إلى ترحيل نحو عشرة آلاف يهودى إلى معسكرات بوخنوالد وساشسنهاوزن وداكاو بهدف إذاقتهم كأس المرارة حتى يضطروا إلى مغادرة الأراضى الألمانية بأسرع وقت ممكن . والجدير بالذكر أن معظم اليهود المقبوض عليهم فى نوفمبر ١٩٣٨ مكثوا فى المعسكرات لأسابيع قليلة ثم أطلق سراحهم بمجرد موافقتهم على الهجرة من ألمانيا ، وقد انخفضت أعداد السجناء فى معسكرات الاعتقال فى ربيع وصيف ١٩٣٩ . ولكن عددهم ما لبث أن

ارتفع إلى نحو ٢٥ ألف سجين مع بداية الحرب العالمية الثانية فى سبتمبر ١٩٣٩ .

ولا شك أن اندلاع هذه الحرب كان نقطة تحول فى تطور معسكرات الاعتقال النازية من ناحيتى الكيف والكم ، ومع اشتداد وطيس الحرب العالمية الثانية ارتفع عدد المعتقلين الذين رحلتهم السلطات النازية من الأراضى الواقعة تحت الاحتلال إلى معسكرات الاعتقال الأمر الذى أدى إلى أنخفاض نسبة السجناء الألمان إلى ما بين ٥٪ و ١٠٪ من المجموع الكلى للسجناء .

وكما أسلفنا سعى النازيون عن طريق معسكرات الاعتقال إلى التخلص من المعارضين لهم من ناحية واستغلال عمالة السجناء الرخيصة فى تحقيق مكاسب إنتاجية واقتصادية من ناحية أخرى . وقد برز هذا الاستغلال الاقتصادى بوضوح بعد إلحاق وحدة البوليس الخاصة لمعسكرات الاعتقال بالإدارة الاقتصادية الرئيسية (التى تعرف اختصاراً بـ WVHA) يوم ٣ فبراير ١٩٤٢ .

والجدير بالذكر أن إدارة وحدة البوليس الخاصة أنشأت عام ١٩٤٢ فرقاً للعمل فى كل معسكر وهى تُعرف بمعسكرات العمل . وفى أبريل ١٩٤٤ ارتفع عدد معسكرات العمل هذه إلى ١٦٥ فى حين لم يزد عدد معسكرات الاعتقال نفسها إلا بعشرين معسكراً . وبنهاية عام ١٩٤٤ زاد عدد معسكرات العمل إلى خمسمائة . ويدل التقرير الذى أعدته الإدارة الاقتصادية المعروفة اختصاراً WVHA أن إجمالى عدد السجناء فى معسكرات الاعتقال بلغ أكثر من نصف مليون شخص (٥٢٤٢٨٦) بينهم

٣٧٩١٦٧ من الرجال و ١٤٥١١٩ من النساء . وقد زاد هذا العدد فى نهاية عام ١٩٤٤ حتى وصل إلى ٧١٤٢١١ فى ١٥ يناير ١٩٤٥ . وكانت السلطات النازية تتعمد استنزاف طاقة السجناء فى مواقع الانتاج حتى تفيض أرواحهم . ويقدر عدد السجناء الذين ماتوا فى معسكرات الاعتقال من الإرهاق والأمراض وحدهما بنحو نصف مليون شخص .

مارس النازيون ضغوطاً هائلة على اليهود للنزوح من ألمانيا إلى الأقطار الأخرى فنزح نصفهم تقريباً من الرايخ إلى الخارج عام ١٩٣٣ ، وفى بولندا التى احتلتها ألمانيا النازية عام ١٩٣٩ والتى كان يعيش فيها ما لا يقل عن ٢ مليون يهودى لم يتمكنوا من الهجرة . وفى أكتوبر ١٩٣٩ اقترحت سلطات الاحتلال النازى على يهود بولندا العمل الشاق القسرى والعيش فى الجيتو ، وأثناء استعدادات هتلر لغزو الاتحاد السوفيتى فكر الفوهرر فى انتهاز هذه الفرصة لإبادة يهود أوروبا الشرقية إبادة جماعية . فبمجرد أن بدأ هذا الغزو ، أعد لهذا الغرض أربع وحدات تتكون كل منها من ستمائة إلى ألف نازى يلحقون بمؤخرة الجيش النازى الزاحف على روسيا وتكليفهم بإرسال اليهود فى شاحنات لإطلاق الرصاص عليهم فى أماكن نائية بزعم توطينهم فى أماكن أفضل ، وقد حدثت أكبر مجزرة لهم يوم ٢٩/ ٣٠ سبتمبر ١٩٤١ ، وإلقاؤهم فى هوة سحيقة بالقرب من كييف تعرف باسم بابى يار حيث أجهز النازيون على ٣٣٧٧١ فى غضون يومين .

وفى غضون العشرة شهور الأولى من الغزو النازى للأرض الروسية قامت الوحدات النازية المشار إليها بقتل نحو نصف مليون يهودى ارتفع عددهم فيما بعد إلى نحو مليون .

وفى بداية الأمر كانت وحدة البوليس الخاصة تلجأ إلى ضرب سجناء معسكرات الاعتقال بالرصاص . ثم قررت التخلى عن هذا الأسلوب لتستحدث أسلوب القتل بالغازات السامة وهى نفس الطريقة التى سبق للنازيين استخدامها فى الفترة من عام ١٩٣٩ حتى عام ١٩٤١ فى قتل المواطنين الألمان غير الصالحين للحياة والمعتوهين فى مؤسسات القتل الرحيم . وفى نهاية عام ١٩٤١ استخدمت وحدات البوليس الخاصة شاحنات غاز متحركة لقتل الضحايا عن طريق انبعاث غاز الكاربون مونوكسيد .

وفى الوقت نفسه تقريباً بدأ النازيون فى إنشاء وحدات إبادة ثابتة . وكلفت السلطة النازية الماجور – الجنرال جلوبوكنيك Globocnic – أحد المسئولين القياديين فى وحدة البوليس الخاصة بإبادة اليهود المقيمين فى بولندا التى عرفت آنذاك بالحكومة العامة ، فأقام لهذا الغرض ثلاثة معسكرات إبادة فى شرق بولندا هى بيلزيك Belzec وصوبيبور Sobibor وتربلينكا Treblinka وعهد بإدارة هذه المعسكرات الثلاثة إلى عدد من العاملين الذين سبق أن تلقوا تدريباً على تنفيذ برنامج القتل الرحيم .

وكان الهدف من إنشاء هذه المعسكرات الثلاثة هو قتل اليهود فى غرف الغاز بمجرد وصولهم إلى معسكرات الاعتقال ، وفى البداية كان هؤلاء اليهود يأتون من الحكومة العامة (أى من بولندا) ولكنهم فيما بعد كانوا يأتون من البلاد الأوربية التى تحتلها القوات النازية . وأضيف إلى معسكرات الإبادة الثلاث معسكر آخر يعرف بمعسكر شلمنو Chelmno (أو كولمهوف Kulmhof) حيث استخدمت وحدات البوليس الخاصة لوريات غازات سامة ثابتة فى مكانها .

ويمكن القول أن الإبادة الجماعية بدأت تأخذ شكلاً منتظماً يوم ١٧ مارس ١٩٤٢ مع بداية ترحيل السجناء اليهود من معسكر لوبلين Lublin إلى معسكر صوبيبور فى مايو ١٩٤٢ أما القتل الجماعى فى معسكر تريبلينكا الذى استقبل اليهود المرحلين من جيتو وارسو فى بولندا فقد بدأ فى يوليو ١٩٤٢ .

كان معسكر برجن بلسن منذ انشائه عام ١٩٤٣ يخضع للنظام العام المعمول به فى المعسكرات . غير أنه اختلف عن سائر المعسكرات – كما سبق أن ذكرنا – فى الهدف من انشائه وهو التحفظ على نحو ألف يهودى من أوربا للمقايضة عليهم بالتفاوض على القوات الحليفة ، وذلك بناءاً على اقتراح تقدم به مكتب الشئون القانونية بوزارة الخارجية الألمانية . فقد اقترح الدكتور ألبريخت Albrecht رئيس هذا المكتب يوم ٤ فبراير ١٩٤٣ فكرة تبادل اليهود الذين يحملون جنسية مزدوجة (بريطانية أو أمريكية) بالأسرى الألمان الواقعين فى قبضة الحلفاء .

وقد شرح الدكتور ألبريخت فكرته بعد مرور أيام قليلة فى مذكرته المؤرخة فى ٩ فبراير ١٩٤٣ . ففى مناسبة آخر تبادل يهود يزمعون الهجرة إلى فلسطين قام البريطانيون بإرجاع ثلثمائة ألمانى من الأراضى الفلسطينية إلى الرايخ الألمانى يشتملون على عدد من اليهوديات البولنديات ، بناء على رغبة الحكومة البريطانية رغم أنهن لم يكن يحملن بطاقات هوية فلسطينية بل كن مجرد قريبات لأهل يعيشون فى فلسطين .

وأملاً فى إجراء بعض التبادلات الجديدة أمر هملر بإعداد قائمة جديدة بأسماء ١٦٠٠ يهودى من سكان بولندا ممن كان لهم أقارب يعيشون

فى فلسطين . وكان غرض هملر فى إعداد هذه القائمة المقايضة عليهم ببعض الألمان الذين يعيشون فى فلسطين على وجه التحديد الخاضعة آنذاك للحكم البريطانى . ولهذا اقترح الدكتور ألبريخت إجراء محادثات مع المفوضية السويسرية التى تمثل المصالح البريطانية . كما عبر عن نية ألمانيا لتسليم هؤلاء اليهود مقابل المواطنين الألمان السجناء أو الذين تحتجزهم بريطانيا والذين يرغبون فى العودة إلى بلدهم ألمانيا .

وفى ١٣ فبراير (١٩٤٣) أعلن وزير خارجية ألمانيا النازية فون روبنتروب Von Ribbentrop موافقته من حيث المبدأ على توسيع نطاق تبادل الأسرى الألمان اليهود المتحفظ عليهم ، وأبلغ الدكتور ألبريخت للإتصال بهملر بهذا الشأن . وتمشيًا مع هذه التعليمات قامت وزارة الخارجية يوم ٢ مارس ١٩٤٣ بتبليغ مكتب الأمن الرئيسى فى الرايخ المعروف اختصاراً باسم RSHA باتخاذ كافة الإجراءات من أجل التمكن من إستعادة الألمان المحبوسين فى الخارج إلى وطنهم مقابل تسليم الأسرى الأعداء الموجودين فى معسكر بلسن . وأضافت وزارة الخارجية أن السجناء فى المعسكرات النازية الممكن استبدالهم لايقتصرون على اليهود الإنجليز والأمريكان فحسب بل أيضًا يشملون اليهود الهولنديين والبلجيكيين والنرويجيين والسوفيت .

ولهذا طلبت وزارة الخارجية الألمانية التحفظ على ثلاثين ألف يهودى من الجنسيات السالفة الذكر للمقايضة عليهم . وكذلك طلبت وزارة الخارجية تأجيل ترحيل هذه الرهائن اليهودية فى الوقت الحالى إلى أن تفشل المفاوضات الجارية الخاصة بالمقايضة عليهم . واقترحت وزارة

الخارجية الألمانية انتقاء الرهائن اليهود من الهولنديين والبلجيكيين والفرنسيين والنرويجيين الذين تربطهم بدول الأعداء (أى الحلفاء) صلات أسرية أو صداقات أو علاقات سياسية وتجارية .

ووافق مكتب الأمن الرئيسى فى الرايخ على هذا الاقتراح لأنه وجد استحساناً لدى هملر الذى اختمرت فى عقله نفس الأفكار والذى سبق له فى ديسمبر عام ١٩٤٢ أن أصدر أمراً «بتجميع كل اليهود أصحاب النفوذ فى أمريكا والتحفظ عليهم فى معسكر خاص وتكليفهم بالقيام ببعض الأعمال التى لاتضر بصحتهم أو تعرض حياتهم للخطر ... مثل هؤلاء اليهود رهائن لها قيمتها بالنسبة للدولة النازية . وإنى أتصور أن عددهم يصل إلى عشرة آلاف يهودى» .

وفى شهر مارس وأوائل إبريل عام ١٩٤٣ كان هملر قد أصدر الفعل أمراً بإقامة مثل هذا المعسكر . وبعد مرور وقت قصير أخذت السلطات النازية تراعى عند ترحيلها لليهود إلى هذه المعسكرات النقاط التالية :

(١) أن ينتموا إلى عائلات لديها نفوذ أولهم صلات بأشخاص لديهم نفوذ فى بلاد الأعداء .
(٢) إمكانية تبادل هؤلاء اليهود بمواطنى الرايخ المحتجزين أو المحبوسين فى الدول المعادية ؛ شريطة أن تكون الأعداد المتبادلة فى صالح الدولة النازية .
(٣) أن يراعى فى عملية الترحيل هؤلاء اليهود الذين يمكن الإستفادة منهم كرهائن أو كوسيلة لممارسة الضغط السياسى والاقتصادى .
(٤) احتجاز كبار الموظفين من اليهود .

ثم قام هملر بتكليف الجنرال بوهل Pohl رئيس الإدارة الاقتصادية WVHA بوحدة البوليس الخاصة بمهمة البحث عن مكان مناسب لإقامة مثل هذا المعسكر . واستطاع بوهل فى أبريل ١٩٤٣ إقناع رئيس مصلحة سجناء الحرب بنقل عدد من أسرى الحرب الموجودين فى برجن بلسن الذى كان يسمى ستالاج Stalag (٣١١) إلى الإدارة الاقتصادية . ودرج النازيون على استخدام هذا الجزء من ستالاج ٣١١ كمعسكر خصوصى منذ أواخر أبريل ١٩٤٣ .

وقد ظهر اسم برجن بلسن لأول مرة يوم ٢٧ أبريل ١٩٤٣ فى المنشور الدورى الذى يصدره القسم (د) بالإدارة الاقتصادية المسئولة عن معسكرات الاعتقال . ثم صدر مرسوم آخر من القسم (د) بتاريخ ١٠ مايو ١٩٤٣ يعلن رسمياً افتتاح معسكر برجن بلسن كمعسكر اعتقال مدنى . ورأت الإدارة الاقتصادية لأسباب تكتيكية ضرورة تغيير إسم المعسكر فتم تغييره فى يونية ١٩٤٣ إلى معسكر اعتقال برجن بلسن .

ويرجع السبب فى هذا التغيير إلى أن مواثيق جينيف الخاصة بإنشاء معسكرات الاعتقال تشترط عند اختيار مكانها أن يكون فى مقدور اللجان الدولية زيارتها . ولهذا لم يكتسب معسكر برجن بلسن الجديد وضع أو صفة المعسكر المدنى. بل تم إدماجه فور إقامته – بناءً على التعليمات الصادرة من هملر – فى معسكرات الاعتقال التى تتولى الإدارة الاقتصادية الإشراف عليها . ورغم هذا فقد احتفظ هذا المعسكر بخصوصيته كمعسكر السجناء اليهود الذين لايجوز تكليفهم بأداء أعمال شاقة فى مصانع إنتاج الذخيرة والذين يتعين الاحتفاظ بهم لحين مبادلتهم بالألمان ، الأمر الذى أعطى هذا

المعسكر وضعاً خاصاً بين معسكرات الاعتقال النازية الأخرى .

وبسبب هذا التميز لم تتدخل الإدارة العامة لمعسكرات الاعتقال فى شئونه . ولكن هذا لم يمنعها على مدار الأيام من أن تحاول تحويل هذا المعسكر للاحتجاز إلى معسكر اعتقال كامل .

وفى أبريل عام ١٩٤٣ أمر بوهل بتعيين الكابتن أدولف هاس Adolf Hoas – رغم قلة خبرته وتجربته – قائداً لمعسكر برجن بلسن . وقد سبق تعيينه قائداً لمعسكر اعتقال يدعى نييدرهاجن Niedhargen بالقرب من بادربورن Paderborn فى الفترة من عام ١٩٤١ حتى أبريل ١٩٤٣ أى حتى تاريخ تصفيته .

والجدير بالذكر أن الجزء من معسكر ستالاج الذى تم اقتطاعه وتسليمه إلى الإدارة الاقتصادية فى ربيع عام ١٩٤٣ كان فى حالة زرية ومهدمة – لايصلح إطلاقًا لكى يكون معسكراً لتبادل السجناء والمقايضة عليهم . ومن ثم لم يكن هناك مفر من التريث والانتظار لحين إدخال الإصلاحات اللازمة عليه . ولهذا السبب نرى أن أول فوج من السجناء يصل إلى أرض معسكر برجن بلسن كان من عمال البناء والتشييد لإصلاحه وترميمه .

وقد جاء الفوج الأول منهم – وهو يتكون من ٢٥٠ سجينًا من معسكر بوخنوالد يوم ٣٠ أبريل ١٩٤٣ ثم تبعه فوج أصغر قادم من معسكرى بوخنوالد ونيتيدرهاجن ثم جاء بعده يوم ١٨ مايو ١٩٤٣ فوج كبير من السجناء الفرنسيين القادمين من معسكر اعتقال ناتزويلر Natz-weiler . وهكذا تكونت من السجناء فرقة للإعمار والتشييد قوامها

نحو خمسمائة سجين توفروا على إعداد وتطوير معسكر بلسن فى مايو ١٩٤٣ .

والجدير بالذكر أن الفوج الأول من السجناء اليهود الذين تقرر استبدالهم بألمان فى معسكر برجن بلسن رحلوا فيما بعد إلى معسكرات الإبادة . ففى منتصف يولية ١٩٤٣ وصل إلى برجن بلسن نحو ٢٥٠٠ يهودى بولندى (معظمهم من وارسو ولمبرج وكراكو، تحمل غالبيتهم وثائق هوية مزورة فى كثير من الأحيان صادرة من أمريكا اللاتينية مثل بارجواى وهوندوراس) . ولكن الإدارة الاقتصادية التابعة لوحدة البوليس الخاص قررت فى أوائل صيف ١٩٤٣ عدم الاعتراف بهذه الأوراق وترحيل حامليها إلى معسكرات الإبادة .

وبينما كانت الإدارة الاقتصادية بوحدة البوليس الخاصة تستعد لتنفيذ هذا المشروع كانت معنويات مجموعة السجناء فى معسكر برجن بلسن فى حالة طيبة وهم ينتظرون موعد رحلتهم إلى الخارج . وفى شهرى أغسطس وسبتمبر ١٩٤٣ تم فحص الأوراق ووثائق اليهودية التى يحملونها فحصاً دقيقاً . وفى النصف الثانى من شهر أكتوبر من نفس العام صدر الأمر إلى مايقرب من ١٧٠٠ سجيناً فى المجموعة البولندية من حاملى أوراق الهوية الخاصة بأمريكا اللاتينية بالاستعداد لترحيلهم إلى معسكر بيرجو Bergau بالقرب من درزدن تمهيداً لسفرهم إلى فلسطين فى حين أن القطار الذى أقلهم كان فى الواقع يتجه نحو معسكر الإبادة المعروف أوشويتز .

وعندما اكتشف السجناء خديعة النازيين لهم انتزعت إحدى السجينات مسدس أحد رجال الوحدة الخاصة وصوبته نحوه وأردته قتيلاً

كما أصابت رجلاً آخر بجروح بالغة . وأيضاً قامت نساء أخريات بالهجوم بأيديهم على بعض رجال الوحدة الخاصة ونشبن أظافرهن فى وجوههم ، الأمر الذى اضطرهم إلى استدعاء تعزيزات أمنية لضرب السجناء المتمردين بالرصاص والقنابل اليدوية ، كما تم قتل البقية فى غرف الغاز الملحقة بغرفة أوشويتز رقم ٣ . والجدير بالذكر أن النازيين قضوا على أعضاء هذا الفوج البالغ عددهم فوق ١٧٠٠ سجيناً عن بكرة أبيهم .

وفى النصف الأول من عام ١٩٤٤ تم ترحيل مابين ٣٥٠ و ٣٠٠ بولندياً (وهم البقية الباقية من حاملى جوازات سفر أمريكا اللاتينية) من برجن بلسن إلى أوشويتز. وهكذا لم يبق فى المجموعة البولندية فى معسكر برجن بلسن سوى ٣٥٠ سجيناً معظمهم وعددهم نحو ٢٦٠ شخصاً على القائمة الفلسطينية فى حين كان الباقون من مواطنى الولايات المتحدة وجنوب أمريكا ، اعترف الجستابو على غير العادة بسلامة أوراق هويتهم لسبب غير معروف .

وبعد وصول المجموعة اليهودية البولندية إلى معسكر بلسن قام النازيون بترحيل نحو ٤٤١ معتقلاً من سالونيكا إلى هذا المعسكر . وكان هذا الفوج يضم ٧٤ يهودياً يونانياً وكان الباقون وعددهم ٣٦٧ من اليهود السفارديم الذين يحملون الجنسية الإسبانية ويعيشون فى اليونان . وبينما تمت إبادة معظم أعضاء الجالية اليهودية فى سالونيكا البالغ عددها ٤٦ ألف يهودى – وهم من أكبر الجاليات اليهودية فى الشرق الأوسط – بالغاز فى معسكر أوشويتز اضطر النازيون إلى استثناء المواطنين الإسبان فى هذا المعسكر من الإبادة بسبب انتمائهم إلى دولة محايدة . وفى ٢ أغسطس عام

١٩٤٣ غادر قطار خاص إلى برجن بلسن يحمل ٣٦٧ يهودياً إسبانياً و ٧٤ يهودياً يونانياً . وتم عزل اليهود الإسبان عن اليهود اليونانيين عند وصولهم إلى برجن بلسن . وتم وضع يهود سالونيكا ممن يحملون الجنسية الإسبانية فى جزء من المعسكر خاص بالسجناء المنتمين إلى دول محايدة ، فى حين تم الزج باليهود اليونانيين فى بعض ثكنات هذا المعسكر ، وهى نفس الثكنات التى أودع فيها فيما بعد عدة آلاف من اليهود الهولنديين للمقايضة عليهم .

وبعد مفاوضات طويلة بين وزارة الخارجية الألمانية والحكومة الإسبانية ، سمح النازيون لليهود الإسبان بمغادرة سالونيكا والعودة إلى إسبانيا فى فبراير ١٩٤٤ . وأصبح هذا الفوج من السجناء أول من زج بهم فى معسكر اعتقال فى شمال أفريقيا . وانتهى بهم المطاف إلى الاستقرار فى فلسطين .

وكذلك وصلت مجموعة أخرى من اليهود الإسبان إلى برجن بلسن بعد رحيل اليهود الإسبان فى سالونيكا بوقت قصير . ولكن النازيين رفضوا إعطاء هذه المجموعة تصاريح سفر . وبعد أن تمكنت القوات النازية من احتلال أثينا شنت حملة واسعة النطاق فى نهاية مارس ١٩٤٤ انتهت بالقبض على ١٥٥ يهودياً إسبانيًا و١٩ يهودياً برتغاليًا تم ترحيلهم إلى الشمال مع سجناء آخرين . وفي حين تم ترحيل اليهود اليونانيين والإيطاليين إلى معسكر أوشويتز للإبادة واصل القطار رحلته ليصل بعد أسبوعين إلى معسكر برجن بلسن فى معسكر خاص برعايا الدول المحايدة حيث ظلوا فيه حتى نهاية الحرب .

ومنذ بداية عام ١٩٤٤ أصبحت غالبية السجناء فى معسكر برجن بلسن من اليهود الهولنديين المحتجزين للمقايضة . والجدير بالذكر أن يهود

هولندا تعرضوا للإبادة النازية أكثر من يهود البلاد الأوربية الأخرى ، فبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية لم يعد إلى ديارهم من اليهود الهولنديين المرحلين البالغ عددهم ١١٠ ألف سجين سوى ستة آلاف كان أكثر من ثلثهم محتجزين فى برجن بلسن للمقايضة عليهم .

وقد تم ترحيل كل هؤلاء السجناء من المعسكر المؤقت فى وستربورك إلى معسكر احتجاز بلسن وكانوا محظوظين لقيد أسمائهم على القائمة المزمع ترحيلها إلى فلسطين أو على قائمة المواطنين التابعين لأمريكا الجنوبية أو قائمة الحاملين للجنسية المزدوجة . وكذلك زج النازيون فى برجن بلسن باليهود الذين يطلق عليهم «خاتم ١٢٠٠٠٠» ومعناها اليهود الذين ثبت أن لهم علاقة بالدول المعادية لألمانيا واليهود الأثرياء واليهود العاملون فى مناجم الماس وتجارته الذين امتنع النازيون عن ترحيلهم إلى معسكرات الإبادة والممنوعون فى الوقت نفسه من السفر إلى الخارج ، إلى جانب اليهود من أصحاب الموهبة والاستحقاق . والجدير بالذكر أن الفترة من يناير حتى سبتمبر عام ١٩٤٤ شاهدت ترحيل ٣٦٧٠ من يهود التبادل أو المقايضة المنتمين إلى هذه الفئات السالفة الذكر بصحبة عائلاتهم من وستربورك إلى برجن بلسن فى ثمانية أفواج .

وخلال النصف الأول من عام ١٩٤٤ وصلت أفواج من اليهود إلى معسكر برجن بلسن قادمة من دول أوربية مختلفة . وبعد احتلال القوات النازية للجزء الشمالى فى إيطاليا قامت بالقبض على نحو ٢٠٠ يهودى من شمال أفريقيا معظمهم من تونس وطرابلس وبنى غازى ممن كانوا فيما مضى رهن الاعتقال فى معسكر فوسولى دى كاربى الإيطالى . Fossoli

di carpi وبالنظر إلى أن هؤلاء اليهود كانوا يحملون جوازات سفر بريطانية فقد اعتبرتهم إدارة وحدة البوليس الخاصة رهائن مناسبة للمقايضة عليهم فأرسلتهم إلى معسكر الاحتجاز فى برجن بلسن . وكذلك تم الزج فى بلسن بنحو عشرين امرأة يهودية متزوجات من جنود فرنسيين ممن وقعوا فى أسر القوات النازية ، والذين تم احضارهم من معسكر اعتقال درانسى Drancy الفرنسى إلى جانب عدة مئات من يهود يوغسلافيا وألبانيا القادمين من معسكر اعتقال قريب من مدينة زغرب ، وممن كانوا يحملون بحوزتهم وثائق سفر أجنبية .

وبعد الزج بهؤلاء اليهود فى ذلك الجزء من معسكر بلسن المخصص للتبادل أو المقايضة ارتفع عددهم فى ١ يناير ١٩٤٤ من ٣٧٩ سجيناً فقط إلى نحو ٤١٠٠ سجيناً فى ٣١ يولية ١٩٤٤ . ولكن لم يزد عدد اليهود الذين حصلوا على حريتهم من معسكر بلسن عن طريق التبادل على ٣٥٨ يهودياً .

وفى نهاية أبريل عام ١٩٤٤ تم اختيار نحو ٢٢٢ شخصاً من نحو ١٣٠٠ معتقل من الحاملين لأوراق فلسطينية للمقايضة عليهم وترحيلهم إلى فلسطين . وبعد مرور عدة أسابيع من الانتظار القلق ، سافروا إلى إسطنبول عن طريق فيينا وبودابست فى ٢٩/ ٣٠ يونية ووصلوا إلى حيفا يوم ١٠ يولية فى نفس العام . ثم وصل فوج آخر يضم ٣٠١ سجيناً من معسكر بلسن من الحاملين لجنسيات أمريكا الجنوبية وأمريكا الوسطى غادروا معسكر بلسن يوم ٢١ يناير ١٩٤٥ لم يصل منهم سوى ١٣٦ فى سويسرا يوم ٢٥ يناير فى هذا العام ، فى حين ظل بقية زملائهم السجناء فى معسكرات اعتقال فى كل من بيبراخ Biberach ورافنزبورج Ravensburg .

وهكذا يتضح أن خطة التبادل لم تر طريقها إلى حيز التنفيذ إلا فى حدود ضيقة للغاية فلم يتحرر من قبضة النازيين سوى عدد ضئيل من مجموع آلاف السجناء في برجن بلسن . ويرجع السبب فى هذا إلى أن المفاوضين الألمان تعمدوا إثارة المشاكلات أمام الحلفاء بمطالبهم المبالغ فيها وشروطهم الكثيرة التى يتعذر تنفيذها ، فضلاً عن تقاعس أوطان هؤلاء اليهود أحياناً عن المطالبة بإطلاق سراحهم .

والجدير بالذكر أن المعتقلين فى معسكر الاحتجاز فى بلسن لم يعيشوا كما عاش سجناء معسكرات الاعتقال الأخرى . فقد تم تقسيم هذا المعسكر إلى عدة أقسام منفصلة تماماً عن بعضها البعض عن طريق أسوار عالية من الأسلاك الشائكة حتى لايتمكن السجناء من الاتصال بزملائهم ، فضلاً عن أن إدارة معتقل برجن بلسن كانت تعامل هذه الأقسام معاملة مختلفة طبقًا للتعليمات الصادرة إليها من الإدارة الاقتصادية لوحدة البوليس الخاصة . وتدل التقسيمات الكثيرة داخل معسكر بلسن للاحتجاز على مدى تعقيد وتنوع الأهداف التى حدت بهذه الإدارة الاقتصادية إلى استثناء اليهود من الترحيل إلى معسكرات الاعتقال الأخرى وتركيزهم فى معسكر احتجاز واحد هو برجن – بلسن .

وكان أكثر قطاعات معسكر بلسن إمتلاءً بالمعتقلين حتى نهاية عام ١٩٤٤ هو معسكر النجمة الذى أطلق عليه هذا الاسم لأن نزلاءه كانوا يلبسون نجمة داود على ملابسهم المدنية ، واحتوى هذا القطاع على ١٨ ثكنة سكنها اليهود المحتجزون من أجل المقايضة . وقد كانوا من اليهود القادمين من سالونيكا واليهود البولنديين القادمين من وستربورك ويهود

يوغسلافيا وألمانيا . وكذلك من اليهود القادمين من شمال أفريقيا واليهوديات الفرنسيات القادمات من معتقل درانسى الفرنسى .

وفى نهاية شهر يولية ١٩٤٤ وصل عدد المعتقلين اليهود حتى نهاية ١٩٤٤ إلى نحو ٤١٠٠ ولكن هذا العدد مالبث أن انخفض بسبب كثرة عمليات الترحيل للمعتقلين وارتفاع نسبة الوفيات بينهم . وكان الرجال يعيشون بمعزل عن النساء . غير أنه سمح للعائلات بالعيش معاً فى فترة النهار . وفى أوائل ١٩٤٤ لم تكن الحصص التموينية المخصصة للمعتقلين كافية . فضلاً عن أن إدارة المعتقل احتجزت سجناءها فى معسكر النجمة للعمل حتى إذا كانوا من كبار السن .

وكانت أكبر فرقة عمل هى فرقة صنع الأحذية وإصلاحها المقيمة فى إسطبل تحول إلى ثكنة حيث تم فيها تجميع عدد هائل من الأحذية القديمة آتية من غرب ألمانيا لإعادة تصنيعها والاستفادة من جلدها السليم إلى جانب تكليف المعتقلين بمهمة تقشير البطاطس وتنظيف أوانى المطبخ تحت إشراف مشرف نازى يتسم بالقسوة والغلظة . وقام النازيون بتعيين كابو يهودى (أى مشرف على السجناء) فاسد حتى يكون حلقة الوصل بينهم وبين السجناء . وهو يهودى يونانى فاسد يدعى جاك ألبالا Jacques Albala ظل يشغل منصبه كمشرف حتى عام ١٩٤٤ . ولكن نائبه وهو يهودى هولندى اسمه جوزيف ويب Joseph Weib كان أقل فظاظة منه .

وفى نهاية يولية عام ١٩٤٤ عاش فى معسكر المحايدين المكون من ثكنتين نحو ٢٥٠ يهودياً قادمين من دول محايدة لاتناصب ألمانيا النازية العداء . ومع بداية مارس ١٩٤٥ ارتفع عدد نزلاء هذا القطاع إلى ٣٦٦

شخصاً يشتملون على ١٥٥ إسبانيا و١٩ برتغالياً و٣٥ أرجنتينياً و ١٠٥ تركياً . ولم يكلف هؤلاء السجناء بأى عمل قسرى ، فضلاً عن أن ظروفهم الصحية كانت أفضل وطعامهم أوفر من معسكر النجمة الذى سادته القسوة وسوء المعاملة .

واشتمل المعسكر الخاص في برجن بلسن على ٣٥٠ يهوديًا من مختلف الجنسيات هم بقايا مجموعة السجناء اليهود البولنديين البالغ عددهم ٢٥٠٠ . ومن بين الـ٣٥٠ يهودياً كان ٢٦٦ منهم يحملون أوراق هوية فلسطينية إلى جانب ٣٤ من الأمريكان وخمسين من حملة وثائق هوية أمريكا الجنوبية . وكان من المفترض أن تزج إدارة معسكر بلسن بهؤلاء فى معسكر النجمة . ويبدو أنها لم تفعل ذلك لأنها كانت ترغب فى عزلهم عن اليهود الأوربيين القادمين من غرب القارة الأوربية وجنوبها . ولم يلحق سجناء المعسكر الخاص بفرق العمل ، واكتفت إدارة معسكر بلسن بتكليفهم بأداء الأعمال المطلوبة داخل القطاع الذى يأويهم .

وفى ٨ يولية ١٩٤٤ افتتح النازيون فى بلسن المعسكر المجرى لاستقبال ١٦٨٣ يهودياً مجريًا قادمين بالقطار إلى بودابست . وتلقى هؤلاء السجناء المجريون معاملة أفضل بعض الشيء من المعاملة التى تلقاها نزلاء معسكر النجمة كما أن الطعام المقدم إليهم كان أحسن ، إلى جانب تلقيهم رعاية صحية أفضل . وأيضاً عينت السلطة النازية بعض اليهود كمشرفين ووسطاء بينهم وبين بقية السجناء اليهود .

وفى أوائل أغسطس ١٩٤٤ أمر هملر بمنح أول مجموعة من الفوج القادم من بودابست تصاريح سفر إلى سويسرا . وفى ٢٠ أغسطس وصل

هذا القطار إلى بلدة برجنز Bregenz حاملاً على متنه ٣١٨ شخصًا ثم استمر في سيره ليصل إلى بلدة سانت جالن St. Gallen فى اليوم التالى . وبعد مفاوضات طويلة سمحت السلطات النازية لبقية الفوج اليهود المجرى البالغ عدده ١٣٦٥ شخصًا بالسفر إلى سويسرا يوم ٦ ديسمبر ١٩٤٤ ، ثم توالت أفواج يهودية أخرى من المجر خلال هذا الشهر . وظل ذلك القطاع الذى يأوى يهود المجر باقياً حتى النهاية .

ومن الخطأ أن نعتقد أن معسكر بلسن اقتصر على اليهود المحظوظين المزمع المقايضة عليهم ، فقد اشتمل على معسكر اعتقال عادى يلجأ إلى تسخير نزلائه فى الأعمال الشاقة . واشتمل هذا المعسكر على فرقة عمل قوامها خمسمائة سجين معظمهم من الروس والبولنديين ، أذاقهم النازيون وزبانيتهم مر العذاب الأمر الذى أفضى إلى ارتفاع نسبة الوفيات بينهم نتيجة الإنهاك والإرهاق . وفى أول شهر فبراير ١٩٤٤ خاطر أربعون سجيناً روسيا بأرواحهم ونجحوا فى الهرب مستخدمين الشوك والأطباق فى حفر نفق تحت الأرض يمتد من القلعة حتى سور المعسكر . وفى ٢٢ فبراير قامت السلطة النازية بحل فرقة العمل هذه ، وتم إرسال السجناء الباقين على قيد الحياة إلى معسكر اعتقال ساشيسنهاوزن Sachsenhausen .

ويرجع السبب فى حل فرقة التشييد والبناء إلى أن الإدارة الاقتصادية بوحدة البوليس الخاصة قررت أن يكون لمعسكر برجن بلسن وضع خاص بين معسكرات الاعتقال ، وهو استقبال السجناء المنهكين والذين جعلهم النصب والإرهاق عديمى الفائدة والقادمين من معسكرات الاعتقال الأخرى .

ومعنى هذا أن معسكر برجن بلسن شاهد عام ١٩٤٤ تحولا من معسكر متميز للمحظوظين إلى معسكر إبادة . وهكذا اكتسب هذا المعسكر وجهًا قميئًا وسمعة بالغة السوء تتناقض مع بداياته المتفائلة والمبشرة بالخير. فبعد أن كان هذا المعسكر فى مراحله الأولى مجرد معسكر احتجاز ليهود تفيض قلوبهم بالأمل فى الهجرة السريعة إلى فلسطين أو إحدى البلاد القريبة نراه يتحول فى مراحله الأخيرة إلى معسكر إبادة عابس الوجه ونذير شؤم وخراب .

وقد بلغت قمة القسوة النازية فى يناير ١٩٤٥ عندما اقترح المستشار الألمانى فى هولندا ارسال عدد أكبر من اليهود إلى برجن بلسن للمقايضة عليهم ، فإذا بوزارة الخارجية الألمانية تبلغه بالآتى : نظراً للتغيرات الهائلة التى تطرأ على معسكر برجن بلسن فإن هذا المعسكر لم يعد فى وضع يسمح له باستقبال اليهود ومواطنى الدول المعادية من هولندا لاستخدامهم فى عمليات التبادل .

وبحلول شهر يناير عام ١٩٤٥ أصبح من الواضح أن تغيراً ماقد طرأ على طبيعة المعسكر . وبطبيعة الحال ساعد على حدوث هذا التغير الهائل أن هملر أسند إدارة هذا المعسكر إلى القسم (د) من الإدارة الاقتصادية بوحدة البوليس الخاصة الذى قرر إدماجه فى بقية معسكرات الاعتقال النازية الأخرى إلى جانب التوقف عن مزيد من البناء والتشييد فيه . وكذلك امتنعت هذه الإدارة عن تحسين ظروف الصرف الصحى السيئة .

وبدا من الواضح أن الإدارة الاقتصادية على استعداد للتخلى عن بلسن كمعسكر لتبادل اليهود . وحيث أن معسكر بلسن كان على مبعدة من

المنشأت الصناعية الكبرى .. فقد إمتنعت الإدارة الاقتصادية عن إرسال السجناء العاملين فى صناعة الذخيرة إليه . ولهذا أصبح هذا المعسكر مشهوراً بالتخصص فى استقبال السجناء المرضى والمنهكين القادمين من المعسكرات الأخرى . وبدلاً من أن يطلق النازيون اسمه الحقيقى وهو معسكر المحتضرين أطلقوا عليه من أجل الخداع والتمويه اسم معسكر النقاهة.

وصل أول فوج من المرضى إلى معسكر بلسن – وهو يتكون من ألف شخص معظمهم مصاب بالسل – فى نهاية شهر مارس ١٩٤٤ قادمين من معسكر دورا Dora الشهير بإنتاج السلاح فى ألمانيا ، وبسبب الإهمال وسوء المعاملة وانعدام الرعاية الصحية لم يبق من الألف معتقل المرحلين من دورا إلى بلسن سوى عدد ضئيل للغاية . ولاغرو فقد وصلوا إلى معسكر بلسن فوجدوه خاوياً وخاليًا من البطانيات والمراتب القش والطعام الساخن ولهذا لم يبق منهم على قيد الحياة سوى ٥٧ شخصاً قدر لهم أن يعيشوا ليروا نهاية الحرب العالمية الثانية .

وتوالى قدوم أفواج اليهود المرضى والعاجزين عن العمل من معسكرات الاعتقال الأخرى فى أوقات مختلفة . وبالنظر إلى تدمير كل الوثائق والمستندات الخاصة بأفواج اليهود المرضى المحتجزين فى برجن بلسن فى أبريل عام ١٩٤٥ فإنه يستحيل على الدارسين إعداد أى قوائم بعددهم أو بالمعسكرات التى جاءوا إلى بلسن منها . ورغم هذا فإنه يمكن إقامة الدليل على صحة البيانات التالية ومن بينها مجئ ١٥٤ مريضًا يهودياً قدموا إلى بلسن من مصنع لإنتاج السلاح يعرف باسم لورا Laura

كما أن حوالى مائتى مريض يهودى معظمهم مصاب بمرض السل وصلوا إلى بلسن من معسكر ساشنهاوزن خلال شهر يوليو ١٩٤٤ . كما جاء إليه يوم ٣ أغسطس ١٩٤٤ مائة يهودى مريض من معسكر نوينجام Neuen-gamme . وأيضًا حضر فى منتصف شهر أغسطس من هذا العام سجناء مرضى من معسكر داكاو .

وأخيراً جاء حوالى أربعمائة يهودى عاجزين عن العمل معظمهم مجريون من معسكر بوخنوالد . كما أنه تم بتاريخ ٢١ يونيه ١٩٤٤ ترحيل طبيبتين سجينتين ومساعد معمل جاءوا إلى بلسن من معسكر داكاو ومعسكرات أخرى مختلفة . وأيضًا بحلول ١ يناير ١٩٤٥ تم ترحيل نحو أربعة آلاف يهودى إلى معسكر برجن بلسن ، غير أن الموت حصد حياة الكثيرين منهم لدرجة أن متوسط عدد سجناء بلسن كان باستمرار يقل عن ألفى سجين .

وحتى ندرك تردى الأحوال فى معسكر برجن بلسن ، نقول إن ما لايقل عن٨٢٠ حالة وفاة من مجموع حالات الوفيات البالغ عددها ٩٢٠ والتى حدثت خلال الفترة من أبريل حتى يولية ١٩٤٤ وقعت فى قطاع السجناء وحده .

وفى صيف ١٩٤٤ تم قتل مائتى سجين عن طريق حقن قلوبهم بمادة الفينول ، وتولى عملية الحقن المميتة سجين يدعى كارل روث Karl Rothe كان رجال وحدة البوليس الخاصة قد عينوه فى وظيفة كابو أى مشرف على السجناء . وقد نفذ هذا الرجل عمليات الحقن القاتل بالفينول بناءً على الأوامر الصادرة إليه من إدارة معسكرات الاعتقال والإدارة السياسية .

ولكن هذا لم يمنعه من قتل بعض السجناء بمبادرة شخصية منه وعلى نحو عشوائى، وانتهز السجناء فرصة غياب قائد المعسكر فى أجازة من عمله فهاجموا هذا الكابو وعقدوا له محكمة حكمت عليه بالإعدام سحلاً.

كانت إدارة معسكرات الاعتقال تتعمد إيذاء المعتقلين والإضرار بصحتهم عن طريق سوء التغذية وضآلة الطعام وتكدس السجناء وتركهم دون أى رعاية صحية تذكر ، وتعمدها اختيار عتاة المجرمين ككابوهات للإشراف عليهم ،علماً بأن هؤلاء المجرمين العتاة جاءوا إلى برجن بلسن أول فوج قادم من معسكر دورا . وفيما ندر كان سجناء بلسن يصادفون مشرفا (كابو) يشفق عليهم مثل والتر هنك Walter hanke الذى يرجع إليه الفضل فى تحسين أحوال السجناء المعيشية . ومن المؤسف أن الطبيب النازى فى وحدة البوليس الخاصة الملازم الدكتور جاجر Jager كان يتلذذ بتعذيب مرضاه ولايكترث بأنينهم ويمتنع عن تقديم الدواء لهم بل يمضى يحطمهم بإرغامهم على أداء تدريبات جسدية شاقة والجرى المنهك لمدة ساعات .

ويمثل تحويل معسكر السجناء إلى معسكر نقاهة فى ربيع ١٩٤٤ أول مرحلة فى طريق تحول بلسن من معسكر احتجاز إلى معسكر اعتقال . أما المرحلة الثانية فى تحوله إلى معسكر اعتقال فقد جاءت فى صيف عام ١٩٤٤ مع إنشاء معسكر خاص بالنساء فيه . ففى يوم ٧ أغسطس عام ١٩٤٤ بدأت فرقة العمل تقيم خياماً كبيرة على قطعة أرض ملاصقة للمعسكر وخلف الثكنات المخصصة لفرق عمل الأحذية . وفى غضون أيام

قلائل أقامت هذه الفرقة نحو عشر خيام أو إثنتى عشر خيمة . وبعد ذلك بأيام قليلة قدم أول فوج للسجينات يوم ١١ أغسطس ثم تلاه بعد وقت قصير وصول أفواج أخرى من السجينات تصل إلى آلاف السجينات .

وفى منتصف شهر أغسطس قدر المسئولون عن معسكر النجمة فى بلسن عدد السجينات القادمات إليه بأربعة آلاف سجينة . وبالنظر إلى اندثار وثائق معسكر برجن بلسن وتدميرها فإن الدارسين لايستطيعون معرفة أعدادهن على وجه اليقين أو أسماء المعسكرات الأصلية التى جئن منها . ولكن القرائن تشير إلى أنهن كن فى الأساس يهوديات من المجر وبولندا، قام رجال الوحدة الخاصة بترحيلهن من الجيتو اليهودى ومن معسكرات العمل الموجودة فى أوروبا نتيجة التقدم السريع الذى أحرزه الجيش الأحمر السوفيتى وتقهقر القوات النازية أمامه .

وبالنظر إلى حرص السلطات النازية فى معسكر بلسن على عزل المعتقلين فى فروعه المختلفة عن بعضهم البعض ، لم يكن فى مقدور سجناء معسكر النجمة فى بلسن الاتصال بالنساء اللاتى خصصت إدارة بلسن قطاعاً خاصاً لهن .

والملاحظ أن تلك النسوة لم يكن يتمتعن بحالة صحية جيدة ، فضلاً عن أنهن كن يلبسن الملابس المدنية ويحملن كثيراً من المتاع كما أن رؤوسهن لم تكن حليقة كما جرت العادة . غير أن معظم تلك النسوة مكثن فى بلسن لفترات قصيرة ثم توجهن فى صيف ١٩٤٤ إلى مواقع عمل ومصانع كبيرة فى مواقع نائية ، وذلك للعمل فى الأقسام الجديدة التى أضيفت إلى معسكر بوخنوالد فى شهرى أغسطس وسبتمبر ١٩٤٤ ولكن

السلطات النازية فى معسكر اعتقال بوخنوالد مالبثت أن أعادت السجينات المريضات والحوامل إلى معسكر برجن بلسن .

ولايزال التاريخ يحتفظ لنا بقوائم تحمل أسماء العديدات من السجينات اللاتى تم ترحيلهن من معسكر برجن بلسن إلى معسكر بوخنوالد. ففى ١٩ أكتوبر ١٩٤٤ أرسل النازيون ٧٥٠ امرأة بولندية من مدينة إلسنج - إلب Elsnig-elbe للعمل فى مصانع واساج wasag كما أن ٣٠٠ سجينة مجرية أرسلت يوم ٢٣ أكتوبر ١٩٤٤ إلى ماركليبرج Markkleeberg بالقرب من ليبزج Leipzig للعمل فى مصانع يونكر .

وفى يوم ٤ نوفمبر ١٩٤٤ تم ترحيل ٧٥٠ مجرية إلى دودرستادت Duderstadt للعمل فى مصانع بولت polte وفى ٢ ديسمبر فى نفس العام رحلت ٣٠٠ امرأة يهودية مجرية وبولندية إلى ماجدبرج Magdeburg للعمل أيضًا فى مصانع بولت . بالإضافة إلى إرسال ٣٠٠ يهودية مجرية فى ماركليبرج للعمل فى مصانع يونكر . إلى جانب إرسال ٦٥ يهودية يوم ٢٢ ديسمبر إلى ليبستادت – وستفاليا Lippstadt westphalia للعمل فى مصانع المعادن .

وكذلك ألحقت السجينات القادمات من برجن بلسن للعمل فى مصانع عديدة مقامة على أطراف معسكرات فلوسنبرج Flossenburg للاعتقال مثل فولكنبرج Wolkenburg ومهليثور Mehltheuer وجراسليتز graslitz . وفى ٥ سبتمبر ١٩٤٤ نودى على سجناء معسكر النجمة فى بلسن للاصطفاف فى الفناء لتمكين فرق العمل من إنزال معداتهم لبناء عدة أكواخ .

ويشهد سجناء معسكر النجمة على أن هذا الفوج غادر كراكو -cra cow بعد أن حفر بعضهم أسماءهم على الجدران باللغة العبرية وأنهم جاءوا أصلاً من بلدة بلاسزوف plaszow بالقرب من كراكو. وقد اضطلع هؤلاء السجناء بأعمال تشييد وبناء بعض الثكنات فى معسكر النجمة لاستقبال أفواج أخرى من السجناء . وبالفعل حضرت أفواج كبيرة جديدة فى أواخر أكتوبر وأوائل نوفمبر ١٩٤٤ إلى برجن بلسن تشمل نحو ثلاثة آلاف امرأة وفتاة قادمات إلى هذا المعسكر من معسكر أوشويتز - بيركينو فى حالة صحية شبه معتلة ، وهو أول فوج يصل من هناك إلى بلسن عقب إجلاء معسكر أوشويتز .

عندما وصلت هذه السجينات العليلات إلى برجن بلسن بعد سفر دام أياماً عديدة فى عربات نقل المواشى ، لم تكن الثكنات الإضافية قد شيدت بعد لاستقبالهم ، الأمر الذى اضطرهم فى جو الخريف الرطب والبارد إلى العيش فى خيام مكتظة بدون إنارة أو دورات مياه والنوم على طبقة رقيقة فى القش . ولكن هذه الخيام المشيدة لإيواء النساء تحطمت يوم ٧ نوفمبر ١٩٤٤ عندما هبت ريح صرصر عاتية فاقتلعتها من جذورها . ووقفت النساء لساعات متتالية تحت البرد والمطر الهاطل . ولم تجد هذه البائسات مفراً من اللجوء إلى المطبخ للاحتماء به من قسوة الطبيعة وغضبها .

وفى صبيحة اليوم التالى وضعتهم إدارة معسكر بلسن فى الحظيرة المخصصة لصنع الأحذية كما أخلت مبنى المستشفى ومساكن العواجيز وثكنتين أخريين لإيوائهن فيها . أما سجناء معسكر النجمة فى بلسن فقد تم إجلاؤهم وإيواؤهم فى المعسكرات التى شيدت مؤخراً فى شهر أكتوبر ١٩٤٤ دون ماء أو كهرباء أو أسرة أو حتى مراحيض لقضاء الحاجة .

وفى خلال بضعة أيام تم إجلاء سجناء معسكر النجمة وإحلال السجينات القادمات من أوشويتز محلهم فضلاً عن الاستغناء عن الخيام . ولم يكن فى مقدور النازيين إلحاق النسوة المهجرات من أوشويتز بيركينو إلى برجن بلسن بسبب اعتلال صحتهن بمعسكرات عمل نائية وتابعة لمعسكرات اعتقال أخرى . ولهذا اضطرت إدارة معسكر بلسن إلى إبقائهن فيه . ومن بين سجناء برجن بلسن البالغ عددهم ١٥٢٥٧ فى ٢ ديسمبر ١٩٤٤ تم حشر نحو ثمانية آلاف امرأة وفتاة فيما يعرف بمعسكر بلسن للنساء .

وقد كانت الفتاة الشابة آن فرانك Anne Frank وصاحبة اليوميات الشهيرة واحدة من تلك السجينات . صارت آن فرانك بعد سنوات من وفاتها فى معسكر برجن بلسن رمزاً للخسف والعذاب الذى كابدته آلاف المعتقلات .

واستطاعت هذه الفتاة أن تخبئ يومياتها فى مخبأ لاذت به عائلتها فى أمستردام - ولكن النازيين تمكنوا من إلقاء القبض على أفراد عائلتها يوم ٤ أغسطس ١٩٤٤ ولايعرف بالذارسون - تاريخ وظروف وفاة آن فرانك لأن النازيين تعمدوا تدمير جميع سجلات معسكر بلسن قبل تسليمه إلى القوات البريطانية . وكل مانعرفه من بعض التقارير أن الحياة فى بلسن لم تمتد بها أكثر من بضعة شهور وأنها توفت بحمى التيفود فى مارس ١٩٤٥ أى أنها ماتت بعد وفاة أختها مارجو (التى تكبرها بثلاثة أعوام) بوقت قصير .

وابتداءً من ربيع عام ١٩٤٤ اتخذت الإدارة الاقتصادية لمعسكرات الاعتقال أولى الإجراءات التى أفضت إلى تحويل بلسن من معسكر احتجاز

إلى معسكر اعتقال . وقد بلغ هذا التحول ذروته يوم ٢ ديسمبر ١٩٤٤ على يد قائد المعسكر الماجور هاس Haas الذى اعتبره زملاؤه المخضرمون دخيلاً على المعسكر وينبغي اقصاؤه . ولهذا السبب فكر بوهل رئيس معسكرات الاعتقال فى استبعاده ، ولكنه آثر التريث حتى يعثر على بديل كفؤ له بعد الانتهاء من إخلاء معسكر أوشويتز بيركينو من نزلائه . وإختار بوهل جوزيف كرامر Josef Kramer قائداً لمعسكر برجن بلسن وهو رجل قاس وعديم الضمير ولكنه يتقن التزلف إلى رؤسائه .

ولد جوزيف كرامر فى مدينة ميونيخ يوم ١٠ نوفمبر ١٩٠٦ وكان عاطلاً عن العمل قبل التحاقه بخدمة وحدة البوليس الخاصة عام ١٩٣٢ . وعندما تقلد النازيون مقاليد الحكم عينوه حارساً فى وحدة البوليس الخاصة بمعسكر داكاو . ومنذ ذلك الوقت لم يترك الخدمة فى معسكرات الاعتقال. ولانبالغ إذا قلنا إنه يكاد يعرفها جميعًا وأنه عمل فيها بشكل أو آخر . وفى عام ١٩٤٠ اشتغل لبضعة شهور مساعداً لهوب Hob قائد معسكر أوشويتز، ثم رقى إلى وظيفة قائد لمعسكر اعتقال ناتزويلر . وفى شهر مايو ١٩٤٤ تم تعيينه قائداً لمعسكر أوشويتز بيركينو حيث أشرف بنفسه على إبادة عشرات الآلاف فى السجناء .

وبعد إخلاء معسكر النساء فى بيركينو فى نوفمبر ١٩٤٤ تقلد كرامر وظيفة قائد لمعسكر برجن بلسن حيث انتقل لمباشرة عمله الجديد يصاحبه عدد من قدامى العاملين معه فى معسكر أوشويتز . وفى ٢ ديسمبر ١٩٤٤ كان عدد السجناء فى معسكر برجن بلسن نحو ١٥٢٥٧ سجيناً . وإتخذ كرامر الإجراءات الكفيلة بتحويل معسكر بلسن إلى معسكر إبادة .

ورأى كرامر إنه لم يعد هناك أى معنى للاحتفاظ ببلسن كمعسكر تبادل ومقايضة . ومن ثم ألغى كافة الامتيازات التى تمتع بها النزلاء اليهود فى هذا المعتقل . ومنذ أواخر عام ١٩٤٤ قام كثير من معسكرات الاعتقال النازية باتباع سياسة الترحيل والإخلاء ، كما سبق أن أشرنا إلى ترحيل سجينات أوشويتز إلى بلسن . ومع بداية إندحار القوات النازية قامت السلطات النازية بترحيل عشرات آلاف المساجين من معسكرات الاعتقال النائية والواقعة على الأطراف إلى داخل الرايخ نفسه. وهكذا أصبح معسكر برجن بلسن جحيماً لايطاق ومركزاً هاماً لاستقبال أفواج السجناء المرحلين من مختلف معسكرات الاعتقال .

لم ينته عذاب اليهود حتى بعد أن توقفت إبادتهم فى معسكر أوشويتز بالغاز والمحارق فقد توفى عشرات الآلاف منهم فى الشهور الأخيرة من الحرب العالمية الثانية وذلك بسبب اتباع النظام النازى سياسة التهجير الجماعى ونتيجة الإنهاك والجوع والمرض وضربهم بالرصاص وإرغامهم على السير فى طوابير طويلة لمدة أيام متصلة فى الصقيع وزمهرير الشتاء وهم يلبسون يونيفورم السجن الخفيف العاجز عن حماية أبدانهم . فضلاً عن أن كثيراً من السجناء المرحلين من معسكرات الاعتقال إلى معسكرات أخرى – ومن بينها برجن بلسن – سقطوا صرعى الأوبئة والأمراض الفتاكة ومن ظروف معيشية غير صحية وغاية فى السوء .

ويمكن القول بأن الحياة فى معسكر برجن بلسن تدهورت بشكل واضح فى صيف عام ١٩٤٤ كما أنها تفاقمت بسرعة . وبحلول يناير ١٩٤٥ أصبحت حالة السجناء مدعاة إلى القتامة واليأس . فلاغرو إذا

شاهدنا عدداً كبيراً من حشود السجناء النازحين يلفظون أنفاسهم الأخيرة على أرض معسكر بلسن ففى شهر مارس وحده من عام ١٩٤٥ توفى فى معسكر بلسن قرابة ١٨١٦٨ نازحاً ، فضلاً عن موت الكثيرين منهم أثناء عمليات الترحيل .

وفى الفترة من أوائل يناير إلى منتصف أبريل ١٩٤٥ وافت المنية فى بلسن مايقرب من ٣٥ ألف سجين . وظل الموت يحصد أرواح الكثيرين من سجناء بلسن حتى بعد أن تم تحريره على أيدى القوات البريطانية يوم ١٥ أبريل ١٩٤٥ . ولم تنخفض معدلات الوفيات فى هذا المعسكر إلا فى منتصف شهر مايو من العام المذكور . وفى الفترة من ١٥ أبريل حتى ٢٠ يونية ١٩٤٥ مات فى بلسن نحو ١٤ ألف سجين ، وبذلك يصل عدد ضحايا هذا المعسكر إلى خمسين ألف ضحية .

ومع وصول المزيد من أفواج السجناء المرحلين منذ نهاية عام ١٩٤٤ فصاعداً ارتفعت وتضاعفت أعداد نزلاء معسكر برجن بلسن بمرور كل يوم ، الأمر الذى اضطر المسئولين فى بلسن إلى إلغاء نصف معسكر قديم كان مخصصاً لسجناء الحرب . ويستخدم كمستشفى فى السابق ودمجه فى المعسكر . وأدخل النازيون توسعات فى معسكر بلسن لإيواء النساء فى نحو ٣٦ ثكنة تم إنشاؤها مؤخراً . غير أن هذه التوسعات لم تكن كافية لسد النقص بسبب تكدس السجناء واكتظاظهم .

وعندما أصبح كرامر قائداً لمعسكر برجن بلسن فى ٢ ديسمبر ١٩٤٤ وصل عدد السجناء هناك إلى ١٥٢٥٧ . وفى ١ يناير ١٩٤٥ ارتفع عددهم إلى ١٨٤٦٥ (٩٧٣٥ من الرجال و٨٧٣٠ من النساء) وفى ١٥ يناير ١٩٤٥

ارتفع عددهم أكثر وأكثر ليصل إلى ٢٢٢٨٦ (٥٨١١ من الرجال و١٦٤٧٥ من النساء) . وفى أول مارس ١٩٤٥ وصل عدد سجناء بلسن إلى ٤١٥٢٠ (١٤٧٩٧ من الرجال و٢٦٧٢٣ من النساء) . غير أن نسبة الوفيات فى هذا الشهر (مارس ١٩٤٥) كانت مرتفعة للغاية فقد توفى فى هذا الشهر وحده ١٨١٦٨ سجيناً . ورغم الزيادة الكبيرة فى أفواج السجناء المرحلين إلى برجن بلسن فإن أعداد الأحياء منهم لم تزد كثيراً بسبب كثرة الوفيات بينهم. ففى ١٥ مارس (١٩٤٥) بلغ تعداد السجناء ٤٥١١٧ (١٤٧٣٠ من الرجال و٣٠٣٨٧ من النساء) . وفى ٦ أبريل تراجع عدد السجناء إلى ٣٩٧٨٩ سجيناً ثم انخفض عددهم أكثر فأكثر بعد إجلاء نزلاء معسكر النجمة والمجرمين والمحايدين ونزلاء المعسكرات الخاصة . وفى ٤ مارس غادر معسكر المحايدين مائة وخمسة مواطن تركى سافروا إلى السويد . وفى الفترة من ٦ أبريل حتى ٢١ أبريل أقلت ثلاثة قطارات سجناء معسكر النجمة ومعسكر المجريين والمعسكر الخاص وبقايا السجناء فى معسكر المحايدين البالغ عددهم سبعة آلاف نزيلاً وغادرت محطة سكة حديد برجن بلسن . ووصل أحد هذه القطارات حاملاً ١٧١٢ سجيناً إلى معسكر اعتقال ثيرسنيستدات Thereresienstadt يوم ٢١ أبريل ١٩٤٥ . غير أن القطارين الآخرين واصلا السير لعدة أيام واجتازا شمال ألمانيا وتعرضا للقصف الجوى المتكرر من قبل الحلفاء ، ثم توقفا أخيراً على القضبان المكشوفة .

وفى يوم ١٤ أبريل (١٩٤٥) توقف قطار منهما بالقرب من ماجديرج كما توقف القطار الآخر يوم ٢٣ أبريل بالقرب من قرية ترويبتز Trobitz فى منطقة نيدر لوسيتز Nieder lousitz ولاذ الحراس

النازيون بالفرار فتولى الجنود الروس المرابطون بالقرب من ترويبيتز والجنود الأمريكان المرابطون قرب ماجدبرج أمر السجناء وأطلقوا سراحهم.

وأيضًا وصل إلى برجن بلسن فوج جديد من السجناء فى الأسبوع الثانى من شهر أبريل يتكون من آلاف السجناء الذين ألحقوا بأعمال السخرة فى أطراف معسكر اعتقال نوينجام Neuengamme فى منطقة ساكسونيا السفلى وبخاصة فى هانوفر وضواحيها . وتم ترحيلهم سيراً على الأقدام لينضموا إلى طوابير الموت التى وصلت إلى برجن بلسن يوم ٨ أبريل ومابعده . وفى نفس الوقت وصلت إلى أرض بلسن أفواج ضخمة من سجناء معسكر دورا . وتم إجلاء معسكر دورا وفروعه عندما اقتربت القوات الأمريكية منه .

ويقدر عدد السجناء النازحين من معسكر دورا إلى معسكر بلسن بنحو ٢٥ ألف إلى ٣٠ ألف سجين ، حملتهم عشرة قطارات بضائع ، بعد رحلة استغرقت عدة أيام تخللتها غارات الحلفاء وذلك بعد أن غيرت هذه القطارات مسارها أكثر من مرة . ولكن هذه الأفواج القادمة من دورا لم تجد لها مكاناً فى ثكنات بلسن الأمر الذى اضطرها إلى الهبوط فى فناء مدرسة باتتر التدريب العسكرى المجاور لها . وفى يوم تحرير معسكر برجن بلسن الموافق ١٥ أبريل ١٩٤٥ كان تعداد سجنائه يزيد عن الستين ألفا .

ولاتوجد أية بيانات دقيقة عن أعداد أفواج السجناء والأماكن التى أتوا منها ولكن يوجد بعض الوثائق الخاصة بالأفواج القادمة إلى برجن بلسن بعد أواخر عام ١٩٤٤ . وتدل هذه الوثائق أن مابين عشرين ألفا وخمسة وعشرين ألف امرأة جاءت من معسكر أوشوتيز وفروعه الكثيرة إلى

معسكر بلسن فى الفترة الواقعة بين ١ ديسمبر ١٩٤٤ حتى منتصف مارس ١٩٤٥ وكانت بعض هذه الأفواج تجيء مباشرة من أوشويتز فى حين توقف بعضها الآخر فى معسكرات اعتقال أخرى مثل جروس روزن.

وفى فبراير ومارس ١٩٤٥ جاءت إلى برجن بلسن أفواج من نزيلات عدد من المعسكرات المختلفة الواقعة فى أطراف معسكر بوخنوالد الشهير مثل معسكر أليندورف ماربورج Allendrof / Marburg ودورتموند Dortmund وإسن Essen ومولهاوزن / تيرنجيا Muhlhausen / Thwringin وليبزج Leipzig التى اضطرت جميعاً إلى إجلاء سجنائها بسبب زحف قوات الحلفاء باتجاهها .

وقد وصلت أفواج الرجال إلى برجن بلسن فى الفترة فى ديسمبر ١٩٤٤ حتى يناير عام ١٩٤٥ وهم فى حالة من المرض والإعياء الشديد . ولهذا السبب ارتفعت نسبة الوفيات فى سجن الرجال كما مات الكثيرون منهم أثناء عمليات الإجلاء والترحيل .

وبعد نهاية يناير ١٩٤٥ وصلت أفواج المرحلين الأكثر عدداً قادمين من معسكرى ساشنسهاوزن وبوخنوالد بمعسكراته الفرعية . وبلغ إجمالى الذين جاءوا من بوخنوالد وفرعه السئ السمعة المعروف اختصاراً بـ «س٣» والواقع بالقرب من أوهردروف Ohrdruf قرابة الخمسة آلاف أو الستة آلاف سجيناً . كما وصل من معسكر ساشسنهاوزن قرابة الستة آلاف أو السبعة آلاف سجيناً .

والجدير بالذكر أن الأفواج الجديدة التى وصلت إلى بلسن خلال النصف الأول من شهر فبراير كانت تضم عدداً كبيراً من السجناء المهمين

مثل فيرشور Verschuur وزير الاقتصاد الهولندى السابق وفاندربورتن Vanderpoorten وزير الداخلية البلجيكية السابق وجاسبر Jasper رئيس وزراء برونزويك Brunswick السابق إلى جانب بعض أعضاء البرلمان الألمانى السابقين . وقد ماتوا جميعًا بعد دخولهم معسكر برجن بلسن بأسابيع معدودة .

وفى مارس ١٩٤٥ وصلت أيضًا إلى معسكر بلسن أفواج من السجناء المرضى والمعتلين من معسكر ليونبرج Leonberg للعمل التابع لمعسكر ناتزويلر بالإضافة إلى ١١٥٧ سجيناً من معسكر فلوسنبرج يوم ٨ مارس و٨٧٠ آخرين يوم ١٧ مارس و ٥٠٠ سجينًا يوم ٧ مارس قادمين من محيط معسكر فلوسنبرج المعروف باسم امتداد ليتميرتيز Leitmeritz إلى جانب الفوج القادم من معسكر دورا يوم ٨ مارس وقوامه ٢٢٥٢ سجيناً .

وقد سبق لنا أن ذكرنا الأفواج التى وصلت إلى بلسن من دورا فى النصف الثانى من شهر أبريل والتى تم إنزالها على أرض بورشة بانزر للتدريب العسكرى التابعة للجيش النازى حيث لم يكن هناك أى مكان لإيوائها فى معسكر بلسن نفسه .

ويلاحظ المراقبون أن نسبة ضئيلة من سجناء معسكر برجن بلسن ابتداءً من يناير ١٩٤٥ فصاعداً ماتت بسبب إطلاق الحراس النازيين النار عليها حيث إن سوء معاملة رجال الوحدة الخاصة والكابوهات (أو المشرفين) للسجناء والإنهاك الشديد والأمراض والأوبئة والجوع حصد أرواح عشرات الآلاف منهم .

وفى ربيع عام ١٩٤٥ تدهورت أحوال معسكر بلسن الصحية إلى حد فاق سائر المعسكرات لدرجة أن زواره وصفوه بأنه أقذر معسكر اعتقال فى ألمانيا النازية . ويرجع هذا التدهور المروع فى معسكر بلسن إلى الإهمال المتراكم الذى ارتكبته إدارة المعسكر على مدار الأيام . وحتى تدرك مقدار هذا الإهمال نقول إن سجناء بلسن البالغ عددهم مابين ٢٠ ألف و ٢٥ ألف سجين كانوا يستخدمون عدد المراحيض وغرف الاستحمام نفسها التى استخدمها السجناء فى العام السابق عندما كان عددهم لايزيدون عن ألفى سجين كما أن إدارة بلسن امتنعت عن إصلاح الحنفيات وتركيبات الصرف الأخرى التى لم تعد صالحة للعمل .

وكذلك ساءت أحوال معسكر بلسن رقم ٢ أكثر من غيره من قطاعات المعسكر الأخرى لدرجة أن السجناء الذين يتراوح عددهم من ثمانية آلاف إلى عشرة الاف لم يكن لديهم مرحاض واحد أو حنفية واحدة يمكنهم استعمالها . ولم تعد معظم المراحيض القليلة صالحة للاستعمال لأنها كانت عبارة عن حفرات فى الأرض تمتلأ بسرعة وتسد بعد فترة قصيرة . وكان السجناء المصابون بالإسهال لايستطيعون الانتظار لحين وصولهم إلى المراحيض البعيدة عن الثكنات ، الأمر الذى جعلهم يوسخون أنفسهم وأسمالهم البالية . وقد وصف الدكتور ليو Leo معسكر بلسن وصفاً بشعاً حين قال : «سرعان ماتحول المعسكر كله إلى مايشبه المرحاض» .

وفى الأيام الأخيرة السابقة على تسليم معسكر برجن بلسن إلى القوات البريطانية انقطعت المياه عن المعسكر تمامًا لأن طائرات الحلفاء ألقت قنبلة أصابت محطة ضخ المياه . واستأثر الجنود بكميات الماء التى

أمكن جمعها . ناهيك عن أن الجوع والعطش فتكا بهؤلاء السجناء . والغريب أن تزويد المعسكر بالماء لم يكن مستعصياً نظراً لوجود جدول ماء بالقرب منه كان يمكن استغلاله كمصدر للمياه . ولكن كرامر رفض ذلك ، على عكس مافعله البريطانيون عندما تسلموا المعسكر من الألمان المهزومين .

وزاد من تدهور الأحوال الصحية في معسكر بلسن طريقة إيواء السجناء وحشرهم فى أضيق حيز ممكن . فعندما وصلت إلى برجن بلسن أفواج السجناء المرضى القادمين من معسكر ساشسنهاوزن فى أوائل فبراير ١٩٤٥ حشرهم النازيون فى معسكرات خالية من الأسرة والكراسى والكهرباء . وكانوا ينامون فى زمهرير الشتاء على الأرض محشورين بطريقة غير آدمية .

وظلوا على هذه الحالة لمدة لاتقل عن أسبوعين كاملين . وحتى عندما تحسنت أحوالهم المعيشية بعض الشيء وسمح لهم بالنوم على أسرة كانت هذه الأسرة بدون مراتب أو أغطية وناموا محشورين على ملل السرائر ، كل خمسة سجناء يشتركون فى سرير واحد فلا غرو إذا نشبت معارك ضارية بين السجناء للتطاحن على مكان على الأرض يمكنهم النوم فيه . وكانوا يستيقظون فى الظلام للانتظام فى طابور الصباح ويقفون فى الثلوج والأمطار نحو خمس ساعات . ثم ينتظمون فى طابور العصر يقفون فيه بين ساعة وساعتين . وأمر كرامر كل سجين لايحمل شهادة طبية تدل على عجزه عن الوقوف فى الطابور بإستخراج شهادة بذلك من الطبيب . ومن فرط الإجهاد والتعب كان بعض هؤلاء السجناء يتركون الطابور ويفترشون الأرض ويرقدون عليها الرقدة الأخيرة .

وحتى نؤكد مدى سوء الرعاية الصحية فى معسكر برجن بلسن نقول إن إدارة (٣٠٠) المسئولة عن هذه الرعاية المزعومة خصصت طبيباً واحداً لعلاج آلاف السجناء . وبعد وصول أفواج السجناء من معسكر ساشنسهاوزن إلى معسكر بلسن مضى أسبوع بأكمله قبل تخصيص أطباء من بقية السجناء لرعاية زملائهم المرضى الموجودين فى ثلاث تكنات متهدمة تنشع سقوفها بالماء وتتراكم القمامة فيها حتى وصلت إلى ارتفاع متر . وأشفق بعض هؤلاء الأطباء السجناء على زملائهم فبذلوا قصارى جهدهم لتحسين ظروفهم الصحية والمعيشية وحصلوا بعد انقضاء أسبوعين على مستلزمات مرضاهم من الدواء والضمادات . وكان الأطباء يجرون العمليات على كنبة خشبية فى غياب الأجهزة اللازمة .

ولم تكن الأوضاع فى سجن النساء أفضل مما كانت فى معسكر الرجال فثكنات السجينات المريضات التى لاتتسع لأكثر من ٢٢٠٠ مريضة استقبلت نحو خمسة عشر ألف سجينة مريضة . وقبيل وصول القوات البريطانية بأيام قلائل إلى معسكر بلسن خصصت إدارته غرفتين كصيدلية مليئة بالأدوية والأجهزة التى بخلت بها الإدارة النازية على سجنائها .

وفى أوائل صيف عام ١٩٤٤ انتشر وباء التيفود فى معسكر السجن فى بلسن ثم عاد فى شتاء ١٩٤٤–١٩٤٥ لينتشر فى جميع أرجاء المعسكر . وساعد على سرعة انتشاره فى المعسكر انهيار المجارى وشبكة الصرف الصحى . فضلاً عن معاناة آلاف السجناء من الدوزنتاريا والأمراض الباطنية . وأيضاً شاع مرض السل فيهم . ولم يكن بالمعسكر دواء أو حتى مطهرات ناهيك عن عدم وجود مياه للتنظيف والاستحمام ، مما أدى إلى تفشى الأوبئة فى جميع أرجاء معسكر بلسن .

وطبقًا لتقديرات ليو الطبيب السجين ، أدى التيفود إلى وفاة عُشر سجناء بلسن فى حين أن تسعة أعشار الوفيات نجمت من الأمراض الباطنية والإسهال والجوع . وظلت جراية السجناء اليومية من الطعام حتى فبراير ١٩٤٥ تتكون من شريحتين من الخبز ونصف ليتر من الشورية الخالية من أية لحوم أو دسم والمحتوية على بعض قطع اللفت أو البطاطس. وكانت إدارة برجن بلسن تصرف للسجناء مرتين كل أسبوع ملعقة صغيرة من الزبد وقطعة من السجق أو الجبن ومشروباً غير واضح المعالم يسمونه «قهوة» .

وفى مارس ١٩٤٥ تناقصت كمية الجراية . وفى منتصف هذا الشهر ساءت أحوال السجناء الغذائية أكثر فأكثر فظلوا لعدة أيام محرومين من الخبز . وانقطعت جراية الخبز عنهم فى أيام المعسكر الأخيرة قبل سقوطه فى يد القوات البريطانية . وبسبب اشتداد الجوع عليهم لجأوا إلى أكل لحوم بعضهم البعض ، ويشهد الدكتور ليو بأنه رأى بعينيه مابين ٢٠٠ إلى ٣٠٠ حالة أكل لحوم البشر . وإذا كان بعض السجناء قد بقوا على قيد الحياة بهذه الطريقة الوحشية لفترات قصيرة فإن الآلاف استسلموا للموت . وجاءت اللوريات كل يوم لنقل جثثهم العارية إلى المحرقة .

ومنذ منتصف فبراير (١٩٤٥) أصبح نقل هذه الجثث يشكل مشكلة تقنية لإدارة السجن ؛ حيث أن المحرقة كانت ضيقة ولاتستطيع حرق أكثر من ثلاث جثث فى نفس الوقت .

وفى مارس (١٩٤٥) أخذت الجثث تتراكم فى كومات ضخمة وتوضع ألواح خشب بين هذه الجثث المتلاصقة ثم يصب عليها زيت

الديزل لإضرام النار فيها . ولكن فى نهاية شهر مارس إضطرت إدارة معسكر بلسن إلى التخلى عن هذه الطريقة لأن مصلحة الغابات حظرت استخدام أخشاب الشجر لهذا الغرض . فضلاً عن أن ضباط الجيش النازى الذين يستخدمون أرض التدريب العسكرى ضاقوا ذرعًا بالروائح النتنة المنبعثة من الجثث المحترقة رغم بعدها بأميال . ولهذا فضلت إدارة بلسن ترك السجناء الموتى فى مكانهم أو تكديس جثثهم فى بعض الثكنات .

ومع بداية شهر أبريل – وهو شهر تحرير بلسن – تناثرت الجثث على أرض هذا المعسكر منتفخة بفعل حرارة شمس الربيع وفى حالة تحلل تكسوها الخضرة . منظر يشيب له الولدان . وعندما أصبح من الواضح أن معسكر برجن بلسن سوف يسلم إلى القوات البريطانية ، بذلت قيادته محاولة أخيرة مستميتة لنقل آلاف الجثث .

وفى الفترة من ١١ إلى ١٤ أبريل (١٩٤٥) كلفت إدارة بلسن سجناءها – حتى ولو كانوا مجرد هياكل عظمية – بحمل الجثث لدفنها فى مقابر جماعية هائلة بعيدة عن أرض المعسكر . وبلغ عدد السجناء المتهالكين المكلفين بهذه المهمة ألفى سجين يعملون من السادسة صباحًا حتى هبوط ظلام الليل . وتسلم هؤلاء البؤساء نظير عملهم المفزع نصف لتر من الشوربة دون خبز أو شراب . كما كانوا بشق الأنفس يحصلون على شريحة من اللفت . واستمر عملهم البشع هذا لمدة أربعة أيام . وكان رجال الوحدة الخاصة يشرفون عليهم أثناء نقل الجثث ، كما كان الكابوهات يكيلون لهم الضربات فضلاً عن أن كرامر أمر فرقتين موسيقيتين مكونتين من السجناء بعزف الموسيقى الراقصة لتخفيف معاناة العمل عنهم .

الفصل الثانى

وثـائـق ومسـتندات

سبق أن ذكرنا أن قـائد وحدة البوليس الخـاصة فى مـعسكر برجن بلسن أمـر بتدمير كـافة الوثائق الخـاصـة بهذا المعسكر مما جعل مـعرفتنا بأحواله شديدة القصور . ولكن من حسن الحظ أن بعض السجلات والوثائق الرسمـيـة النازيـة لهـذا المعـسكر نجت من الانـدثار . وخـلافًـا لما جـرى فى المعـسكرات الأخـرى من منـع السـجناء من تدوين يومـيـاتهم نرى إدارة مـعسكر بلسن تسمح لسـجنائها - وبوجـه خـاص سجناء «معسكر النجمة» بتدوين مذكراتهم .

ومن بين هؤلاء السجناء من استمر فى تدوين يومياته لشهور طويلة، الأمر الذى وفر للدارسين ذخيرة وثائقية كبيرة عن حياة السجناء اليومية فى هذا المعسكر . أضف إلى ذلك عثور الباحثين على تقرير بالغ الأهمية عن تبادل اليهود وترحيلهم إلى فلسطين ، وهو تقرير رأى طريقه إلى النشر عـام ١٩٤٤ . فضـلاً عن العثـور على مـذكرة تصف أحـوال سـجناء بلسن البائسة فى الأسابيع الأخيرة السابقة على تحريره والتى دونها أصحابها بعد تحرير المعسكر بوقت قصير . أضف إلى ذلك أن الجيش البريطانى عقب تحرير المعسكر التقط صوراً فوتوغرافية تصور بؤسهم وتعاستهم فى الفترة بين ١٦ و٢٦ أبريل ١٩٤٥ .

(١) تقرير سيمون هنريش هيرمان عن تبادل اليهود بهدف ترحيلهم إلي فلسطين (١٩٤٤) :

Simon Heinrich Hermann

قبل أن نورد فحوى هذا التقرير نذكر أن واضعه سيمون هنريش هيرمان تم ترحيله إلى فلسطين فى أوائل يوليه ١٩٤٤ بمقتضى مشروع تبادل اليهود فى معسكر برجن بلسن . وقام هذا الرجل فى نفس العام الذى وصل فيه إلى أرض المهجر على نشر تقرير فى تل أبيب يدور حول اضطهاد اليهود فى هولندا والظروف المعيشية فى المعسكر الهولندى المؤقت المعروف باسم وستربورك كما تناول التقرير فترة حبسه فى معسكر برجن بلسن .

يقول هيرمان فى تقريره المؤرخ يوم الأربعاء الموافق ٢٦ أبريل (١٩٤٤) إن فرق العمل الحاشدة اصطفت فى فناء الطوابير استعداداً للسير فى صمت . وفجأة اخترق هذا الصمت صوت أحد النازيين قائلاً : «على جميع حملة الأوراق الفلسطينية الخروج من الطابور» . ووقع هذا البلاغ كالصاعقة على السجناء الذين أمرتهم السلطة النازية بالاصطفاف فى الطابور مرة أخرى بصحبة عائلاتهم . ثم حضر القومندان برفقة موظف فى ملابس مدنية ممثلاً عن وزارة الخارجية الألمانية فى برلين .

وبدأ النداء على أسماء المزمع ترحيلهم إلى فلسطين من واقع قائمة معدة . وتلقى هؤلاء السجناء النبأ بريبة عظيمة . ونودى على ٢٧٢ سجيناً كان ٢٢ منهم غائبين فى المستشفى من مجموع حاملى الوثائق الفلسطينية البالغ عددهم نحو ١٣٠٠ شخصًا . واجتمع فى الفناء ٢٥٠ يهودياً تم

صرفهم على أن يعودوا حاملين متاعهم فى خلال ساعة مما زاد من خوفهم وارتباكهم وتوجسهم شراً وشكاً فى نوايا النازيين نحوهم .

وبسرعة خاطفة وضع المنادى عليهم مخاوفهم جانباً وسارعوا بحزم متاعهم ثم قاموا بتوديع أصدقائهم القلائل الموجودين فى المعسكر آنذاك . ثم رجعوا إلى الفناء الذى يجتمعون فيه . ومنذ ذلك الحين جرى عزلهم تماماً عن بقية زملائهم . وبعدئذ توجه الطابور الذى يضمهم إلى ثكنات الحجر الصحى .

وظهر تحسن واضح فى معاملة اليهود المتاهبين للهجرة إلى فلسطين . فقد تمتعوا لأول مرة براحة ممتدة . حتى النازيين أخذوا يلطفون من قسوتهم ، ويخاطبونهم بلهجة طبيعية تختلف عن اللهجة الغليظة التى دأبوا على إستعمالها معهم . ولم يعد الحراس يعاقبونهم على الأخطاء التافهة التى يرتكبونها كما أصبحت فترة الاصطفاف فى الطابور قصيرة . وشعر هؤلاء السجناء حينئذ بالجوع أكثر مما كانوا يشعرون به وقت المذلة والمهانة حيث إن الوقت توفر لهم للتفكير فيه . وغمرتهم نشوة الأمل فى الخلاص من المعسكر فأصبحوا يتضاحكون ويتراقصون تحت سمع ونظر حراسهم .

وبعودة الأمل فى الحرية إليهم استيقظ اهتمامهم شيبة وشباباً بقراءة الكتب والرغبة فى المعرفة . وتركزت قراءاتهم بطبيعة الحال على أرض المهجر فى فلسطين والمشكلات المتعلقة بها . كما بدأوا ينكبون على دراسة اللغة العبرية . وكان من بينهم من يعرف فلسطين وجرب العيش فيها ، فحكوا لزملائهم مايعرفونه عن المدن الفلسطينية والحياة فى الكيبوتزات أو المستعمرات اليهودية والطعام الطيب الوفير الذى ينتظرهم فى الأراضى

المقدسة مما جعلهم يتوقون إلى الحصول على حريتهم والاستقرار فى وطن قومى جديد .

ويمضى سيمون هيرمان فى تقريره قائلاً إنه وزملاؤه سمعوا انطلاق صفارات الإنذار بالغارات الجوية التى شنها الحلفاء ؛ مما اضطرهم إلى الاختباء فى الكوخ . ولم تمض دقائق قلائل عقب صفارات الإنذار حتى صدر لهم الأمر بالتجمع خارج المخبأ والاصطفاف فى طابور . وبعد انتهاء النداء على الأسماء اكتشف المصطفون لشدة دهشتهم أن الكشف الجديد الذى يقرأ منه الحارس أسقط خمسين اسماً ممن سبق النداء عليهم . وزادت من دهشة هيرمان أن قائد معسكر بلسن أعلن أن التبادل سوى يتم فى غضون الأيام القليلة المقبلة وأن الأشخاص الذين سقطت أسماؤهم من الكشف لن يسافروا إلى فلسطين . وسأل اليهود الواقفون فى الطابور قومندان المعسكر عن سبب صرف النظر عن تهجير زملائهم فلم يحر القومندان جواباً وقال إنه ينفذ الأوامر الصادرة إليه من برلين وأنه ليس فى مقدوره أن يفعل شيئًا . وقد ضم فوج اليهود المتجه إلى فلسطين هولنديين وألماناً وواحدا من زعماء الحركة الصهيونية البارزين .

وقبيل استعداد السجناء للرحيل أبلغتهم قيادة معسكر بلسن بشروط السفر وهى شروط نصت عليها اتفاقية التبادل المبرمة بين الحكومتين البريطانية والألمانية . وفى يوم الأربعاء الموافق ٣١ مايو (١٩٤٤) حددت إدارة المعسكر موعد الرحيل فى اليوم التالى . وفى السابعة صبيحة اليوم التالى وقف جميع أفراد الفوج على أهبة الرحيل . ونودى أول مانودى على الأسماء التى تبدأ بحرف A حتى حرف y لوضع متاعهم قرب بوابة الخروج .

يقول سيمون هيرمان فى مذكراته إنه وزملاءه أصيبوا بالدهشة عندما سمعوا أن النازيين فى سبيلهم إلى إعادة المتاع إلى الكوخ وإنه سوف يتعين على المسافرين الرحيل دون اصطحاب متاعهم . وأسقط فى يد الجماعة اليهودية المتأهبة للرحيل . فلم تعرف ماعساها أن تفعل وطال انتظارها لحين صدور الأمر بالرحيل دون جدوى . وسادها الشعور بخيبة الأمل فى ٥ يونية عندما صدر إليها الأمر بمغادرة الكوخ والعودة إلى المعسكر العمومى . وهكذا عاد اليهود السجناء إلى سابق سجنهم يركبهم الغم والهم رغم تبليغ المسئولين الألمان بأنه يمكنهم الاستمرار فى العيش كجماعة مستقلة عن الأخرى ، تضم الذين وقع عليهم الاختيار للرحيل إلى فلسطين كما يمكنهم الاحتفاظ بحقائبهم ومتاعهم فضلاً عن إعفائهم عن العمل .

وعندما عاد اليهود المزمع تهجيرهم إلى فلسطين إلى المعسكر العام عبر زملاؤهم عن العطف عليهم والرثاء لحالهم . واستبشر اليهود فى معسكر بلسن خيراً عندما نما إلى مسامعهم أن الحلفاء نجحوا فى إبرار قواتهم على الشمال الفرنسى . ولكنهم كانوا يائسين من تنفيذ السلطات النازية لبنود اتفاقية التبادل .

وعلى الرغم من أن السلطات النازية خصصت لإقامة الفرقة اليهودية المتجهة إلى فلسطين ثكنة بأكملها فى المعسكر العمومى إلا أنهم وجدوا زملاءهم من السجناء الآخرين لايزالون يشغلونها الأمر الذى زاد من الفوضى والارتباك الضاربين أطنابهما فى المعسكر . وفى وسط هذه الفوضى فقدت الجماعة المزمع تهجيرها إلى فلسطين ماكانت تتمتع به من

امتيازات كما صدر أمر إلى الأصحاء منهم بالذهاب إلى أعمالهم ؛ الأمر الذى بدد حلمهم فى الهجرة إلى فلسطين . ولشدَّ ماكان شعورهم بالمرارة والإحباط . فمنذ أسبوعين فقط كانت قلوبهم مفعمة بالأمل فى استنشاق نسيم الحرية . وهاهم الآن قد عادوا إلى سابق عبوديتهم فى معسكر برجن بلسن . ولكن هذا لم يمنع قلة منهم بالتمسك بخيوط الأمل .

ومضت أسابيع بأكملها على عودة الفريق المزمع تهجيره إلى حياة السجن الطاحنة مرة أخرى .

وفجأة جاء أحد النازيين صباح يوم الخميس الموافق ٢٩ يونية ١٩٤٤ ليخبرهم زاعقًا بالتوقف عن العمل . ولم يصدق الجميع هذا الخبر ونزل عليهم نزول الصاعقة فلم يصدقوا أنهم فى سبيلهم إلى أن يصبحوا أحراراً .

وضرب الحراس حولهم كوردونا لعزلهم عن بقية زملائهم من السجناء وأعد المغادرون أمتعتهم للتفتيش وجاء القومندان لعمل الترتيبات الأخيرة للرحيل . وكان واحد من المزمع تهجيرهم يعانى من مرض عضال حال دون رحيله ففضلت زوجته البقاء معه فى معسكر بلسن . واختيرت للرحيل بدلاً منها عائلة يهودية أخرى لم تكن من بين الخمسين المستبعدين السابق ذكرهم .

وانصرف رجال الوحدة الخاصة إلى تفتيش أمتعة المهاجرين تفتيشاً دقيقاً للغاية . وتمت مصادرة جميع الأدوية وتدمير المراسلات الموجودة فى حوزتهم . ولم يسمح لهم بالاحتفاظ بأية أوراق غير الوثائق الرسمية ، وقام النازيون بوزن العفش ومصادرة الوزن الزائد . واستمرت إجراءات التفتيش على قدم وساق حتى المساء . ولكن الفرصة سنحت للمهاجرين لتوديع

زملائهم الذين شاء حظهم العاثر أن تتجاوزهم السلطة النازية . وبعد تفتيش العفش تم تفتيش الأشخاص المهاجرين وتفريغ كل ماتحتويه جيوبهم من أشياء وسط شتائم الألمان القاذعة . ووزع المسئولون عليهم حصتهم التموينية الخاصة بأول مرحلة من مراحل الترحيل ، فكانت أوفر من الحصص المعتادة . ومع مغادرة السجناء لأرض معسكر بلسن وابتعادهم عن الحدود الألمانية تحسنت معاملة الألمان لهم بشكل مطرد كما أن إدارة المعسكر صرفت لهم جميع مستحقاتهم بالمليم . وقبيل مغادرتهم أرض المعسكر بات هؤلاء المهجرون ليلتهم الأخيرة على أرض الجراج .

(٢) يوميات ريناتا لاكير Renata Laqueur (مايو-يولية ١٩٤٤):

ولدت ريناتا لاكير يوم ٣ نوفمبر ١٩١٩ .. ومعنى ذلك أنها كانت فى الخامسة والعشرين فى عمرها حين سطرت يومياتها ، وهى ابنة أستاذ الفارماكولوجى فى أمستردام بهولندا . وألقى القبض عليها عام ١٩٤٣ هى وزوجها . وزج بها فى معسكر وستربورك . ثم انتقلت منه إلى معسكر برجن بلسن يوم ١٥ مارس ١٩٤٤ ضمن فوج من اليهود الهولنديين للتبادل. وفى عام ١٩٦٢ قام إبرهارد بنشر بعض أجزاء يومياتها وقد نشرت هذه اليوميات كاملة فى أمستردام عام ١٩٦٥ وهانوفر عام ١٩٨٣ .

ونورد فيما يلى بعض صفحات هذه اليوميات التى سطرتها ريناتا لاكير يوم ٢٨ مايو ١٩٤٤ ، وفيها تشكو من شدة حرارة الجو فى ذلك اليوم ومن أن ١٨٠ من السجناء كانوا يستخدمون مرحاضاً واحداً ليس له باب يسترهم أو سقف يغطيهم ومن العفن المنبعث فى عنابر النوم . وتحدثنا ريناتا عن عملها فى مطبخ المعسكر فتقول إنه تعين عليها فى ظلام الساعة

الرابعة والنصف الانتظام فى طابور الفجر المتجه للعمل . ونظرت ريناتا حولها لترى الأسوار المصنوعة من الأسلاك الشائكة تحيط بها من كل جانب، الأمر الذى جعلها تكتب فى يومياتها بتاريخ مايو - يولية ١٩٤٤ قائلة :

«لابد أن يأتى اليوم الذى تختفى الأسوار المصنوعة من الأسلاك الشائكة» ولكن روحها انتعشت عندما ذهبت إلى العمل خارج المعسكر وتنسمت رائحة الغابات ورائحة الصيف والحرية رغم ماكانت تعانيه من ضعف وإسهال ورغم عملها الممل فى تركيب زراير كلسونات الجنود الألمان ، ولم تتوقف ريناتا عن الحلم بقدوم يوم تسوده الحرية ويختفى منه الخسف والاضطهاد وتتلاشى فيه أسوار المعسكر المصنوعة من الأسلاك الشائكة .

وتواصل ريناتا يومياتها المؤرخة يوم ٢٩ مايو ١٩٤٤ فتشكو من الارتفاع المستمر فى حرارة الجو ومن الرمال الحارقة والتراب الذى يؤذى العين كما تشكو من ظهور الدمامل فى قدمها ومن انتفاخ الكعبين والصداع والإسهال والرغبة فى القئ . ورغم كل هذه المتاعب فقد إنشرح صدرها عندما تحسن الطقس وظهرت الشمس فى بهائها الأخاذ .

تقول ريناتا إنها سمعت صفارة الإنذار فى الساعة الحادية عشر صباحًا فى يوم ٢٩ مايو ١٩٤٤ وأن الغارة استمرت حتى الساعة الثانية وخمسة وأربعين دقيقة بعد الظهر . وعلى غير العادة صدر الأمر إليها وزميلاتها بالاصطفاف فى الطابور للنداء عليهم فى الساعة الثالثة والنصف ظهراً . وتقدم قائد وحدة البوليس الخاصة منتهرا السجناء المتذمرين من

الوقوف بقوله إن عمله يقتضى منه الوقوف على قدميه لمدة ٣٦ ساعة وأن تعبه من الوقوف يفوق تعبهم . وتعلق ريناتا على ذلك بقولها إن قائد المعسكر عجز عن فهم تعبها من الضوضاء والحرارة والإسهال والجوع .

وتضيف ريناتا أن زميلة لها تبلغ من العمر ستين عامًا أصابها التعب فأغمضت عينيها دقيقة واحدة فقام القومندان بمعاقبة كل الفرقة آمراً إياها بالوقوف فى مواجهة السور تحت أشعة الشمس الحارقة . فضلاً عن حرمان هذه الفرقة من الطعام . وتتهكم ريناتا على معسكر بلسن الذى يعتبر معسكر المحظوظين لأنه لايكترث بمصير سجنائه البائسين .

وتذكر ريناتا أن قومندان معسكر بلسن زار فى اليوم السابق الفوج المزمع تهجيره إلى فلسطين والتى كانت إحدى أفراده ليبشرهم بأنهم على وشك السفر إلى فلسطين ، وأنهم سوف يستقلون عربات الدرجة الثانية فى القطار المتجه إلى فيينا ثم إسطنبول للذهاب مباشرة من هناك إلى فلسطين.

وأيضًا تذكر ريناتا استبعاد النازيين العشوائى لأربعين يهودياً من الرحيل إلى فلسطين وإعادتهم فجأة إلى العمل فى المعسكر . حدث هذا الاستبعاد لأن برلين قررت بشكل تعسفى ومفاجئ أن هؤلاء الأربعين يزيدون عن العدد الذى يجب ترحيله إلى فلسطين . غير أن ريناتا اعترفت بتحسن الطعام المقدم إلى المهاجرين إلى فلسطين ، ولكنها عبرت عن شكها الدفين فى نوايا النازيين وعدم تصديقها لوعودهم .

وفى يوم الجمعة الموافق ٢ يونية (١٩٤٤) كتبت ريناتا تقول إنها لم يكن لديها متسع من الوقت لتدوين يومياتها بسبب كثرة أعمال المعسكر . وانصرف السجناء فى المساء إلى ردم حفر الصرف الصحى والخنادق

اللازمة للدفاع عن المعسكر . ولم يكن لدى السجناء الآلات اللازمة للردم مما إضطرهم إلى استخدام علب الصفيح الفارغة تحت ضربات المشرفين ولكزاتهم .

وتحدثنا ريناتا عن إرجاء سفر الفوج المتجه إلى فلسطين للمرة الثانية، رغم أن هذا الفوج تأهب للرحيل وحزم أمتعته ووضع حقائبه بالقرب من سور المعسكر . وأيضًا شكت من ارتفاع درجة حرارة الجو إلى ٣٩ سنتيمراد . ورغم مرضها فإن الممرضين والممرضات رأوا أنها ليست بحاجة إلى العلاج ، بل رأوا أنها بخير وعافية .

وفى يوم الخميس الموافق ١٥ يونية ١٩٤٤ كتبت ريناتا فى يومياتها تقول إنها تفكر كثيراً فيما سوف يحدث فى العالم بعد انتهاء الحرب ، وهل تستطيع أن تصف للأجيال القادمة مرارة الكأس التى تجرعتها أو كيف تبدد شبابها وضاعت صحتها فى غياهب المعسكرات النازية . غير أن جميع السجناء ألف بين قلوبهم شيء واحد هو حلم العودة إلى أرض الوطن، مهما اختلف هذا الوطن سواء كان فرنسيًا أو إيطاليًا أو فى سالونيكا.

وفى يوم السبت الموافق ٢٢ يولية ١٩٤٤ كتبت ريناتا تشكو من قسوة العمل فى مطبخ المعسكر حيث تبددت صحتها وعافيتها رغم ماحصلت عليه من زيادة فى حصة الطعام . وهى تصف تفاصيل هذا العمل الشاق ومتطلباته حيث إن عملها فى المطبخ اقتضى منها الاستيقاظ فى الساعة الثانية ونصف بعد منتصف الليل ، الأمر الذى اضطرها إلى ترتيب ثيابها فى اليوم السابق حتى لاتتعطل عن لبسها فى فجر اليوم التالى فتتعرض

للضرب والإهانة . ويحضر إليهم الحارس فى دياجير الظلام الدامس حاملاً مصباحه لاقتيادها مع زميلاتها إلى موقع العمل حوالى الساعة الثالثة وعشر دقائق بعد منتصف الليل .

وكان للون المصباح الأحمر أهمية قصوى فهو الدلالة على أن من يسير فى المعسكر فى ظلمة الليل أحد العاملين فيه فلايطلق الرصاص عليه أحد الحراس . وفى الساعة الثالثة والنصف بعد منتصف الليل يموج المطبخ بالنشاط فتقوم السجينات العاملات بتنظيفه من القاذورات العالقة به منذ الليلة الماضية عن طريق خراطيم المياه المستخدمة فى إطفاء الحرائق . ثم يقوم الشباب العامل بإشعال النار ووضع أباريق كبيرة الحجم عليها بينما يغفو حارسهم الذى لم يأخذ قسطاً كافياً من النوم لبضعة لحظات . وتقول ريناتا إنها انكبت على تقشير البطاطس فى المطبخ فى أوانٍ هائلة حتى دميت أصابعها .

وفى الساعة الرابعة والنصف فجراً يأمر الحارس بتوزيع القهوة على عدة آلاف السجناء . وبعد الانتهاء من الاشتراك فى إعداد القهوة وتوزيعها تنصرف إلى أداء أعمال السخرة الأخرى التى تنتظرها فى المعسكر مثل غسل السلاطة والخضراوات وتقشير البصل الذى يجعل عينيها تدمعان بإستمرار ، فضلاً عن تنظيف أوانى الطبخ ومسح البلاط . ورغم الإرهاق الذى كابدته ريناتا فقد كانت مناظر الطبيعة الخلابة خارج المعسكر تسحرها .

وفى بعض الأحيان كان تنظيف الحلل وأوانى المطبخ يمتد بها من الساعة السادسة والنصف صباحاً حتى الساعة السادسة والنصف مساءً فى

جو خانق تتصاعد فيه الأبخرة . فإذا فاتها شيء حرمها الحارس من يوم إجازتها وهو أهون أنواع العقاب . وتقول كاتبة اليوميات إن كل ماتلقته لقاء هذا النصب لم يتجاوز ٤٠٠ جرامًا من الخبز وملعقة من الدسم وكمية ضئيلة من المربة وقطعة لحم أو زبدة ولبنًا رايبًا أو قطعة سكر تختلسها بإخفائها عن أعين الحراس .

(٣) يوميات آبدل ج هرزبرج Abdel J. Herzberg (أغسطس ١٩٤٤) :

ألقى النازيون القبض على محام مرموق يحظى بالاحترام فى أمستردام اسمه هرزبرج هو وزوجته عام ١٩٤٣ وزجوا بهما فى معسكر وستربورك . ويدين هرزبرج بالصهيونية . وقد وضعه النازيون على قائمة اليهود المزمع تهجيرهم إلى فلسطين . ولهذا السبب تم ترحيله إلى معسكر برجن بلسن فى يناير ١٩٤٤ تمهيداً لتهجيره إلى فلسطين . ولكن مجموعته أعيدت إلى معسكر النجمة قبل رحيلها مباشرة ، الأمر الذى اضطره إلى البقاء فى معسكر بلسن لمدة شهور . وبعد انتهاء الحرب الثانية استأنف هرزبرج عمله كمحام فى أمستردام . وإلى جانب اشتغاله بالمحاماة استطاع لفت الأنظار إليه بفضل مطبوعاته التاريخية والأدبية التى فازت بعديد من الجوائز . وفى عامى ١٩٥٠ و ١٩٦٠ ظهرت يومياته عن المعتقل . وقد قام إيرهارد كولب بترجمة هذه اليوميات إلى اللغة الألمانية عام ١٩٦٢ .

وبتاريخ ١٩٤٤/٨/١٥ كتب فى يومياته يقول إنه لايرى نهاية للحرب العالمية الثانية ، وهو مايعذبه كما أنه لايرى أى معنى لحبسه فحبسه لن ينفع المجتمع الإنسانى فى شيء . ويروى لنا هرزبرج تعطشه وتعطش السجناء إلى الحرية وإلى وصول أنباء العالم الخارجى إليهم .

فتهريب صحيفة إلى المعسكر بمثابة حكم على مهربها بالإعدام . ولكن السجناء رغم هذا يراقبون عن كثب كل مايحدث فى معسكر الاعتقال ويستشفون من ترحيل فوج من اليهود من برجن بلسن إلى فلسطين بدء تفكك الرايخ الألمانى .

ويحكى لنا هرزبرج أن الكابوهات يستذلون السجناء ويضربونهم بالسياط ويوجهون إليهم اللكمات والشتائم والزعيق والصراخ فى وجوههم . فإذا اعترض السجين على سوء المعاملة وجد نفسه فى زنزانة دون طعام ومكلفاً بأداء أعمال أكثر مهانة ومشقة . وإذا استمر فى عناده قاموا بشنقه . وكان النازيون يضعون على ظهر السجين فى بلسن صليبًا أحمر وعلى أكمامه وبنطلونه شريطاً أحمر . وكان بعض السجناء يلبسون ثياباً قذرة ومهلهلة مخططة بخطوط زرقاء وبيضاء وكان معظمهم يمشون حفاة وينم منظرهم عن الهزال والبؤس والجوع ، كما كانوا يكلفون بأعمال أشق من الأعمال المسندة إلى النزلاء المزمع تهجيرهم إلى فلسطين . ولهذا كانوا يموتون بالمئات . ولم يكن مسموحًا للفوج المزمع تهجيره إلى فلسطين بالتحدث معهم وإلا تعرضوا لأقسى أنواع العقاب .

وصدرت الأوامر إلى سجناء بلسن بإقامة معسكر فى الخيام يبلغ عددها نحو إثنتى عشرة خيمة لإيواء فوج جديد من السجينات والأطفال . وأقيمت هذه الخيام بجوار قطاع المهاجرين إلى فلسطين . وقضت التعليمات الصادرة بحظر اتصال المهاجرين إلى فلسطين بقاطنى هذه الخيام . وسرت إشاعة بأن السجناء الجدد جاءوا من بولندا أو بروسيا الشرقية . وما أن شعر السجناء بالصدع الذى أصاب النظام النازى حتى بدأت علامات المقاومة تظهر فى معتقل بلسن .

ومن مظاهر هذه المقاومة تجاسر السجناء اليهود القادمون من اليونان على استضافة بنى جلدتهم من السجناء القادمين من فرنسا وألبانيا والصرب فى البلوك رقم ١٢ للاحتفال والغناء . ولم يحاول رجال الوحدة الخاصة التدخل لمنعهم . وكانت كل جماعة من المحتفلين تغنى بلغة البلد الذى جاءوا منه فاليهود الروس يغنون بالروسية والفرنسيون بالفرنسية واليونانيون باليونانية . وبطبيعة الحال لم يفهم أتباع الجنسيات المختلفة بعضهم البعض . وتغنى بعض اليهود باللغة العبرية كما تغنى بعضهم للدولة العبرية ورأوا فى غنائهم رمزاً لوحدتهم وبدءاً لنهاية النظام النازى والرايخ الثالث .

وفى يوم ١٩٤٤/٨/١٧ كتب هرزبرج يقول إنه يبدو أن النساء السجينات اللاتى نزلن فى المعسكر المجاور له جئن من بولندا . وسرت إشاعة قوية بأن وارسو قد احترقت ، وأن الأمريكان نجحوا فى النزول إلى تولون . ويضيف هرزبرج أن ١٧٠٠ سجيناً مجريا زج بهم فى معسكر مجاور وأن هناك سياجًا من الأسلاك الشائكة يعزلهم عنهم . ويتهكم هرزبرج على النازيين قائلاً إنه من الواضح غرام الألمان بالأسلاك الشائكة فأينما ذهبوا تراهم يقيمونها فى كل مكان ، ومن هذه الأسلاك ماكانت أشواكه الطويلة عمودية ومنها ماكانت أفقية ، الأمر الذى يذكرنا بغرام الطليان بالمكرونة .

وبتاريخ ١٩٤٤/٨/٢٤ تناول هرزبرج انتشار السرقة بين سجناء المعسكر وخاصة سرقة الخبز والمارجرين والمربة والجبن وصنوف الطعام الأخرى . ثم ظهر بعد ذلك نوع جديد من السرقة هو سرقة الملابس .

والسرقات التى تحدث فى المعسكر تختلف عن مثيلاتها فى الحياة العادية. ففى الحياة العادية يقوم الفقراء بسرقة الأغنياء ، فى حين أن الفقراء فى معسكرات الاعتقال يسرقون من هم أشد منهم فقراً والمشرفين على الموت، فالوجبة التى يصرفها المعسكر لكل سجين تقل كثيراً عن السعرات التى يحتاجها للبقاء على قيد الحياة .

ومما يزيد من بشاعة جريمة سرقة السجناء أن الدافع إليها أحياناً لم يكن الجوع بل مقايضة المسروقات بالسجائر . فضلاً عن انتزاع الخبز من أيدى الأطفال العزل أو كسر صندوق يحتفظ فيه بعض السجناء بمخزون ضئيل من الخبز . حتى الشرفاء الذين يتورعون عن السرقة فى الأحوال العادية يلجأون إليها فى معسكرات الاعتقال . فعلى سبيل المثال ضبط موظف سابق كبير فى أحد بنوك أمستردام وهو يسرق شريحة من الخبز من أحد زملائه فى المعسكر .

والشىء نفسه فعلته سيدات المجتمع الراقى المحبوسات و، إلى جانب ذلك شوهد رجل أعمال يرأس شركة ذات سمعة عالمية وهو يسرق ثلاث كسرات من الخبز من أحد معارفه . وكان السارقون فى جميع الأعمار فمنهم الشاب ومنهم الطاعن فى السن . ويشكو هرزبرج فى يومياته بتاريخ ١٩٤٤/٨/٢٩ من شدة الجوع، ومن تقلص حصص السجناء التموينية بشكل ملحوظ فالكميات المنصرفة الآن من المارجارين واللبن الرائب والمربة أصبحت أقل مما كانت فى الماضى . فضلاً عن أن شعور السجناء بالإنهاك والنصب زاد عما كان عليه . ووصلت الأزمة إلى حد انقطاع صرف جراية الخبز لأربعة أيام . ولم يجد النازيون حلاً لهذه المشكلات

سوى زيادة توقيع العقوبات على السجناء بحرمانهم من الطعام حتى ولو كانوا يعانون من السل والالتهاب الرئوى . ناهيك عن معاناتهم من الجوع.

ورغم أن عدد ساعات العمل فى الأسبوع لم تزد من الناحية الرسمية عن ٧٢ ساعة أى بواقع ١١ ساعة على مدار ستة أيام ، فإن ساعات العمل اليومية كثيراً ماتجاوزت الفترة المقررة وخاصة العمل فى المطبخ فهو يتطلب استيقاظ السجين الطباخ الساعة الثالثة فجراً وانتهاءه من العمل فى الساعة الخامسة أو السادسة من بعد ظهر اليوم التالى . وأحياناً امتدت فترة العمل فى المطبخ إلى أكثر من ذلك . وبوجه عام كانت صحة العاملين بالمطبخ أفضل من صحة بقية السجناء الذين يحسدون زملاءهم العاملين فى المطبخ . وبالإضافة إلى ذلك كان عمال المطبخ يكلفون بأداء بعض المهام الشاقة مثل الاستيقاظ فى الرابعة فجراً لجر فناطيس سعتها مابين خمسة وعشرين وخمسين لتراً . وقصارى القول إن جاويش المعسكر كان يتحكم فى مصائر سجنائه .

كان العاملون فى مطبخ تقشير الخضراوات يحصلون على أجر إضافى كما يحصلون على إجازة بعد ظهر أحد أيام الآحاد وحصة طعام أكبر تتكون من سلطانية شوربة إضافية . وكان من امتيازات العمل فى المطبخ أكل الجزر واللفت والبطاطس خلسة من وراء ظهر الحراس ، وكان جاويش المعسكر يعاقب السجناء لأتفه الأسباب مثل وضع أيديهم فى جيوبهم أو رفع الكاب من فوق رءوسهم . وكثيراً ما اتخذ العقاب شكل حرمان السجين من إجازته بعد ظهر يوم الأحد . وأيضًا كانت التدريبات الرياضية المرهقة نوعًا من العقوبة المفروضة على السجناء بسبب قلة

نظافتهم أو تأخرهم في وقوفهم فى الطابور أو التكاسل والتباطؤ فى العمل أو استخدام الطريقة الخطأ فى ترتيب الفراش .

ويستطرد هرزبرج قائلاً إن العمل الذى كلف بأدائه تلخص فى فك أربطة الأحذية القديمة والاحتفاظ بالأجزاء السليمة من جلدها للاستفادة بها. غير أن كل هذه العقوبات المشددة لم تفلح من منع اليهود من التظاهر بالانهماك فى العمل والتحايل على المشرفين عليهم . وكان الجاويش يسمح لهم من وقت إلى آخر بالتحدث إلى بعضهم البعض حول أمور شديدة التفاهة بسبب التفاوت الكبير فى مستواهم التعليمى والثقافى، فجاء حديثهم الممل حول الشوربة ومقدار دسمها . وعدد قطع اللحم التى كان من حسن حظ هذا أو ذاك أن يعثر عليها فى شوربته ونقصان جراية فلان عن جراية علان والظلم فى توزيع الشوربة ومحاباة البعض على حساب الآخرين فمساجين الثكنة رقم X يحصلون على ملعقة مربة مليئة إلى حافتها فى حين أن سجناء Y يحصلون على ملاعق مربة أقل . ولهذا لم يكن من السهل على شخص متعلم مثل هرزبرج أن يجد من يحدثه فى الفلسفة والسياسة وعيون الأدب العبرى أو من يتلو مزامير التوراة .

(٤) يوميات حانا ليفي هاس Hanna Levy Hass

(سبتمبر ١٩٤٤ - ١٩أبريل١٩٤٥) :

تنحدر حانا ليفى هاس من إحدى عائلات السفارديم فى سراييفو . وفى عام ١٩٣٨ اشتغلت حانا بالتدريس وانضمت إلى الحزب الشيوعى اليوغسلافى المحظور . ثم انخرطت فى النشاط السياسى والصراع الحزبى

فألقى القبض عليها فى ١٢ فبراير ١٩٤٤ . وتم ترحيلها من سيتنج -ce tinje إلى معسكر برجن بلسن فى يوليه ١٩٤٤ . وبعد تحرير هذا المعسكر عام ١٩٤٥ عملت لفترة فى إذاعة بلغراد ثم هاجرت من يوغسلافيا إلى إسرائيل عام ١٩٤٨ . وقد نشرت يومياتها فى برلين عام ١٩٧٩ كما أن رونالد ل. تيلور Ronald L. Taylor ترجم كتابها «داخل بلسن» إلى اللغة الإنجليزية .

كتبت حانا ليفى هاس يوم ٤/٩/١٩٤٤ فى يومياتها أن المعسكر الذى تعيش فيه أشبه بمستشفى المجاذيب فالخناقات تدب فيه ويرتفع الزعيق لأتفه سبب . وتصف حانا ليفى جميع السجناء بأنهم غشاشون ومخادعون ويعانون من عقدة الاضطهاد وتفيض قلوبهم بالشك فى الآخرين ولاهم لهم غير الصراع على الطعام . وتستطرد حانا ليفى هاس فتحدثنا عن وجود قصريات البراز فى العنابر كى يستعملها المرضى والأطفال العاجزون عن استعمال دورات المياه . ومعنى ذلك أن السجناء يتبرزون فى المكان نفسه الذى يأكلون ويعيشون فيه ، الأمر الذى جعلهم يعتادون على العفن المنبعث وعلى المكانس التى تهيل عليهم التراب وعلى زعيق الكبار والصغار من حولهم . وفى عنابر المعسكر يقايض السجناء الثياب المهلهة لقاء قطعة خبز أو يقايضون الخبز بالسجائر أو السجائر بالخبز. وهى صفقات تعقد بعد مناقشات طويلة ومفاوضات لاتنتهى .

وتقول حانا ليفى بتاريخ ٢٣/١٠/١٩٤٤ إن سجناء بلسن كانوا يومياً يسمعون صفارات الإنذار التى تنطلق فى المساء والليل فيبقون فى ظلام دامس . وكان الرجال يعودون من أعمالهم إلى أرض المعسكر فيتلمسون

طريقهم إلى فراشهم وحاجياتهم ، فضلاً عن تناولهم طعامهم البائس فى الظلام الدامس . وبسبب الظلمة المستمرة يعيش السجناء فى توتر عصبى؛ فهم يصطدمون فى سيرهم ببعضهم البعض ، ويدوس الكبار على أجساد الصغار ، فيتعالى صراخهم ويستغل اللصوص هذا الظلام فيقومون بسرقة الخبز وهو العملة المتداولة والمعترف بها فى المعسكر .

وأصبح الشغل الشاغل لسجين بلسن حماية كسرة الخبز التى فى حوزته من الضياع أو السرقة . وأحياناً كان الحراس الألمان يتسلون على السجناء بحرمانهم من الطعام بعض الأيام . ومن فرط حرص السجناء على قطعة الخبز كانوا يقومون بتقطيعها فى حرص إلى شرائح منمنمة لاتزيد الشريحة الواحدة عن مليمترين علمًا بأن طول جرايته من الخبز لايزيد عن ثلاثة سنتيمترات . والغريب أن الحراس قاموا مرة أو مرتين بمعاقبة السجين الذى يفقد قطعة خبزه بحرمانه من الطعام .

وتعترف حانا أن السعادة كانت تغمرها عند سماع صفارات الإنذار وتفرح لهجوم طائرات الحلفاء على النازيين ، فهذه الصفارات كانت الشىء الوحيد الذى يخرجها من عزلتها الكاملة ويصلها بالعالم الخارجى . وأيضاً كانت حانا تفكر دائمًا فى الأطفال الذين يتعلمون فى المدرسة على يديها فهى المكان الوحيد الذى يحفظ للطفل نشاطه الذهنى ، ومن جانبهم أظهر أطفال المعسكر حرصاً شديداً وحماساً عظيماً للتعليم .

وفى ٦ نوفمبر ١٩٤٤ تحدثنا حانا عن قيام إحدى العاملات بوحدة البوليس الخاصة بالتفتيش اليومى على العنابر ، وهى امرأة أنيقة ومتعجرفة وشديدة الصخب والجلبة ، تقتحم العنبر كما يقتحم الجندى الميدان يرافقها

عسكرى ومشرفة المعسكر اليهودية . وبمجرد وقوع نظرها على أطباق غير جيدة الغسل أو فراش غير مرتب ينطلق منها الصياح المرعب والتهديد والوعيد ، وهى تلطم السجينات بقوة على وجوههن . كما كانت يومياً تحرم سبع أو ثمان سجينات من طعامهن .

وتؤكد حانا أن الإحساس الشديد بالجوع يسود جميع سجناء المعسكر بلا استثناء أو تمييز . فلاغرو إذا رأيناها تتمنى أن تنعم بالشبع لفترة واحدة فى حياتها . كما أنها تصف الفرحة العارمة التى تظهر على السجين أو السجينة الذى ينجح فى سرقة حبة لفت . ولأن صفارات الإنذار لم تنقطع عاش المعسكر كله فى ظلام دامس . والويل كل الويل للسجينة أو السجين الذى يخطئ فيضيئ المصباح ولو للحظات . عندئذ يسود الصياح والجلبة وصرخات الاحتجاج فيقوم الحراس على الفور بإطلاق النار على المذنب ويردونه قتيلاً كما حدث لامرأة ورجل يقطنان العنبر الهولندى .

وعن طريق السجناء العاملين فى ألمانيا نفسها جاءت أنباء سارة عن اقتراب القوات الحليفة ؛ الأمر الذى انشرحت له صدور السجناء دون أن يخفف ذلك من غلواء النازيين ووحشيتهم .

وتقول حنا ليفى فى يومياتها بتاريخ ديسمبر ١٩٤٤ إن الألمان أصدروا أمراً إلى جميع السجناء بالعمل خارج المعسكر سواء كانوا طاعنين فى السن أو مجرد غلمان لاتزيد أعمارهم عن الرابعة عشر ؛ بحيث خلا المعسكر تماماً من جميع سجنائه . وأيضاً توقفت آنذاك مدرسة الأطفال عن العمل وعمت الفوضى المعسكر . وصدرت الأوامر بإيقاظ السجناء

جميعاً كل يوم فى الرابعة فجراً رغم زمهرير الشتاء وصقيعه من أجل الاصطفاف فى الساعة الخامسة صباحاً فى طوابير النداء على الأسماء ثم يحضر الضابط الألمانى للتأكد من صحة العدد ويأمرهم بالانصراف إلى العمل . ورغم تجمد السجناء من فرط البرودة لم يكن فى مقدورهم التحرك من مكانهم . وبسبب سوء التغذية والصقيع سقط الكثيرون منهم مغشياً عليهم .

وجرت العادة أن يحضر الضابط الألمانى المكلف بالتمام على السجناء بين السابعة والسابعة والنصف صباحًا ليكيل لهم الشتائم والإهانات ويوزع عليهم ركلاته . وإذا حاول سجين الامتناع عن العمل لأى سبب من الأسباب أوسعه ضرباً وكسر عظامه وأمر بجره على الأرض فيضطر المسكين إلى العودة إلى الطابور مهما بلغت حالته سوءاً . ونشعت الرطوبة داخل العنابر لسوء بنائها وكثرة مافيها من ثقوب . ولهذا انتشر القمل والبراغيث والميكروبات كما إنتشر العفن . وكان إنتشار القمل بين السجناء أمراً طبيعيًا للغاية . فهم لضيق المكان يرقدون فوق بعضهم البعض ولايستطيعون التحرك من مكانهم ، ناهيك عن الجلوس . وليس أدل على هذا الاكتظاظ من أن العنبر رقم ٢٥ الذى تقطنه النساء الفرنسيات والمجريات تراكمت أجسادهن الواحدة فوق الأخرى .

وتقول حانا ليفى بتاريخ يناير ١٩٤٥ إنها نجحت فى التحدث مع بعض النسوة القادمات من معسكر أوشويتز فتبين لها أن معظم سجناء هذا المعسكر كانوا من يهود بولندا واليونان والمجر ، وحكت لها سجينات أوشويتز عن فظاعات هذا المعسكر وإبادة مئات الألوف من اليهود فى

محرقته فى الفترة من ١٩٤٣ حتى ١٩٤٤ كما حكين عن القتل بالغاز وإبادة ٩٩ ٪ من سجناء هذا المعسكر به . ولم تنج من الموت فى جحيم معسكر أوشويتز سوى بضعة مئات من النساء . وروت إحدى اليهوديات القادمات من اليونان عن إبادة ٧٠ ألف يهودية يونانية فى معسكر أوشويتز لم تنج بجلدهن من الموت سوى ثلثمائة امرأة فقط . ويبدو أن الطعام الذى قدمه النازيون إلى سجنائهم فى أوشويتز كان أفضل من الطعام المقدم إلى سجناء بلسن بدليل أن السجينات القادمات من أوشويتز كن يتمتعن بالصحة والعافية . غير أن الفزع من المحرقة ظل يلاحقهن .

وتستطرد حانا ليفى قائلة إن محرقة أوشويتز حرقت مابين ألف وألفى يهودى ويهودية فى اليوم الواحد ، وأنهم كانوا يدخلون غرف الغاز بالدور وهم يشاهدون المحرقة تؤدى عملها . وإذا كانت سجينات أوشويتز قضين فى الغاز فإن سجينات برجن بلسن قضين من الجوع . ومعنى هذا أن هدف النازيين فى كل الحالات واحد ، حتى وإن إختلفت تكتيكاتهم . وفى حين يموت سجناء أوشويتز على وجه السرعة فإن الموت فى معسكر بلسن يأتى على مهل فالموت جوعاً أبطأ بطبيعة الحال من الموت بالغاز السام .

وفى مارس ١٩٤٥ كتبت حانا ليفى تقول إن وباء التيفوس أصاب جميع نزلاء معسكر بلسن مما اضطر النازيين إلى إقامة حجر صحى . وظلت حانا تعانى من الحمى لمدة خمسة عشر يوماً . ورغم ارتفاع درجة حرارتها إلى ٤٠ و٤١ لم تجد أى دواء تأخذه . وأثناء مرضها عانت حانا من الصداع .. ومن الإحساس الدائم بالغثيان . وشاهدت حانا زميلاتها يمتن أمام عينيها الواحدة تلو الأخرى ، فلم يعد يهمها قدوم قوات الحلفاء أو

حتى تحريرها من سجنها . حتى الإحساس بالجوع لم يعد يخيفها فالموت صار محور اهتمامها ومركز تفكيرها . وألح عليها خاطر كئيب أنها لن تستطيع البقاء على قيد الحياة لأكثر من شهر أو شهرين . ولكن القدر شاء لها النجاة من الموت بحمى التيفوس ، ومع ذلك ظلت فكرة الموت تلح عليها .

التفتت حانا حولها وهى فى فراشها لتجد جثث الأخريات يرقدن عليها ، وبدأ المكان يكتظ بالموتى بعد أن كان يكتظ بالأحياء ، من قبل . حتى أفنية المعسكر اكتظت بجثث الموتى المتراكمة فى أكوام ترتفع يومًا بعد يوم بعد أن عجزت الأفران عن استيعابها . وتوقف النازيون عن إحضار الطعام غير أن فنطاس الماء كان يمر عليهن من آن لآخر . وعندما اشتد الجوع على حانا كانت تترك فراشها لجمع الحشائش وقشر البطاطس من صفائح القمامة لغليها ثم أكلها .

(٥) يوميات لودن فوجيل Loden Vogel (فبراير-أبريل ١٩٤٥)

ولد لودن فوجيل فى ٢٥ ديسمبر ١٩٢٠ لأب يعمل طبيبًا ومحللاً نفسيًا فى أمستردام . وكان فى نحو الثالثة والعشرين من عمره عندما سطر يومياته . وفى ٢٩ سبتمبر ١٩٤٣ ألقى النازيون القبض عليه هو ووالديه فى أمستردام وزجوا بهم فى معسكر وستربورك . وبالنظر إلى أن هذه العائلة امتلكت جوازات سفر أمريكا الجنوبية فقد تم ترحيلهم من معسكر وستربورك إلى معسكر برجن بلسن . وبعد تحرير معسكر بلسن ، قام لودن فوجيل بنشر يومياته فى مدينة لاهاى عام ١٩٤٦ ، فضلاً عن قيام إبرهارد كولمب بترجمتها إلى الألمانية عام ١٩٦٢ .

وفى يومياته كتب لودن فوجيل بتاريخ ١٢ فبراير ١٩٤٥ يقول إنه نظراً لعمله كممرض فى مستشفى المعسكر ، كان يحق له المطالبة بفراش يأوى إليه فى حجرة الأطباء . ولكنه إمتنع عن المطالبة بهذا الحق حتى لايخسر حصته الإضافية من الطعام نتيجة عمله فى المعسكر .

ويستطرد لودن فوجيل قائلاً إن جميع المرضى فى مستشفى بلسن كانوا يشكون من نقص الطعام . فجميع الحصص التموينية انخفضت إلى ثلاثة أرباع ماكانت عليه منذ أيام قلائل . فقد أصبح لزامًا على نزيل المعسكر أن يعيش ستة أيام بأكملها على رغيف الخبز المخصص للجيش . ولهذا كان النزلاء لايكفون عن الشكوى دائمًا من نقص الخبز كما أصبح المرضى منهم مجرد هياكل عظمية قذرة مليئة بالحشرات ، ويلبسون ثياباً مهلهلة لاتكفى لتدفئة أجسامهم .

وبحكم عمله كممرض احتار لودن فوجيل فيما يفعل بملابس المرضى الداخلية المليئة بالقذارة والجراثيم والحشرات ، فلم يجد أمامه حلاً سوى التخلص منها وخاصة أن لابسها المريض كان فى طريقه إلى الموت.. يقول لودن فوجيل إنه كان بإمكانه بحكم عمله كممرض التخلص من حياة مرضاه ولكن منعه من ذلك أن والديه المقبوض عليهما كانا فى حالة شبيهة بحالة سجنائه ، كما أنه توقع قرب انتهاء الحرب أن النظام النازى سوف يقوم بتبادل السجناء المشرفين على الهلاك .

ثم كتب فوجيل فى ١٥ فبراير ١٩٤٥ يقول إن التعب والجوع بلغا به كل مبلغ . وأخذ يقارن بين حياته السابقة كباحث نهم عن اللذة الجنسية وحالته الراهنة كسجين لاهم له سوى الحصول على كسرة خبز . ويصف

فوجيل عنابر برجن بلسن غير الآدمية فيقول ان أسقفها غير مكسوة بطبقة من المحار تحمى السجناء من تسرب المطر الذى يبلل الفراش والبطاطين وكل شيء بداخل الغرف . ويخبرنا فوجيل أن عنبره يخلو من الإضاءة وأن البراز تناثر فى كل مكان فى شارع المعسكر .

ويمضى كاتب اليوميات قائلاً إنه قدر له فى إحدى الليالى أن يبيت مع أحد المرضى فى فراش واحد . ولم يكد يغطى جسده بالبطانية حتى هاجمه القمل بأعداد غفيرة ، فاضطر إلى قتلها بأسنانه لأنه لم تكن هناك طريقة أخرى للتخلص منها . ثم ذهب إلى حجرة الأطباء لوجود إضاءة فيها وأخذ يفتش عن القمل بدقة بالغة . ورغم نجاحه المؤقت فى التخلص من القمل فإن القمل مالبث أن عاد ليستقر فى أماكنه المفضلة وهى الرقبة والإبط .

ويحدثنا فوجيل عن الجوع فيقول إن أسوأ مافى الجوع ليس الإحساس به ؛ حيث إن هذا الإحساس لايستمر طويلاً ويمكن التغلب عليه بأية كمية من الطعام . ولكن أسوأ مافى الجوع أنه يولد الجشع الذى يدعو صاحبه إلى الحسد ويخلق خيالات عن الجوع لا أساس لها فى الواقع . وعندما دخل فوجيل المطبخ زال عنه الإحساس بالجوع . ولكن الجشع ألح عليه فدفعه إلى الإفراط فى الأكل ثم العودة إليه بنهم . ولاحظ فوجيل فى الفترة التى عاشها مع والديه فى معسكر بلسن أن أبويه يتعذبان من الجوع وأن كل فكر والده يتركز فى الطعام .

ويعبر فوجيل فى مذكراته عن شيء من التفاؤل بقرب نهاية الحرب .

وفى ١٦ مـارس ١٩٤٥ كـتب فـوجـيل يقـول إنـه سـمع أن الكاتب الفرنسى الشهير مالرو Malraux ألف كتاباً عن معسكرات الاعتقال تناول فيه عرى الأخوة والصداقة التى تربط المعتقلين . ويحـدثنا فوجيل عن روح السـجناء المعنوية فيـقـول إن روح المجـريين المعنويـة فى المعـسكر المجـاور وعند النسـاء القـاطنات فـى المعـسكر الروسى تـخـتلف عن روح السـجناء المعنويـة فى المعـسكرات الأخـرى فـهم لايظهـرون السـمـات البورجوازية المقيتة الموجودة لدى السجناء الآخـرين كما أنهم لايجأرون بالشكوى طيلة الوقت .

ويعترف فوجيل أن المعسكر غير من طباعه ، فقد علمته الحياة فى المعسكر التأقلم معها . فمنذ عام كان يشمئز من رائحة اللفت المطبوخ التى تملأ الهواء . ولكنه الآن يتوق إلى الطعام ذاته الذى كانت نفسه تمجه وتعافه فى الماضى . فهو الآن على استعداد على المقايضة على سلطانية شوربة فيها شىء من الدسم واللحم والبطاطس . ويشكو فوجيل من أنه لم ير أية فاكهة أو بيض أو زبدة طوال عام بأكمله ، كما يشكو من انتشار وباء التيفوس ومن أن القمل أصبح يسكن أجساد الجميع دون استثناء ولكنه يتحدث بلهجة متفائلة عن قرب انقشاع العبودية النازية التى استطاع كثير من البلاد الأوربية دحرها ، مضيفًا أن قوات الحلفاء استطاعت عبور نهر الراين كما يحدثنا عن القصف المستمر التى تعرضت له المواقع النازية .

ويعترف فوجيل بالخوف الذى اعتراه منذ أن وطأت قدماه أرض المعسكر وبهزاله الذى جعل قدميه لايقويان على حمله كما يعترف بأن

شهوته تركزت فى مجرد حصوله على سلطانية شوربة ، التى كانت نفسه تمجها فيما مضى ، فضلاً عن اشتهائه لشريحة من الخبز الطازج وقطعة من الزبد وشريحة من الخبز الفرنسى تكسوها طبقة من الشيكولاتة .

وبحلول فصل الربيع نظر فوجيل من حوله فرأى مجموعة من الأجساد العارية تحت أشعة الشمس ، ولكن عند اقترابه منها تبين أنها جثث لأشخاص فارقوا الحياة منذ فترة وجيزة ، كان أصحابها ضمن الأسماء التى نودى عليها فى طابور ذلك اليوم .

وجلس فوجيل فى الطرف الآخر من المعسكر وشخص ببصره إلى معسكر المجريين فرأى كثيراً منهم يخرج فراشه وأغطيته للبحث عن القمل المنتشر فيها .

وفى ٢٨ مارس ١٩٤٥ كتب فوجيل فى يومياته أن السجناء الأطباء فى معسكر بلسن اكتشفوا وجود حمى التيفود فيه وانتشاره بوجه خاص بين السجناء الألبان الأمر الذى دعاهم إلى اقتراح تخصيص مستشفى لعزل المرضى ، يضم جميع الحالات المشتبه فى إصابتها بالتيفود . وتطوع بعض السجناء للعمل كأطباء من أجل محاصرة هذا المرض من ناحية والحصول على وجبة أكبر من الطعام من ناحية أخرى . ويضيف فوجيل أن تطهير عنبر الألمان من القمل لم يتم على الوجه الأكمل . وأثناء عمله كطبيب جاءه مريض ينتشر فيه القمل فقام بتعقيم ملابسه . ولكنه يبدو أن التعقيم لم يفلح فى القضاء على الحشرات ، حيث إنه اكتشف أن القمل الموجود فى الصرة التى يحملها قادر على مقاومة

الحرارة المرتفعة فرفع تقريراً عن هذه الظاهرة إلى المسئولين عن إدارة المعسكر .

ويذكر فوجيل في يوميات إعجابه الشديد برواية همنجواى المعروفة «وداعًا أيها السلاح» كما أنه أشار إلى أن الحمى أصابت أمه السجينة فى بلسن فارتفعت درجة حرارتها إلى ٣٩ .

وفى أول إبريل ١٩٤٥ كتب فوجيل يقول إن السجناء بالأمس تسلموا بعض اللفت بدلاً من الخبز ، وأنه كخبير فى التعقيم لم يكن مقتنعاً بسلامة إجراءات التعقيم التى اتخذها النازيون . وسرت إشاعة بأن الحلفاء استطاعوا الهبوط بالباراشوت فى بادربورن Paderborn . لفت نظر فوجيل فى رواية همنجواى المذكورة أن سجناء الحرب الأهلية الإسبانية كما صورهم همنجواى فى روايته يأكلون مالذ وطاب مثل الجبن والمكرونة والسجق والبيض ولحم الخنزير .

ويخبرنا فوجيل عن موت رجل عجوز يدعى كليرك Klerk رغم قيامه بتعقيمه ويقول فوجيل فى اليوميات التى سطرها يوم ٥ أبريل ١٩٤٥ إنه ترامى إلى سمعه أن الحلفاء نجحوا فى الوصول إلى هانوفر وليبزج وفيينا .

ويسبب تفشى القمل بشكل مفزع ، اضطر فوجيل إلى التخلص من ٣٣ بطانية مليئة بالحشرات كما استعان بشاب يدعى برومبرج Bromberg لحلق شعر السجناء عن آخره وحلق شعر امرأة عجوز أثناء رقادها فى فراشها . ولكنه واجه صعوبة بالغة لأن شعرها كان لازقًا كما لو كان ملتصقاً بمادة القار لدرجة أن مقص الحلاقة عجز عن اختراقه .

(٦) يوميات رودلف كوسترماير Rudolf Kustermeier بعنوان «الأسابيع الأخيرة قبل تحرير المعسكر» :

آمن رودلف كوسترماير بالمذهب الديموقراطي الاجتماعي . وألقى النازيون القبض عليه يوم ٢٩ نوفمبر ١٩٣٣ بتهمة القيام بنشاط غير مشروع ضد النظام النازى . وفى ٢٧ أغسطس ١٩٣٤ حكمت عليه محكمة الشعب العليا النازية بالسجن لمدة عشرة أعوام مع الأشغال الشاقة ، وقد وصل هذا الرجل إلى معسكر برجن بلسن ضمن فوج تم ترحيله من معسكر ساشنهاوزن فى أوائل فبراير ١٩٤٥ ، وعمل ككاتب فى عنبر المرضى التابع لأول معسكر سجناء أقيم هناك .

وضمن ديريك سنجتون Derrick Sington تقرير كوسترماير فى كتابه الذى نشره فى هامبورج عام ١٩٤٨ ، وهو كتاب سبق نشره فى لندن عام ١٩٤٦ بعنوان «إماطة اللثام عن بلسن» .

يقول كوسترماير فى يومياته إنه خاض فى برك ماء عميقة حين دخل المعسكر برجن بلسن فابتلت قدماه وابتل بنطلونه . وفى المعسكر رأى لأول مرة فناء الطوابير التى فرض عليه الوقوف فيها لساعات طوال . وبسبب الزحام وقف كوسترماير لمدة ثلاثين ساعة فى جمهرة من السجناء يصل عددهم بين ثمانين ومائة سجين تم شحنهم فى عربات البضائع . ثم مشى رهطهم لمدة ستة كيلو مترات ، اضطروا بعدها إلى الوقوف المنهك للمرة الثانية . وببطء تلبدت السماء بالغيوم وأمطرت ثلجاً وماءً . وفى المعسكر بحث كوسترماير عن مكان لإيواء المرضى فلم ير حوله غير القذارة والقمامة وأكواخاً متهدمة للإيواء .

وانتظر السجناء ومن بينهم كوسترماير فترة حتى سمح لهم النازيون بدخول هذه الأكواخ القذرة التى لم يكن حالها بالداخل أفضل من حالها بالخارج ، فضلاً عن خلوها من الأسرة والمقاعد ومصابيح الإضاءة .. بل إنها خلت من المراتب القش . وكانت نوافذها مكسورة ، حتى القش الذى يمكن الرقاد عليه لم يكن موجوداً . وكان الطين يغطى أرضية الأكواخ . كما كان المطر يتساقط من الأسقف ، وقيل لفوج السجناء الجدد الذى يضم كوسترماير إنه لن يكون من المستطاع تزويدهم بالطعام ليومين أو ثلاثة متتالية لأن المطبخ لم يكن مستعداً لاستقبالهم . واضطر الوافدون الجدد إلى النوم على البلاط . ونظراً لضيق المكان لم يكن فى وسع السجناء المحشورين كعلب السردين أن يتقلبوا على جوانبهم أو يمدوا أرجلهم وأيديهم . وفى منتصف الليل شعر كوسترماير بألم شديد فى بطنه لأن زميلاً داس عليها بقدميه وكان المطر يتساقط نقطة نقطة من السقف الأمر الذى اضطر البعض إلى البحث عن مكان آخر للرقاد ، وقرروا النوم فى الممر الضيق المجاور لعنبر النوم . ولكنهم ابتلوا بالماء لأن الريح القوية دفعت المطر خلال النوافذ إلى حيث هم راقدين . ولهذا كان الطبيعى أن يسقط السجناء مرضى .

وفى صبيحة اليوم التالى بدأ أحد العاملين فى المعسكر فى تسجيل أسماء الفوج الجديد . وبوجه عام كان السجناء يفضلون السكن مع أشخاص ينتمون إلى نفس جنسياتهم . ونظراً لأن السواد الأعظم من الفوج الجديد كان من الروس والبولنديين فإنهم شغلوا أماكن مستقلة خصصوها لأنفسهم فى حين عاشت الجنسيات الأخرى مختلطة (مثل الألمان والنرويجيين والهولنديين والفرنسيين) فى أماكن أخرى . ورغم تكوم السجناء كالسوائم، فإنهم شعروا بالارتياح للعيش مع بشر على شاكلتهم .

يقول كوسترماير إنه لم يعرف المعسكر فى الفترة الأولى من دخوله المعتقل بسبب انهمار المطر المستمر . وفى اليوم التالى لوصوله مات سجين ألمانى شيوعى ظل حبيساً لمدة عشرة أعوام ، كما سمع كوسترماير عن حدوث وفيات أخرى فى العنابر . وبلغ عدد الوفيات بين أفراد الفوج الجديد فى الثلاثة الأيام الأولى من وصولهم نحو اثنى عشر شخصاً . وفى اليوم الثالث من وصوله نقل النازيون كوسترماير إلى كوخ جديد مبنى من الطوب ، وهو كوخ قارص البرد تغطى الثلوج أرضيته ؛ الأمر الذى أصاب سجناءه بالأمراض الروماتيزمية والتهاب الكلى . فلاغرو إذا رأينا السجناء يلهثون كالمجانين فى البحث عن الأغطية والبطاطين والثياب يغطون بها أجسامهم المرتعشة . وتسلل اللصوص لسرقة اللفائف التى يضعون رؤوسهم عليها أو الحذاء الذى يستخدمونه كسند للرأس ولفك رباط الحذاء إذا كان النائم يلبسه ، وأيضًا كانوا يسرقون فوطة السجين وصابونته إذا ذهب للإغتسال .

• وبعد انقضاء حوالى عشرة أيام استطاع رودلف كوسترماير أن يجد لنفسه سريراً ينام عليه فى أحد الأكواخ . ولم يكن سريراً بالمعنى المعروف بل مجرد عوارض خشبية . كما استطاع الحصول على مرتبة من القش هجرها السجناء بسبب امتلائها بالبراغيث . وكادت هذه الأسرة أن تلتصق ببعضها البعض ، ولم يكن فى مقدور أى من السجناء الوصول إلى سريره دون الاصطدام بزميل له أو الارتطام به . وبسبب ضيق مساحة السرير إضطر النائمان عليه إلى الرقاد خلف خلاف ؛ أى أن ينام أحدهما ورأسه عند قدمى زميله وبالعكس . ولكن النوم فى مثل هذا الوضع كان متعباً لأن معظم السجناء كانوا دائمى الحركة والتقلب أثناء

النوم . ورغم صعوبة النوم بهذه الطريقة شعر كوسترماير بالراحة لتمكنه من مد رجليه أثناء النوم .

وتعين على السجناء الاستيقاظ فى الساعة الرابعة فجراً وأحياناً قبل ذلك كما تعين عليهم الوقوف فى الطابور فى خلال دقائق قلائل أمام الأكواخ فى خمسة صفوف ، يتكون كل صف فيها من عشرين شخصاً يقوم كبير السجناء وكاتبه بعدهم . كان السجناء يصطفون فى الطابور رغم المطر والثلوج ، ولم يكف المشرف على السجناء (الكابوه) ومساعدوه عن دفعهم ولكزهم وضربهم ، وهو نفس مافعله رجال وحدة البوليس الخاصة ، عقاباً لهم على تلكؤهم فى رفع القبعة عند مرور القائد عليهم أو لأنهم أسرعوا فى لبسها قبل انتهاء القائد من مروره أو لأن السجين رفع ياقته كى يقى نفسه من البرد القارص ، أو لأنه تكلم مع زميل له ، أو وضع بطانية على كتفيه طلباً للدفء ، وكان قائد الطابور يعد السجناء أربع مرات للتأكد من صحة العدد .

وصب النازيون جام غضبهم على السجناء ، ولم يكفوا عن تهديدهم وضربهم بالعصا والسوط على ظهورهم وأكتافهم وأذرعهم ورؤوسهم . ومن فرط الإعياء والتعب من الوقوف لساعات طول كان السجناء الضعفاء يسقطون مغشياً عليهم أو يموتون على أرض الفناء الذى يصطفون فيه، فيأتى اللصوص لتجريدهم من ملابسهم وممتلكاتهم . ولم يتورع النازيون أنفسهم عن فعل ذلك أحياناً . ثم يحضر المسئولون لجر الجثث ونقلها فى كومات إلى كوخ خاص .

وكان فى المعسكر بوليس خاص يطلق عليه اسم التمرجية ، يتكون من سجناء ينتمون إلى جنسيات مختلفة ويرأسهم كابو (أو مشرف) من

أصل ألماني . وتلخصت مهمتهم في دفن الموتى وانتظار وصول شحنات البضائع وأفواج السجناء التي تصل بالقطارات ، غير أن عدد هؤلاء التمرجية لم يكن كافياً بالنسبة إلى كثرة الوفيات .

كانت الشوربة في بلسن توزع على الثكنات في فناطيس خشبية عتيقة . ولم يكن لهذه الفناطيس أية مقابض الأمر الذي جعل من العسير نقلها عبر مسافات طويلة من المطابخ إلى الأكواخ . وأيضاً كان من الصعب على أربعة رجال حمل الفنطاس الواحد . وكانت الفناطيس تنقل في حراسة مشددة مكونة من حوالي خمسة حراس لمنع أي سطو أو هجوم عليها . ورغم ذلك فقد كان بعض هذه الفناطيس يتعرض للهجوم كل يوم تقريباً . ونجم عن هذا الهجوم سقوط جانب من الشوربة على الأرض فيزحف السجناء الجياع على بطونهم كي يلعقوها .

ولهذا السبب ولغيره من الأسباب انتشر الإسهال بين سجناء المعسكر. ولأن دورات المياه كانت على مبعدة من مساكن السجناء لم يجرؤ أحد على الخروج في الليل لقضاء حاجته خشية أن يظن الحراس أنه ينوي الهرب فيطلقون الرصاص عليه ، ولهذا كان يفضل توسيخ نفسه وثيابه على تعريض حياته للخطر .

ولم يجد السجناء غضاضة في لعق الشوربة المسكوبة على الأرض المتسخة بآثار البول والبراز . وبعد ظهر أحد الأيام رأى الحراس أن اثنين من المساجين لم يلبيا نداء الطابور وظلا راقدين في فراشهما ، فما كان من الحارس إلا أنه أرداهما قتيلين .

وتوالى قدوم أفواج جديدة من السجناء تصل أحياناً إلى أربعة جاءت من بولندا وألمانيا الشرقية التي أجليت بسبب تقدم القوات الروسية . كما

جاءوا من وسط وشمال ألمانيا حيث تم الاستغناء عن عمالة كثير من العمال نتيجة قيام قوات الحلفاء بقصف مصانعهم وتدميرها . وأيضًا جاءوا من غرب ألمانيا عندما إضطر النازيون إلى التخلى عن الضفة اليسرى لنهر الراين ، وقد تم حشرهم جميعاً فى معسكر بلسن على أساس أن هذا المعسكر سوف يصمد طويلاً أمام هجمات الحلفاء .

ونحو نهاية يناير ١٩٤٥ انتشر التيفوس فى معسكر بلسن (١) بادئاً بحالات فردية ليستشرى ويصبح وباءً كاسحًا لاسبيل إلى التصدى له . ويسبب الارتباك ونقص المياه ، توقف السجناء عن الاستحمام وغسيل ملابسهم فى منتصف شهر ديسمبر مما زاد من تفاقم الأوضاع وانتشار التيفوس . وأحس السجناء أنفسهم بالخطر المحدق بهم فسعوا من جانبهم إلى عزل مرضاهم ، كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . وساعد نقص الأدوية على إنتشار الوباء وأصيب القائمون بعمليات العزل بالعدوى ، حتى الأطباء وهيئة التمريض لم يسلموا من الإصابة بالحمى .

وتطوع كوسترماير للقيام بأعمال التمريض ؛ حيث إنه اكتسب نوعاً من المناعة ضد المرض نتيجة إصابته السابقة بالتيفوس منذ عام مضى . غير أن الضعف مالبث أن إعتراه واضطره إلى الاستعانة بعصا فى المشى . وتلخص عمله فى تسجيل أسماء المرضى الذين يصلون يوميًا فى الأكواخ الأخرى ، وبوجه خاص تسجيل أسماء المرضى . يقول كوسترماير إن أبويه أصيبا أيضًا بالمرض . فضلاً عن أنه بادر بتهوية بلوكات المرضى بفتح أبوابها ونوافذها لأطول مدة ممكنة .

وأيضًا استعان كوسترماير بمساعدين سبق لهم الإصابة بالمرض . كما أنه وجد ضمن فوج السجناء الجديد طبيبين سجينين يحملان الجنسية

الروسية ونحو ستة عمال نظافة روس على أتم استعداد للتطوع لتنظيف العنبر . وقاموا بتعقيم الأسرة تعقيماً دقيقاً بشكل يومى . واتفق القائمون برعاية مرضى التيفوس مع العمال الذين يأدون عملهم خارج المعسكر على إحضار كمية من الأخشاب لإشعال النار فيها لغلى الماء. فضلاً عن تمكنهم من الحصول على بعض أدوات النظافة مثل المقشات والفرش التى سرقها بعض السجناء من مخزن المعسكر .

وفى الوقت نفسه أخذ الأطباء يصنفون المرضى وفقاً لأمراضهم بحيث تم إيواء حالات الدوزنتاريا بالقرب من المراحيض ووضع حالات التيفوس فى قطاع آخر . وأيضاً تم تخصيص عنبر ثالث لإيواء مرضى السل ؛ حيث وضع المصابون ببقية الأمراض فى قطاع رابع . ومن المؤسف أن قادة وحدة البوليس الخاصة تهربوا من التصدى للأمراض .. ومع ذلك فقد نجح فريق الرعاية الصحية المتطوع فى إحراز بعض التقدم الحقيقى فى تحسين أوضاع المعسكر الصحية . فقد اختفى العفن وتم تنظيف الممر والأسرة من الحشرات والأوساخ . وخشى أفراد الوحدة الخاصة على حياتهم فتحاشوا الاقتراب من المرضى والبقاء معهم لمدة طويلة . ولسوء الحظ لم تنجح هذه الجهود فى استئصال التيفوس الذى استمر فى الانتشار الأمر الذى اضطر إدارة المعسكر إلى تخصيص معسكر آخر لهم . يقول كوسترماير أن ٣٦ حالة وفاة حدثت فى يوم واحد فى الكوخ الذى يسكنه .

وزادت من بؤس السجناء نقص إمدادات الطعام فلم يحصلوا على البطاطس المطبوخة فى الشوربة إلا مرة أو مرتين فى الأسبوع . وتفاقمت أزمة الطعام لدرجة أن الطباخين لم يعودوا يهتمون بغسل اللفت والبطاطس

أو حتى بتقشير البطاطس قبل طهيها . ومعنى هذا أن الطعام نفسه كان مصدراً للداء وليس عاملاً مساعداً على الشفاء .

وذات يوم مات ألف شخص فى المعسكر .. وبطبيعة الحال ارتفعت معدلات الوفيات فى عنابر المرضى . ويضيف كوسترماير أن ستة عشر من هيئة التمريض ماتوا فى غضون ستة أسابيع بنهاية شهر مارس ١٩٤٥ .

ثم جاءت المرحلة الأخيرة من معسكر بلسن فقد خلع رجال وحدة البوليس الخاصة ملابسهم العسكرية وارتدوا الملابس المدنية تمهيداً للهروب من المعسكر . وتوقفوا عن دخول عنابر المعسكر وعن النداء على الطوابير . وأمام اختفاء المسئولين عن المعسكر إضطر السجناء إلى إدارة معسكرهم بأنفسهم وقسموا أنفسهم إلى مجموعات عمل .. وعبثا حاول رجال الوحدة الخاصة شحذ همم الألمان والبولنديين للتصدى للقوات الحليفة الزاحفة باتجاه المعسكر . وبعد فترة وجيزة قررت أغلبية النازيين مغادرة المعسكر وكذلك حذا حذوهم أعوانهم من شيوخ المعسكر وكابوهاته ورحل جميعهم عن المعسكر يوم ١٤ أبريل ١٩٤٥ ، وتم تحرير معسكر بلسن يوم ١٥ أبريل ١٩٤٥ . وكانت المشكلة التى واجهت سجناء المعسكر المحررين كيفية التخلص من آلاف الجثث المتناثرة حولهم .

ويختتم كوسترماير يومياته بالفقرة التالية :

«فى الليلة السابقة على ١٥ أبريل (١٩٤٥) هجعت إلى فراشى دون أن يغمض لى جفن . ولم أذق طعم النوم إلا فى الهزيع الأخير من الليل . وفجأة أيقظنى من النوم أحد العمال الروس يعيش معنا فى نفس البلوك .. قال : «تعال .. تعال بسرعة بسرعة .. هناك دبابات على الطريق .. لقد

سمعت قرقعتها وصوتها الهادر الذى لايمكن الخطأ فيه .. ومن بعيد سمعت صوت الدبابات تدخل المعسكر كما سمعت صوتاً عاليًا من مكبر صوت فى عربة نقل .. وأدركت أننا أصبحنا أحراراً ورقدت على سريرى أفكر . وتعين علىَّ دائمًا أن أكون فى حالة دفاع عن النفس ضد البراغيث والبق، الذى لم يتوقف عن تعذيبى ولو لمدة دقيقة واحدة .. كنت أعانى من الحمى وكانت رأسى ثقيلة وغائمة . ولكنى كنت أدرك أننا أصبحنا أحراراً.

لقد انتهت فترة سجنى التى تجاوزت أحد عشرة عامًا .. وكتبت لى الحياة وسوف تتوافر لى فرصة الشفاء ، وسوف أتمكن من الاشتراك فى عملية إعادة الإعمار . ولم أفكر فى الانتقام ولكنى عرفت أن أشد أنواع الطغيان والبطش الذى عرفه العالم الحديث انتهى ، وأنه أصبح أمامنا الآن فرصة لصنع رجال جدد وحياة جديدة .. فملأنى شعور بالعرفان والامتنان العميق» .

الفصل الثالث

اليهود يقيمون الصلاة سراً فى معسكر برجن بلسن

يقول توماس راحى Thomas Rahe فى مقال نشره عام ١٩٩٧ بعنوان «الحياة الدينية اليهودية فى معسكر برجن بلسن» إن اليهود القاطنين فى عنبر المهاجرين إلى فلسطين تمسكوا بالتوراة . وكان المتدينون منهم يجلسون على أعلى رفوف النوم بالقرب من السقف للصلاة واستخدام لغتهم العبرية فى ساعة متأخرة من الليل ، كما كانوا يترنمون بصلوات يوم السبت وهو اليوم المقدس لديهم . وكان من بين المصلين عدد قليل من اليهود القادمين من تونس يؤمهم فى الصلاة رجل عجوز ، معه لفائف كتب التوراة عليها . وأيضاً كانت تجلس على الأرض فى فى شكل دائرى مجموعة من الأطفال تحيط بمدرس يدربهم على تصريف الأفعال العبرية حتى تبقى هذه اللغة حية ولا تندثر . وهذا ما تعلمه من سجين يهودى اسمه ورنر واينبرج Werner Weinberg ، الذى تم ترحيله إلى برجن بلسن فى فبراير ١٩٤٤ .

غير أن معظم الكتب المؤلفة عن الهولوكست لا تشير إلى ممارسة اليهود لشعائرهم الدينية فى معسكرات الاعتقال ولكنها تشير إليها باعتبارها نوعاً من المقاومة والبطولات الروحية ، فضلاً عن أن الملفات الرسمية وهى المصدر الرئيسى لدراسة تاريخ الهولوكست تخلو أيضاً من أية معلومات عن ممارسة اليهود لشعائرهم الدينية فى معسكرات الاعتقال .

ولهذا اعتمد الباحثون فى إثباتها اعتماداً يكاد أن يكون كاملاً على شهادات السجناء والناجين من الموت الذين خلفوا للدارسين رسوماً وقصائد ومذكرات وثائقية وما أدلوا به فى مقابلاتهم مع وسائل الإعلام . ومما يعقد البحث فى هذا الموضوع أن معظم هذه الكتابات لم تكتب فى فترة الاعتقال ولكنها كتبت بعد تحرير الجيش البريطانى لمعسكر بلسن فى ١٥ مايو ١٩٤٥ . ومن الواضح أن الوثائق النازية خلت من الإشارة إلى ممارسة اليهود لشعائرهم الدينية ، لأنها تمت دون علم النازيين المسئولين عن المعسكر .

ولكن لا ينبغى أن تفهم مما تقدم أن جميع اليهود فى معسكرات الاعتقال انصرفوا إلى العبادة ؛ فمنهم من فقد إيمانه بالله والدين معاً تحت نير الخسف والاضطهاد ، ولكنهم بطبيعة الحال لم يتركوا أوراقاً تدون موقفهم الذى تجلى فى أقوالهم وسلوكهم فقط .

ويعترف توماس راحى بأن أية دراسة فى هذا الموضوع لا يمكن أن تتحرى الموضوعية الكاملة . فعلى سبيل المثال يستحيل أن نحصى على وجه اليقين عدد السجناء اليهود الذين مارسوا شعائرهم . ولهذا من الخطل كل الخطل التعميم فى مثل هذه الظروف .

ويحدثنا توماس راحى فى مبحثه عن الزيادة الرهيبة فى أعداد السجناء فى بلسن قائلاً بأنهم بلغوا نحو ١٥ ألف سجين فى أوائل ديسمبر ١٩٤٤ ثم ارتفع عددهم إلى ٢٢ ألف سجين فى يناير ١٩٤٥ ثم ٤١٥٢٠ فى أول مارس ١٩٤٥ ، وهو يقدر العدد الكلى للضحايا فى هذا المعسكر بخمسين ألف سجين . وأضاف أن تخصيص معسكر بلسن لتبادل اليهود والأوربيين بالرعايا الألمان أتاح ليهود هذا المعتقل فرصة أكبر لإقامة شعائر

دينهم من فرصة اليهود الآخرين المحبوسين فى معسكرات اعتقال أخرى . وأيضاً ساعد على هذا التجانس الاجتماعى ، الذى ظل سائداً فى هذا المعسكر فى خريف عام ١٩٤٤ . فقد كان السجناء يعيشون مع عائلاتهم وبين سجناء آخرين ، ينتمون إلى نفس جنسيتهم وثقافتهم .

وتميز معسكر النجمة الى ضم السواد الأعظم من اليهود فى بلسن بأن نزلاءه كانوا فى كثير من الأحيان يعرفون بعضهم البعض قبل الزج بهم فى هذا المعسكر . وكذلك كان هناك بين السجناء عدد كبير من الأحبار الذين اعتبرهم النازيون صيداً ثميناً عند التبادل والمقايضة . وهناك عامل مساعد آخر وهو أن نسبة اليهود فى بلسن حتى عام ١٩٤٤ شكلت ٨٠٪ إلى ٩٠٪ من عدد السجناء الكلى . وحتى مع توافد أعداد من غير اليهود احتفظ النازيون باليهود فى قطاعات مخصصة لهم ، فضلاً عن أن جوزيف كرامر عند تعيينه قائداً لبلسن فى عام ١٩٤٤ وافق على الاستعانة بعدد كبير من اليهود للإشراف على السجناء من بنى جلدتهم مما أتاح لليهود فرصة أكبر لأداء شعائرهم الدينية فى جو من الحرية النسبية .

ويتضح من اليوميات التى كتبها سجناء برجن بلسن ومن رواياتهم أن السجناء اليهود الذين كانوا ينتظرون مبادلتهم كانوا يملكون لفائف كتب التوراة عليها ، بل إنهم كانوا فى بعض الأحيان يملكون العهد القديم مطبوعاً . ورغم أننا لا نعرف عدد نسخ التوراة الموجودة فى هذا المعسكر على وجه التحديد فقد تم العثور فى أواخر خريف ١٩٤٥ على أجزاء من كتب الصلوات العبرية بالقرب من محرقة برجن بلسن .

وحتى ندرك أهمية هذه الكتب المقدسة لدى أصحابها من يهود التبادل ، يذهب إيلى دازبرج Eli Dasberg إلى أن الحبر سلمان Selmann الذى غادر معسكر بلسن فى يناير ١٩٤٥ ضمن فوج التبادل أخفى لفائف التوراة فى الحقيبة التى يحملها على كتفه معرضاً بذلك نفسه للخطر إذا اكتشف رجال الوحدة الخاصة أمره . فضلاً عن أن السجين أبل هرزبرج ورث عن جده كتاباً مقدساً قديماً وممزقاً اعتز باقتنائه اعتزازاً عظيماً . فهو يقول فى هذا الشأن : «شعرت برباط غريب وغير مفهوم يشدنى إلى كتابى المقدس المتهالك وغير القابل للاستعمال لدرجة أننى لم أستطع الفراق عنه عند ترحيلنا إلى المعسكرات الألمانية . وبطبيعة الحال لم آخذ معى غير الضروريات تاركاً ورائى الأشياء الممنوعة . ولكن وضعت الكتاب المقدس Shofas الذى لم أكن بحاجة إليه بالمرة فى حقيبتى التى أحملها على كتفى» . وأخيراً وصل هذا الكتاب الذى اعتبره هرزبرج ضرورياً إلى معسكر برجن بلسن فى عام ١٩٤٤ كى يقوم روش هاشانا Rosh Hashana باستخدامه .

وقد بدأ الغلام أربيه كورتز البالغ من العمر ستة عشر عاماً والذى تم ترحليه من سالونيكا إلى برجن بلسن فى تدوين يومياته . فهو يقول فى هذا الشأن : «احتفظت بيومياتى وكتاب الصلوات فى حقيبتى طوال فترة إقامتى فى المعسكر ، وحرصت عليه كل الحرص باعتباره كنزاً خلال تلك الشهور الصعبة والمضطربة »، ورغم أن كورتز لم يذكر فى أى جزء من يومياته أنه استخدم كتب الصلوات التى يحتفظ بها فإنه اعتبر أنها تعبر عن شخصيته وتجسد هويته . وأيضاً احتفظ لويس آسشر Louis Asscher بقائمة خبأ فيها قبل ترحيله من وستربورك إلى برجن بلسن تقويماً سنوياً

وتواريخ وفاة أفراد عائلته ؛ حتى يتمكن من معرفة اليوم الذى يتلو فيه صلاة الرحمة Kaddish على الموتى من أقاربه .

وحدثت فى بلسن حادثة لها دلالتها عند السور الفاصل بين المعسكر الخاص ومعسكر المجرمين ، الذى أطلق منه سراح مجموعة من اليهود ، سمح لهما بالرحيل إلى سويسرا فى يولية ١٩٤٤ ، وفى هذا الشأن يذكر سيمكا كورنجولد Simcha Korngold السجين فى المعسكر الخاص ما يلى : «فى ذلك الوقت أحضر الألمان مجموعة من يهود المجر التى يطلق عليها مجموعة كاستنر Kastner التى هاجر عدد منها إلى سويسرا وأعطيناهم مجلداً يحتوى على الأسفار الخمسة نقشنا عليه أسماءنا الحقيقية وطلبنا منهم إعطاء المجلد إلى المنظمات اليهودية حتى يهزوا به العالم ويبهروه . ووصل هذا المجلد إلى فلسطين حتى وصل إلى يدى عمى ، ومنه عرف عمى أننى وأختى وأطفالى الثلاثة لا نزال على قيد الحياة » .

وبطبيعة الحال كان اقتناء أى سجين يهودى لأية كتابات دينية يمثل خطراً عليه . وقد حدث لشلومو سامسون Shlomo Samson موقف محرج مع واحد من رجال الوحدة الخاصة كنا نسميه «عشماوى» . ويروى شلومو سامسون هذه الحادثة المحرجة قائلاً :

«فى يوم من الأيام عندما كان عشماوى يقف قريباً جداً منى أثناء انهماكى فى العمل اكتشف أننى أحتفظ فى جيب قميصى بشىء مستطيل الشكل . فى ذلك الوقت لم يكن الراديو الترانزستور قد اخترع بعد . واقترب الرجل منى ومد يده فى جيبى ليخرج كتاب صلاة صغيراً للجيب وطلب منى شرحاً فأخبرته بأنه كتاب صلاة قديم أعطاه لى جدى وأن الكتاب

عزيز علىّ بوصفه ذكرى من العائلة . وهذا هو السبب الذى دفعنى إلى إحضاره معى أثناء العمل خشية أن يقوم أحد من بلوك السجناء بسرقته فى فترة غيابى . وفحص عشماوى صفحات الكتاب العبرى الصفراء (الخالى من أية ترجمة ألمانية) ، وسألنى : فى أى موضع يقول هذا الكتاب إن بنى اسرائيل سيقومون بقتل جميع المسيحيين ؟ وحين ألح على عشماوى ألا أحاول التزويغ من الإجابة تعين علىّ أن أعطيه رداً فقلت له أغلب الظن أن الأمر التبس على عمى ، وأنه لا يفرق بين كتاب الصلوات اليومية العادى وكتاب آخر لم أره فى حياتى ، ومن ثم لا أعرف فحواه .. فهذا الكتاب المعروف يحمل عنوان Choshen-Hamishpat .

ومن الواضح أن مثل هذه المقتنيات الدينية كانت تمثل خطراً أفدح بالنسبة لسجناء برجن بلسن فى أواخر ربيع ١٩٤٤ ، فهم لم يحظوا بالمكانة المتميزة التى حظى بها سجناء معسكر النجمة أو سجناء التبادل المحظوظون . ويحدثنا سجين يهودى مجرى عن تعرض اثنين من زملائه لأذى وحدة البوليس الخاصة الشديد بسبب امتلاكهما لبعض الكتب الدينية إلى حد أن واحداً منهما مات . ولهذا كان من الطبيعى أن يتوجس السجناء اليهود فى بلسن شراً خشية ضبط كتب دينية بحوزتهم . ويتضح لنا هذا من الفقرة المقتبسة التالية :

«فى اللحظة التى وطأ فيها اليهود السلفيون أرض المعسكر تخلوا تلقائياً عن معظم شعائرهم حيث إنهم اضطروا إلى العمل يوم السبت المقدس وغيره من الأيام المقدسة . ولم يكن فى وسعهم أن يتناولوا الأطعمة التى ينص عليها الدين اليهودى .. كما أنهم تخلوا عن معظم الوجبات الدينية

المميزة لأسلوب حياتهم والتى ألزمتهم بها الشريعة الموسوية . وأثار هذا بين أتقياء اليهود تساؤلاً فيما بينهم مفاده : إذا كانت الظروف تجعل من المستحيل على اليهودى أداء فرائضه الدينية بنسبة ٩٠٪ فهل هناك جدوى من الاستمساك بـ ١٠٪ الباقية ؟ وعلى سبيل المثال هل يمكن لليهودى الاستمساك بفريضة السبت ، بعد الانتهاء من ساعات العمل الشاق؟ وهل هناك فائدة من استبعاد المكونات التى تحرمها الشريعة اليهودية من الشورية التى يتناولها السجين اليهودى كل يوم ؟ وهل ينبغى على اليهودى أن يصوم فى يوم الغفران ويمتنع عن أكل الخبز فى عيد الفصح ؟ وهل هناك فرائض دينية بعينها يستطيع اليهودى أداءها حتى فى معسكرات الاعتقال ، هذه التساؤلات ومثيلاتها ألحت على أذهان اليهود المتدينين .

وكان من أصعب الأمور على السجناء اليهود فى بلسن إقامة الشعائر الدينية الجماعية حيث إن الصلوات الفردية يمكن إخفاؤها فى حين يصعب إخفاء الصلاة الجماعية . يقول سجين فى معسكر النجمة فى هذا الشأن : «حاولنا إقامة الشعائر الدينية فى معسكر النجمة كل يوم فى سرية تامة وخفية عن الأنظار . وعلى الدوام وقف واحد منا كناضورجى خشية أن يلاحظ رجال وحدة البوليس الخاصة أى شيء . وكان من العسير للغاية جمع العشرة يهود اللازمين لإقامة الصلاة . وكان معظمهم من غير الشباب لأن غياب الشباب من الطابور من شأنه أن يلفت الأنظار .

وأيضاً فى معسكر المحايدين اعتمد أداء الشعائر الدينية على صلاة العشرة ، وذكر السجين فريتز فاندور Fritz Vandor أن صلاة العشرة كانت تقام فى كل جناح . كما كانت هذه الصلاة تقام كل يوم فى معسكر

يهود المجر . ولكن مع تدهور الأحوال المعيشية فى معسكر بلسن للاعتقال أصبح من العسير اجتماع عشرة يهود لإقامة الصلاة . ومع بداية عام ١٩٤٥ ظهرت عقبات كأداء تعوق اكتمال هذا العدد . ومن ناحيتهم كان المصلون اليهود العشرة يؤدون الصلاة فى الأوقات التى تكون دوريات رجال وحدة البوليس الخاصة مشغولة عنهم بعملها .

وطبيعى أن تعكر جلبة المعسكر وضوضاؤه صفو المصلين الذين ينتحون ركناً قصياً فى المطعم أو عند النوم لأداء شعائرهم .

واستعداداً لاستقبال يوم السبت المقدس ، تغير شكل المعسكر فى أمسيات أيام الجمع حيث تطوعت اليهوديات بتنظيف المناضد والمقاعد بكل همة ونشاط وقمن بتزيين المكان على قدر المستطاع . وظهر الأطفال اليهود وقد ارتدوا ما استطاعوا من الثياب القشيبة . وكذلك ارتدت الفتيات اليهوديات أفضل ما لديهن ، وحذا الرجال والنساء حذو الأطفال فاختاروا من بين ثيابهم القديمة أفضلها .

ومع بدء الاحتفالات ، غمرت الفرحة جميع اليهود واليهوديات الحاضرات يؤلف بين قلوبهم إحساس مشترك بانتمائهم إلى دين واحد . وبمناسبة يوم السبت المقدس ، يضىء المحتفلون عدة شموع فى تحد لتعليمات المعسكر بعدم إضاءة أية شموع . وكان هذا الاحتفال ممكناً فى معسكر النجمة فى النصف الأول من عام ١٩٤٤ ، ولكنه أصبح أمراً مستحيلاً فى نهاية هذا العام . فضلاً عن استحالته فى المعسكرات الفرعية التى تدور فى فلك برجن بلسن حيث استعاض اليهود بحرق ورقة بدلاً من اضاءة الشموع ؛ نظراً لعدم وجود أية شموع . صحيح أنه كان باستطاعة

اليهود صنع الشموع من المارجارين الذى يصرف لهم فى الوجبات ، ولكن لم يكن مقدورهم الاستغناء عن المارجارين اللازم لاستمرارهم على قيد الحياة .

وحتى داخل معسكر الاحتجاز فى بلسن ، كانت هناك فوارق كبيرة فى طريقة الاحتفال بيوم السبت المقدس . فقد كانت هذه الفوارق متفاوتة حيث تفوق الحرية الممنوحة لمجموعة كاستنر فى هذا المعسكر الحرية المعطاة لزملاء لهم يقطنون أماكن أخرى فى المعسكر .

وقد سمح النازيون لمجموعة كاستنر الاحتفال بالسبت بعد أدائهم لعملهم فى هذا اليوم . بل إن الاحتفال بالسبت فى معسكر النجمة نفسه اختلف من كوخ إلى آخر ، وهو ما يتضح من المقابلة التى أجريت مع برنهاودت الذى قال إن امرأة يهودية اسمها فلورا فيفر كانت تدعو فان ليوان Van Leuwan التى تعمل فى المطبخ للاحتفال بالسبت مساء كل يوم جمعة فى مكان يخيم عليه الظلام فلا يرى أحد منهم الآخر . وكان بعض السجناء الآخرين حاضرين خلال هذه الاجتماعات ، التى تركت أعمق الأثر فى نفس ليوان وخاصة حين طلب إليه السجناء تلاوة الصلاة قبل تناول الطعام . وفجأة وتحت جنح الظلام بدأ جميع الحاضرين فى الترنيم .

وتروى لنا كلارا أشر بينهوف Clara Asscher - Pinhhof الدور العظيم، الذى لعبته روح الانتماء إلى الجماعة فى الاحتفال بالسبت قائلة فى هذا الصدد : «قرأت فقرات فى التوراة كانت تتلى فى الأسبوع نفسه فى شتى أرجاء العالم ، وعلى نحو غريب شعرت بأن ثمة صلة تربطنى بهذا

العالم الحر . وهكذا قمت بتلاوة واحد من المائة والخمسين مزمورا المكتوبة باللغة العبرية فى كل صباح فى المعسكر الذى كنت أعيش فيه (وهو معسكر وستربورك) .

وفى مساء أول يوم جمعة جلست إلى المنضدة فى الحجرة المشتركة داخل الكوخ . ولكن ضوضاء يوم السبت كانت تشوشر على الصلاة . ولكن الهدوء ما لبث أن عاد فى المرة الثانية وساعد على ذلك ارتفاع أصوات صارخة تطالب الحاضرين التزامه ، وفى اليوم الثالث تصرفوا كأطفال وتوسلوا إلىّ قائلين إنهم الآن يستحقون أن يسمعوا قصة أرويها لهم .

وهناك تقرير عن يهودى يدعى هانز جوسلر Hans Goslar المتحدث السابق باسم الحكومة البروسية .

يقول هذا التقرير :

«أذكر لقاءاتنا فى أمسيات أيام الجمع فى الثكنة التى تضم أسرة نوم كالرفوف بعضها يعلو البعض . وعلى هذه الأسرة رقد أناس مصابون بالتيفوس والأمراض الأخرى ، ويعانون من الجوع ويتعذبون ويخشون على حياتهم كل يوم . وفى ظروف يعجز المرء عن وصفها جلس جوسلر على رف النوم الأكثر ارتفاعاً ، ويحدثنا عن راحة السبت ومباهجه وقدسيته . صحيح أننا كنا لاننعم بأية راحة يوم السبت ، وأننا كنا مضطرين إلى العمل الشاق فيه مثل بقية أيام الأسبوع . ولكن أثناء إستماعنا إلى كلمات جوسلر التى تخرج من فمه ووجهه الوضاء المشع بنورانية علوية مثل النورانية الآتية من عالم آخر .. كان لصوته رنين يفيض بالإيمان العميق الراسخ . كما كان وجهه يبدو متلألئاً تحت تأثير فرحته الغامرة فننسى حالتنا الكئيبة

البائسة ، وتحملنا كلماته الموحية إلى ذكرى المناضد الممدودة العامرة فى منازل آبائنا بمناسبة الاحتفال بالسبوت والأيام المقدسة فى غابر الزمان ... وكثيراً ماكنا ننفعل وتجيش قلوبنا بهذه الذكريات فنبدأ بإنشاء أغانى السبوت التقليدية التى تعرف بأغانى الموائد . ورغم أننا كنا نخفض أصواتنا حتى لاتصل إلى مسامع الحراس فإن الرعشة إعترت إنشادنا كما طفحت أفئدتنا بالبشر والحبور» .

احتفل اليهود بأمسيات أيام الجمع وعيد البصخة ، ورغم حياتهم الشاقة فى المعسكر فإن الأمل الذى راود بعضهم فى مبادلتهم وتهجيرهم جعلهم أكثر قدرة على التحمل . غير أن بعض اليهود تهافتوا وشعروا بالضياع وأصابهم يأس عظيم .. بل إن عقلهم اهتز واضمحلت قواهم العقلية .

والجدير بالذكر أن الاحتفال بالسبوت لم يكن قاصراً على الجوانب الدينية وحدها .. فقد كانت أنشطة بعض اليهود فى هذا اليوم ذات طابع علمانى بحت مثلما يستشف من يوميات حانا ليفى هاس التى جاء مايلى فى يومياتها المؤرخة فى ١١ نوفمبر ١٩٤٤ :

«تقرر فى جميع أرجاء المعسكر تخصيص أيام السبوت لاحتفالات الأطفال التى يفترض أن يكون لمعظمها طابع دينى . وكنا فى كوخنا نستخدم السبوت لغرض مماثل ، وهو أن نمد الأطفال ببرنامج ينعشهم . ولكن كنا فى الغالب الأعم نجعل هذا البرنامج يتلاءم مع عقلية شعب بنى إسرائيل مثل تلاوة المحفوظات والغناء السولو (المنفرد) والكورالى والتمثيليات الصغيرة» .

وإلى جانب ذلك ، كانت الأنشطة الثقافية تحتوى على دراسات فى التوراة والتلمود وعلى محاضرات تتناول الموضوعات الثقافية والسياسية . ولكن الأنشطة الثقافية لم تكن بمعزل تام عن الأنشطة الدينية ؛ حيث إن الخط الفاصل بينهما فى كثير من الأحيان لم يكن واضحاً .

ويذكر جوبور زيترون Gobor Czitron البالغ من العمر آنذاك ثمانية عشر عاماً – وهو سجين أطلق سراحه من معسكر يهود المجر ليهاجر إلى سويسرا عام ١٩٤٤– إنه فى فترة اعتقاله فى معسكر برجن بلسن استمع إلى تفسيرات ممتعة للكتاب المقدس ، كما استمع إلى سلسلة من المقالات الخلابة ألقاها أحبار فى شرخ الشباب تشرح الإصحاحات فى سياقها التاريخى . وهو مايردده أبل هرزبرج Abel Herzberg فى كتاباته . يقول هرزبرج إن النازيين زجوا بامرأة فى زنزانة لمدة ثمانية أيام، عاشت فيها على الماء والخبز عقاباً لها لإتيانها ببعض الأمور التافهة . وإمعاناً فى الإصرار والتحدى ، ذهبت هذه المرأة إلى محبسها وهى تحمل الكتاب المقدس تحت إبطها . ولم تكن هذه المرأة متدينة ، ولكنها أرادت أن تستمد من هذا الكتاب المقدس قوة تساعدها على تحمل التنكيل والعذاب .

غير أن بعض الباحثين يحذرون من المغالاة والمبالغة فى تضخيم تمسك اليهود بدينهم وكتبهم المقدسة فى سجن برجن بلسن ؛ حيث إن الخسف والاضطهاد اللذين تعرضوا له صرف الكثيرين منهم عن الاهتمام بالدين والتمسك به . ومن ثم يعلق م. فيس على هذا الشأن قائلاً : «كان بعض السجناء يدرسون التوراة والتاريخ العبرى ، فضلاً عن أن البعض قام بدراسة التلمود .. ولكن أغلبية السجناء أمضوا وقتهم فى لعب الورق» .

والجدير بالذكر أن غالبية التقارير التى وصلتنا عن النشاط الدينى اليهودى فى برجن بلسن تتناول الصلوات الجماعية ؛ حيث يصعب مراقبة الصلاة الفردية إلا إذا أفصح عنها صاحبها واعترف بممارستها . تقول أدا ليفى Ada Levy فى هذا الشأن : «كانت شدة المراس وقوة الإرادة المفرطة ضرورية من أجل بقاء السجين على قيد الحياة . كما كان كل يوم ينطوى على رعب ومخاوف جديدة . كيف أمكننى التغلب على هذا الجحيم ، لابد أن السبب يرجع إلى صلاتى اليومية . وصلاتى من أجل بقاء أمى الحبيبة على قيد الحياة . إن إرادتى هى التى أبقتنى حية» .

وعندما تدهورت أحوال معسكر برجن بلسن وتحول سجناؤه إلى أكلة لحوم البشر بدأ بعض اليهود يتشككون فى حكمة الله الذى يسمح بكل هذا البؤس والشقاء . بل إن السجينة اليهودية روخاما بينخوف Ruchama Pinkhof التى رحلت فى شبابها إلى معسكر بلسن تذكر أنه أثناء وقوفها فى الطابور همست لها امرأة تقف خلفها قائلة : الله الذى يسمح بكل هذا الشقاء الإنسانى ليس له وجود على وجه اليقين .

وقد ترك لنا المحلل النفسى وسجين برجن بلسن الهولندى لويس تاس Louis Tas مذكرات جاء فيها أن عدد السجناء المنتحرين فى هذا المعسكر كان ضئيلاً للغاية .

ونحن نطالع بتاريخ سبتمبر ١٩٤٤ فى يوميات يهودا هاليفى Ju-dah Halevi كثيراً من الخواطر التى تعلى من شأن اللاهوت اليهودى وإيمانه بوحدانية الله .

ويرى الصهيونى هيرزبرج أن استمساك اليهود بدينهم فى سجن بلسن كان الضمان لوحدتهم ومن ثم الضمان للتأكيد الجماعى على

هويتهم. يقول هذا الصهيونى : «الواقع أن الدين يعنى وحدة اليهود . ورغم أنى لا أمارس شعائر الدين القديم فإنى لازلت أزعم أننى أشارك فى هذه الوحدة اليهودية . وحتى يومنا الراهن نرى أن كل جماعة يهودية تنهج النهج نفسه فى اتباعها للدين اليهودى . والآن أنظر . منذ ألفى عام ودع أخوان أحدهما الآخر ، فذهب أحدهما فى طريق وذهب الآخر فى طريق آخر . ومات أحد الأخوين ثم مات الآخر ، وكذلك مات أطفالهم وأطفال أطفالهم .

وبعد تجوال لانهاية له وصلت ذرية أحدهما إلى مدينة على البحر الشمالى بمحاذاة البحر الأبيض المتوسط فى مكان ما فى الشرق وفى اليونان وطرابلس وإيطاليا ويوغسلافيا .. ليست هناك أهمية للجهات التى ذهبوا إليها . ثم جاء مجنون العالم كله أدولف ليجمعهم فى معسكرات . فماذا حدث نتيجة ذلك ، أخذوا يتحدثون بألسنة مختلفة ، ويرتدون ملابس مختلفة ويرغبون فى شىء مختلف ، ولكنهم عندما يتجهون إلى الله يصبحون متماثلين فى داخلهم وخارجهم لدرجة أنك لاتستطيع أن تفرق بين الواحد والآخر أو حتى تلاحظ وجود أى فرق» .

وفى معسكر المجريين حصلت جماعة كاستنر على امتياز خاص بنوع الطعام المقدم إليهم . فقد سمح لهم رجال الوحدة الخاصة بتناول الأطعمة التى يبيح الدين اليهودى تناولها . ويقول رودلف ليفى Rudolf Levi الحبيس فى معسكر المحايدين إن سجيناً يهودياً اسمه بوراك Burak القادم من أنتويرب فى هولندا مات من الجوع بسبب امتناعه عن تناول طعام المعسكر الذى يتنافى مع الشريعة الموسوية فى ركن منعزل من المغسلة . وهى محاولة من العسير تنفيذها كما يقول جوزيف جيدر بارسكى

Jozef jider-Barski فى اليوميات التى سطرها فى المعسكر الخاص باليهود البولنديين .

ويذكر سجين آخر فى هذا الشأن «كنت دوماً أستبعد جميع قطع اللحم من الشوربة وأعطيها للآخرين وبخاصة الأطفال الذين كانوا أصلاً فى حالة سيئة للغاية حيث إنه كان ينبغى التغاضى فى هذه الحالة عن أحكام الشرع إذا كانت صحة الإنسان معرضة للخطر . غير أنه لم يكن بإمكانى الاستغناء عن مرقة اللحم» .

والجدير بالذكر أن بعض اليهود المتدينين كانوا يقايضون على جزء من طعامهم ويستبدلونه بأنواع الطعام غير المحرمة شرعًا . ولكن يهودا آخرين رأوا فى ذلك تعصبًا وتطرفًا دينيًا ورغبة فى الشهادة لأن الشريعة الموسوية لاتلزم أتباعها بتناول الأطعمة المسموح بها شرعا إذا كان فى ذلك خطر على حياتهم .

وسمح النازيون ليهود التبادل فى معسكر بلسن بتكريم موتاهم دون بقية أرجاء هذا المعسكر ، فهم يضعون الميت فى تابوت قبل إرساله إلى المحرقة . فى حين أنهم كانوا يلقون بالموتى الآخرين عرايا فى عربة يجرها الخيل إلى المحرقة . فضلاً عن أن سلطات المعسكر سمحت لنزلاء ثكنة التبادل بتغسيل موتاهم وتكفينهم ، وهو الأمر الذى تفانوا فى أدائه وحرصوا عليه كل الحرص ولكن دفن الموتى طبقًا للشريعة الموسوية لم يكن بالأمر السهل أبداً كما يوضح لنا هرزبرج .

وقد كتب جوزيف فيس فى هذا الشأن يقول إن الموتى اليهود فى بلسن كانوا ينقلون فى نفس التوابيت إلى المحرقة فى عربة تجرها خيول ،

يتبعها مشيعون فى جنازة سارت رغم أنف الألمان الذين فشلوا فى منعها عن طريق ضرب المشيعين . ويذكر فيس أن اليهوديات الأميات القادمات من ألبانيا والعاملات فى مطابخ وحدة البوليس الخاصة كن يتوقفن عن عملهم إذا رأين جنازة يهودية قادمة من بعيد ويقفن إجلالاً وتبجيلاً حتى ينتهى مرور الموكب . ورغم تعرضهن لضرب النازيين فإنهن لم يقلعن عن ذلك . وكن هناك دائماً فى جنازة أى يهودى - حتى ولو كان قد تحول إلى الدين المسيحى - حين تقام الصلاة على الموتى .

وتدلنا بعض اليوميات التى ترجع إلى شهر أغسطس ١٩٤٤ على السخط الذى أبداه رجال وحدة البوليس الخاصة على هذه الممارسات . وتدل إحدى هذه اليوميات المؤرخة فى ٣٠ أغسطس ١٩٤٤ أن الحبر دازبرج Dasberg ومعه قلة من الناس قاموا بتكريم ميت وتوديعه حتى سور المحرقة ، فأبلغهم رجال الوحدة الخاصة بأن ذلك كان محظوراً وأمروا الحبر دازبرج بالذهاب إلى عمله .

وبعد مضى بضعة أيام كتب آبل هربزرج عن جنازة أحد اليهود فى معسكر النجمة يقول : «كان العربجى وهو رجل ضخم الجثة من رجال الوحدة الخاصة يدخن لفائف تبغ وقد ظهر عليه عدم الاكتراث الكامل بالميت، كما بدا عليه جمود المشاعر ... ولعل أثلج صدره أن يقل عدد اليهود بموت واحد منهم . وعندما رأى أن المشيعين يتباطئون فى وضع التابوت بالسرعة المطلوبة صاح فيهم قائلاً : أسرعوا ... أسرعوا أيها الخنازير . أسرعوا حتى لا أضربكم على أرادفكم فأنتم تخطئون إذا ظننتم أننا سوف نضيع اليوم كله على موتاكم . لاتخدعوا أنفسكم فالميت لايحمل رتبة جنرال» .

غير أن تكريم اليهود لموتاهم مالبث أن توقف مع بداية عام ١٩٤٥، وذلك مع الزيادة الكبيرة فى أعداد الوفيات بينهم .

سبق أن أشرنا إلى كثرة أعداد السجناء من أحبار اليهود فى معسكر برجن بلسن فقد تعمد النازيون إلقاء القبض على أكبر عدد منهم للمقايضة عليهم . وكان أحبار هذا المعسكر يختلفون فى اتجاهاتهم ومواقفهم، فمنهم من اعتنق الصهيونية مثل سيمون دازبرج القادم من هولندا ، ومنهم من كان مناوئًا للمذهب الصهيونى مثل جويل تيتلبوم Joel Teitalbaum . وكان النازيون بوجه عام لايسمحون للأحبار بتربية ذقونهم . غير أنهم سمحوا بذلك فى كوخ التبادل للأحبار المزمع تهجيرهم إلى فلسطين . تقول سارا بيركوتيز Sara Berkowitz التى تم ترحيلها من معسكر أوشويتز إلى معسكر برجن بلسن فى صيف عام ١٩٤٤ وقد اعترتها الدهشة : «فى أحد المعسكرات لم نستطع أن نصدق عيوننا . كان النزلاء يهودا أرثوذكس . وكان الرجال فيه ملتحين كما سمح للنساء أن يلبسن الباروكات ويصطحبن أطفالهن . كانت هذه أول مرة أشاهد فيها الأطفال منذ أن غادرت الجيتو . وعرفنا أنهم يهود قادمون من هولندا ، وكان من النادر جداً أن نرى اليهود ملتحين أو نرى اليهوديات يلبسن غطاء الرأس» .

يقول آبل هرزبرج فى هذا الشأن بأن النازيين كانوا لايطيقون منظر أى يهودى ملتح . وكان من عادتهم الإمعان فى تعذيب اليهود الملتحين على وجه الخصوص . فضلاً عن أن منظر الملتحى كان غريبًا حيث إن إدارة المعسكر دأبت على حلق شعر أى مسجون عن آخره .

ويقول هرزبرج فى يومياته عن الحبر اليهودى سلمان Selman : «لم يحلق الحبر سلمان لحيته . وكان الرايخ الثالث يكره اليهود ويكره أحبارهم بوجه خاص . ولهذا كان يكلفهم بأداء أعمال أشق . وكانوا يطلقون اسم الحاخام على كل ملتح . ومن ثم تعين حلق جميع الملتحين غير أن ر.سلمان رفض . ولدهشتنا استسلم رجال الوحدة الخاصة لرغبته . وعلى أية حال تم إلحاق سلمان بلحيته الطويلة بفرقة عمل شاق ... وفى إحدى الأمسيات سقط على الأرض منهاراً أثناء وقوفه بجانب البوابة كنوع من العقاب فنقلوه إلى فراشه . ونصحه كل واحد منا بحلق لحيته . وفى صبيحة اليوم التالى نهض فى الساعة الخامسة صباحاً وذهب إلى عمله وهو يصفف لحيته مكشراً» .

كان اليهود الذين يمارسون شعائرهم الدينية كل يوم فى معسكر برجن بلسن مجرد أقلية . وبوجه عام كانت هذه الشعائر تمارس على المستوى الفردى وعلى عجل حتى لايتمكن النازيون من اكتشافها .. وهكذا استطاعت ممارسة الشعائر الدينية أن تستمر . وهذا يختلف تماماً عما حدث فى الجيتو حيث استطاع اليهود ترتيب ممارسة شعائرهم على نحو مستمر .

وكما أوضح واينبرج Weinberg لم تسمح ظروف الاعتقال لليهود بممارسة شعائرهم الدينية على نحو متصل . ومن الخطل أن نعتقد أن المجتمع اليهودى فى برجن بلسن كان منسجماً أو متسقًا فى توجهاته الفكرية والعقائدية . فإلى جانب اليهود المتدينين والممارسين لشعائرهم ، اشتمل معسكر بلسن على موظفين مدنيين يهود من بروسيا وصيادين من اليونان وطلبة من المجر وشيوعيين من يوغسلافيا وصهاينة من بولندا

ويتضح من هذا أن تشكيلة اليهود المحبوسين فى بلسن كانت أبعد ماتكون عن الاتساق . كانت مجموعة متنافرة من الناحية الاجتماعية والفكرية رغم انتمائها إلى دين واحد .

ومما جعل الصلاة الجماعية فى معسكر بلسن صعبة أن العقيدة اليهودية تنص على اجتماع عشرة مصلين من الذكور حتى تكون الصلاة الجماعية سليمة من الناحية الشرعية . فى حين كان عدد اليهود الذين أقاموا الصلاة الشرعية ضئيلاً للغاية .

ورغم قلة عدد اليهود الممارسين لشعائرهم الدينية داخل المعسكر، فإن الاحتفال بالأجازات والأعياد الدينية كان حدثاً اجتماعياً ساهم فيه عدد ضخم من بنى إسرائيل . تقول مينا تومكيونيز Mina Tomkienicz فى هذا الشأن مضيفا أن اليهود إجتمعوا بأعداد كبيرة للاحتفال بيوم الغفران وهو يوم الصوم والصلاة ، وإن مثل هذه الاحتفالات العامة علمت اليهود الاحتفاظ بشجاعتهم مهما بلغت أحوالهم من سوء كما علمتهم أن مثل هذه الاحتفالات الجماعية هى جزء من الإيمان بالله .

وتركز اهتمام السجناء اليهود فى برجن بلسن على الاحتفال بعيد الفصح لأنه يمثل ذكرى تحرر بنى إسرائيل من استعباد قدماء المصريين لهم . ولاشك أن وجودهم فى معسكرات الاعتقال زاد من إحساسهم المعاصر بمرارة ذكرى هذا الاستعباد . يقول اليهود عن احتفالهم بهذه الذكرى . «هذا خبز الشفاء الذى أكله أجدادنا فى مصر ، ويمكن لكل جائع أن يأتى ويذوقه ، كما يمكن لكل محزون أى يأتى ويحتفل معنا بعيد الفصح. يحتفل معنا هنا فى هذا العام وفى إسرائيل فى العام القادم .

وهم لايزالون عبيداً هذا العام ولكنهم سوف يصبحون أحراراً فى العام القادم» .

وهكذا يتضح لنا أن اليهود يربطون عذابهم فى الماضى بعذابهم فى الحاضر وأيضاً يربطونه بأملهم فى مستقبل أكثر إشراقًا . وأيضاً تشير وثائق معسكرات الاعتقال فى عامى ١٩٤٤ و ١٩٤٥ إلى الاحتفالات التى أقامها اليهود فى هذه المعسكرات بذكرى تحررهم من قبضة قدماء المصريين .

غير أن الوثائق لاتبين بوضوح موقف السلطات النازية من هذه الاحتفالات ، يقول س. هـ . هيرمان Herrmann عام ١٩٤٤ بشأن «معسكر النجمة» ، «كان اليهود يحتفلون بعيد الفصح بطريقة تتسم بالوقار دون أى تدخل من جانب الألمان » .

«ولكننا نطالع تقريراً متناقضًا يشير إلى منع النازيين لهذه الاحتفالات . ففى أمسية احتفالهم بمناسبة دينية معروفة باسم السيدار نرى اليهود يشكون من قمع الألمان لهم . فقد جاء فى هذا التقرير مايلى : «ولكن سرعان مامنعوا احتفالنا» . ولعل هذا يدل على أن وحدة البوليس الخاصة لم تتخذ إجراءً موحداً بهذا الشأن حيث إن بعضهم أظهر تسامحًا فى حين أظهر الآخرون تشدداً ، الأمر الذى حدا باليهود إلى توخى الحذر مثلما فعل الطبيب فيليب أرونز Philip Arons عند احتفاله بأمسية سيدار فى مبنى المستشفى ، حيث توافر فيها قدر أكبر من الحرية بسبب امتناع النازيين عن دخوله خوفاً على أنفسهم من الإصابة بالأوبئة المتفشية .

واصطدم اليهود عند الاحتفال بأعيادهم ومناسباتهم الدينية بعقبة أخرى وهى كيفية الحصول على الخبز غير المخمر اللازم لاحتفالهم بعيد

الفصح طبقًا للشريعة الموسوية . يقول ج جتلر بارسكى J. gitler.Barski في اليوميات التى سطرها أثناء اعتقاله فى المعسكر الخاص بتاريخ ١ أبريل ١٩٤٤ : وضعنا الخطة للاحتفال بالسيدار فى ٨ أبريل . وتحددت أسماء المكلفين بمحاولة الحصول على الدقيق والخضراوات الطازجة (بدلاً من الشوربة) اللازمة للاحتفال ولكن النازيين اكتشفوا بعد مرور أربعة أيام تهريب عدد من بطاقات المعايدة إلى خارج المعسكر الخاص ، ففرض رجال الوحدة الخاصة عقاباً جماعياً عليهم . وكان ضمن هذا العقاب تنحية اليهودى جرو سفلد كمتحدث باسم سجناء المعسكر وكذلك حظر صنع الخبز الخالى من الخميرة والذى يستخدمه اليهود فى مناسباتهم الدينية . كما أمر النازيون جميع السجناء اليهود باستئناف أعمالهم .

ورغم هذا الحظر فقد تمكن سجناء معسكر النجمة القادمون من وستربورك من إحضار الخبز الخالى من الخميرة إلى معسكر برجن بلسن كما تمكن آخرون من صنع هذا الخبز بمساعدة جهاز طهى كهربائى قاموا بتصنيعه . ولكن كمية الخبز المصنوعة دون خميرة لم تكن كافية لجميع اليهود المحتفلين بهذه المناسبة ، الأمر الذى دفع ثلاثة أحبار كبار من معسكر النجمة إلى التصريح لليهود بتناول الخبز المخمر من منطلق أن الضرورات تبيح المحظورات .

وسطر اليهود بهذه المناسبة صلاة لتلاوتها قبل تناول هذا الخبز المخمر (الذى لايجوز شرعًا) فى عيد الفصح . تقول الصلاة التى أعدت لهذا الغرض إنه قبل تناول الخبز المخمر ينبغى على المرء أن يصلى فى تفان عميق ،: «أبانا الذى فى السموات . من الواضح أنك تعرف أننا نرغب

فى تنفيذ مشيئتك ونحتفل فى عيد الفصح بأكل الخبز الخالى من الخميرة .. ولكننا بقلوب واعية علينا أن ندرك أن العبودية التى نرسف فى أغلالها تمنعنا من ذلك ، وأن هناك خطراً يتهدد حياتنا . انظر يارب نحن على أتم استعداد لطاعة أوامرك وتنفيذ وصاياك لأنك أمرتنا أن نعيش بالوصايا التى أنزلتها علينا فى التوراة وهى وصايا تحيى ولاتميت .. ولهذا نصلى إليك أن تحفظ حياتنا وتسرع بإنقاذنا حتى نستطيع مراعاة شرعك وتنفيذ مشيئتك ونقوم على خدمتك بقلب كامل النقاء .. آمين» .

ومن الصعوبات التى واجهها اليهود فى معسكرات الاعتقال عدم توافر الكتب الدينية سواء كانت مطبوعة أو منسوخة ، الأمر الذى جعل المصلين اليهود يعتمدون فى صلواتهم على الفقرات الدينية التى يحفظونها عن ظهر قلب . وتقول كلارا أشر – بينكهوف إن اليهود الذين احتفلوا بعيد الفصح فى معسكر برجن بلسن كانوا بكل تأكيد يربطون حاضرهم بماضيهم . وفيما يلى نص ماتقوله فى هذا الشأن :

«عندما اقترب عيد الفصح (وهو عيد تحريرهم من عبوديتهم فى مصر) كنت والأطفال نعيش بين الحدوتة والحقيقة وبين التاريخ والحاضر. والواقع أن كليهما كانا شيئاً واحداً . فعندما كان اليهود يستخدمون فى جر عربات نقل السباخ الحيوانى بدلاً من الخيول ، وعندما كان الحراس يستحثونهم بالصراخ والزعيق بدوا وكأنهم يستعيدون لغة الكتاب المقدس . ولم أكن مضطراً للحديث المطول عن عبودية اليهود فى مصر . فقد كان هذا أمراً معروفاً للجميع . ولكن الحديث عن التحرير كان لايزال أمراً غير معروف . وأثناء حديثنا عنه ذات مرة دخل علينا واحد من رجال الوحدة

الخاصة فى كوخنا ، فوقفت له وقفة انتباه التى يقفها الجنود لقوادهم حتى انصرافه . ولكنه عندما وصل إلى عنبر النوم الخاص بكوخنا كان قد ابتعد عنا . وقلت وأنا لاأزال واقفة فى حالة انتباه لمن خلفى : (لاتنسوا أنه دخل علينا ونحن نتحدث عن المصريين .. وحقيقة الأمر أننا لم نكن بحاجة إلى امتلاك أية نصوص وكتب دينية) .

وعندما أصاب التدهور الشديد معسكر برجن بلسن فى مارس ١٩٤٥ وأصابت اللوثة السجناء من شدة الجوع الذى حول البعض منهم إلى أكلة لحوم البشر ، تقلص عدد اليهود المحتفلين بعيد الفصح دون أن يتلاشى . يقول سيمون جتمان Simon gutmann فى هذا الشأن :

«وصلت درجة الحرارة فى المعسكر إلى ٤٠ ثم ارتفعت إلى ٤٠,٥ حتى بلغت ٤١ . ومرت ثمانية أيام فقدنا فيها الوعى نتيجة الإصابة بحمى التيفود ، ولكنى استعدت الوعى بفضل رعاية أخى يعقوب وعنايته بى . وكان طعامنا يتكون من ثلاثة أرباع لتر من شوربة اللفت وثلاثة سنتيمترات من الخبز الذى اختفى بعد مرور أسابيع قليلة . وكان الناس من حولى - يميناً وشمالاً - يموتون من الجوع وحل موعد الاحتفال بعيد الفصح . وزارنى فى أول أمسية للاحتفال بمناسبة السيدار الدينية أخواى يعقوب وزوى نيوبرجر Zwi Neuberger ليجلسا بجوار فراشى . واستطاع البعض صنع الخبز الخالى من الخميرة حتى نستطيع إقامة الصلاة» .

هذا مايؤكده آبل هرزبرج الذى قال بإيجاز شديد : «على الرغم من كل شىء قمنا بالاحتفال بالسيدار فى الليلة الماضية .. كما استطاعوا صنع الخبز اللازم للصلاة ووزعوه علينا . وكان طعمه طيباً» .

وفى تلك الأمسية قام جوزيف فيس بزيارة عدة أكواخ فى معسكر النجمة لإلقاء كلمة قصيرة عن عيد الفصح قال فيها : «قمت فى المساء بزيارة كل الأكواخ التى تقطنها مجموعتنا . وباختصار ألقيت كلمة قريبة من الكلمة التالية :

(يقول الكتاب باستطاعة كل واحد أن يحضر ويأكل معنا ولكن العكس هو الذى يحدث اليوم . فنحن جميعاً نتضور جوعاً وليس فى مقدورنا أن نقدم إليكم شيئًا . وزادنا من الطعام يدعونا إلى الاكتئاب . ولست أستطيع تقديم أى خبز لكم . أستطيع فقط تشجيعكم بالكلمات . تحملوا حتى النهاية .. حتى آخر خمسة دقائق ولن تزيد بالفعل عن خمسة دقائق فعلى الرغم من أننا محرومون من قراءة الصحف والاستماع إلى الراديو ، إلا أننا نحس بها . فنحن ننتمى إلى يهود أوربا القلائل الذين بقوا على قيد الحياة بعد هذه الإبادة الجماعية . يجب أن نظل أحياء لأنه سوف يتعين علينا الاشتراك فى نهضة شعبنا اليهودى) .

ويرسم لنا سجين شاب صورة الوضع فى برجن بلسن آنذاك ، وهو شاب ليست لديه أية اهتمامات دينية . يقول هذا الشاب : «فى آخر مناسبة دينية (سيدار) أقيمت فى معسكر برجن فى فترة الحرب، هبط المساء ثم خيم الظلام الدامس على المعسكر . كنا نرقد فى فراشنا وكادت صفارات الإنذار ألاتنقطع محذرة من شن الغارات . وظهرت ومضة ضوء واهية ودخل جوزيف فيس الكوخ حاملاً شمعة وأخذ يتحدث بهدوء وجدية وبصوت مشحون بالعاطفة لمس شغاف قلبى . تحدث عن الفرج القريب والتحرير القادم واستمع إليه كل واحد وهو يحبس أنفاسه» .

وهكذا تغير سياق الاحتفال بعيد الفصح تغيراً جذرياً ، وإقترن الماضى بالحاضر عندما لاح فى الأفق بصيص من الأمل فى الحصول على الحرية .

وأيضاً تحدثنا الوثائق عن احتفال اليهود فى بلسن بأعياد يهودية أخرى .. فمن أجل الاحتفال بالتوراة سيمنات Simnat Torah قام فريق سجناء كاستنر بوضع لفائف التوراة الجلدية فى شباك أحد الأكواخ كى يمر أمامها طابور من الأطفال يلوحون بأعلام صغيرة صنعوها بأيديهم. وهناك تقارير مشابهة عن المعسكر الخاص . ورغم أن جويل تيتليوم كان يناصب الصهيونية فإنه إحتفل بالأعياد اليهودية فى معسكر بلسن على نحو مشحون بالعواطف .

وأيضاً يقول هيرمان أن أحد الأحبار احتفل بالتوراة بأن أمسك بلفافة مدون عليها آيات التوراة وأخذ يرقص فى كل أرجاء المعسكر بطريقة تنم عن الإنتشاء العظيم . وقد ورد فى وثيقة يرجع تاريخها إلى عام ١٩٤٤ مايلى : «نشهد نحن الموقعين آدناه بأننا اخترنا ريب إليزر Reb Elieser ابن ريب بورى دى باوول Reb uri de Pauul عريسا للتوراه فى الكوخ رقم ١٧ فى معسكر برجن بلسن بينما كنا سجناء فى هذا المعسكر .

وكانت هذه الاحتفالات الدينية بمثابة مقدمة أو نقطة انطلاق لنشاط ثقافى أوسع . فعلى سبيل المثال نظم شوفوت Shavuot قصيدة غير دينية وألقاها فى جمع من اليهود الحاضرين . فضلاً عن أن تشانوكا Channuk-ka ألفت سلسلة من المحاضرات الثقافية والتاريخية . وكذلك اجتمع كل من تشانوكا ومارجوت وآن فرانك بعدد من الفتيات لغناء بعض الأهازيج والأغنيات الهولندية وأغنيات البيديش .

واللافت للنظر أن هذه الوثائق تذكر الدور المهم الذى لعبه الأطفال فى الاحتفال بالمناسبات والأعياد الدينية .

ويشير آبل هرزبرج فى يومياته بتاريخ ١٠ أكتوبر ١٩٤٤ إلى انخراط اليهود فى الرقص رغم ضيق المكان فى الكوخ رقم ١٥ . وهو رقص اشترك فيه اليهود المتدينون القادمون من شمال أفريقيا . ويذكر هرزبرج أن اليهود الألبان القادمين من منطقة البلقان كانوا أكثر اندماجاً فى مجتمعاتهم الأصلية فى بلاد المهجر عن يهود شمال أفريقيا فقد تحول عدد كبير من هؤلاء اليهود الألبان إلى الكاثوليكية اليونانية بعد تعميدهم .

وفى بعض الأحيان القليلة كان رجال الوحدة الخاصة يساعدون السجناء على حصول المحتفلين فى المعسكر الخاص على كتب الصلاة، يحضرونها لهم من معسكر المجريين . ولكنهم كانوا فى الغالب الأعم يميلون إلى السادية والعدوانية فى معاملتهم لليهود المحتلفين بأعيادهم الدينية . يقول أوسكار دافيد برج Oscar David Berg عن سوء معاملة النازى كريس Chris لليهود المحتفلين بعيد الغفران :

«مما لاريب فيه أنه كان شخصية سادية بمعنى الكلمة .. كان يصيح فى الصباح : .. هذا يوم الغفران .. يوم الصوم فمن منكم صائم . ورفع نحو خمسة عشر أو عشرة أشخاص أياديهم للدلالة على صيامهم . فما كان منه إلا أن قال : (يعفى غير الصائمين من العمل فى حين يذهب الصائمون إلى أعمالهم) .. وهكذا أجهدنا أنفسنا فى العمل الشاق فى المطبخ من الساعة الثالثة فجراً حتى الساعة العاشرة ليلاً دون راحة . وفى منتصف النهار جاء إلينا كريس بقطعة من لحم الخنزير . فرفضت أكلها وصممت على ذلك» .

غير أن النازيين تصرفوا على نحو مختلف مع السجناء اليهود بمناسبة الاحتفال بالكريسماس فى عام ١٩٤٤ حيث إنهم أعطوهم طعامًا أفضل من الطعام المعتاد .

والواقع أن أسلوب معاملة السلطات النازية لليهود المحتفلين بأعيادهم الدينية كان متفاوتاً . فهناك وثائق تدل على سوء معاملتها لهم وأخرى تدل على حسن معاملتها لهم فى تلك المناسبات . تقول إحدى الوثائق الدالة على سوء معاملة النازيين لليهود فى عيد الغفران :

«كانت كل الشعائر الدينية اليهودية فى المعسكر محظورة بأمر من رجال وحدة البوليس الخاصة ، بما فى ذلك الاحتفال بيوم الغفران . ونجم عن هذا الحظر لجوء اليهود إلى ممارسة شعائرهم الدينية فى كل كوخ رغم تكليفهم بالعمل فى ذلك اليوم ، ورغم تكرار وقوفهم فى طوابير النداء لفترات طويلة دون الاكتراث بصفارات الإنذار التى تحذر من الغارات الجوية ودون اكتراث بالأمطار الهاطلة بغزارة . وكان فى استطاعتنا أن نتقابل قبل بدء العمل أى قبل حلول السادسة صباحًا . وحتى الذين ظلوا داخل المعسكر تقابلوا بين فترات النداء على الطوابير ، وبعد الساعة السادسة مساءً عند عودة فرق العمل من خارج المعسكر . وبذلك كانت هناك فرصة لإقامة الصلاة الأخيرة .. فى حنين وشوق إلى الله» .

هذه هى صورة المعسكر فى يوم الغفران كما رسمها هرزبرج . غير أن بعض السجناء رسموا لنا صورة ليوم الغفران تختلف تماماً عن الصورة السابقة ، فهى تصور انشغال اليهود عن يوم الغفران بالطعام والشراب ، الأمر الذى يدل على أن الجوع كافر وأن البقاء على قيد الحياة أقوى من سائر المبادئ الأخلاقية .

وربما لايوجد أى تناقض بين هاتين الصورتين المتضاربتين وأنهما فى نهاية الأمر تكملان بعضهما البعض .

والثابت على أية حال أن السجناء اليهود لم يكن لديهم وقت أو جهد للدخول فى مناقشات لاهوتية لأن شاغلهم الوحيد كان البقاء على قيد الحياة . ومع ذلك فقد ألح عليهم هذا السؤال الذى ليست له إجابة . لماذا يسمح الله بمكابدتهم لكل هذا العذاب . وإذا كان الله قد وعدهم بيوم الخلاص فكيف يمكن لهذا الوعد أن يتحقق بعد إبادتهم عن بكرة أبيهم .

وذهب اليهود فى تفسير عذابهم إلى كل مذهب فمنهم من رأى فى كتابهم المقدس تجسيداً للعذاب وتبشيراً لهم به . ومنهم من رأى فى العذاب نوعا من الكفارة عما ارتكبه بنو إسرائيل من ذنوب وخطايا ومنهم من رأى أن انفراد شعب الله المختار الحقيقى يكمن فى شدة العذاب المكتوب على جبينهم .

وحتى تدرك الدور الذى لعبه معسكر برجن بلسن فى إشعال جذوة الشعور الدينى والقومى لدى اليهود وأمل سجناء معسكر التبادل فى إقامة وطن فى فلسطين ، نسوق الفقرة التالية التى سطرها أبل هرزبرج فى يومياته عند زيارته لرواد فلسطين الأوائل . يقول هرزبرج :

«كانت نفس الصلوات ونفس الأناشيد تتلى . ولكن الدين بأكمله كان يمارس فى إطار قومى يهدف إلى تحويل حلم العودة إلى فلسطين إلى واقع . وفى تناغم جامح وبعاطفة متأججة تغنوا بصلوات من أجل إعادة بناء أورشليم . ومرة أخرى كما يحدث دائمًا فى التاريخ اليهودى نرى تعانق الدين والقومية واندماجهما اندماجًا كاملاً لايسمح بفصل أحدهما عن الآخر» .

الفصل الرابع

تحرير معسكر برجن بلسن

مقدمة :

سوف نتناول فى هذا الفصل المطول تحرير معسكر برجن بلسن ، فنقول إن الحلفاء وبالذات الجيش البريطانى تسلموا فى يوم ١٢ أبريل ١٩٤٥ عرضاً من القيادة الألمانية بعقد هدنة بهدف منع سجناء بلسن المرضى بالتيفوس من التجوال فى ربوع الريف ودرءاً لإنتشار العدوى فى كل مكان. وفى حالة قبول الحلفاء لهذه الهدنة ووقف القتال حول بلسن ، تعهد الألمان بالانسحاب من جسر آخر على نهر ألر Aller .

وبعد تفاوض الحلفاء مع ضابطين ألمانيين وضع الجنود البريطانيون عصابة على عيونهما وأرسلوهما إلى مقر القيادة رقم ٨ للجيش البريطانى . واستجابت القيادة البريطانية لهذا العرض لأنها خشيت بالفعل من انتشار وباء التيفوس . واتفقت القيادة البريطانية مع المسئولين عن معسكر بلسن على اعتبار هذا المعسكر وماحوله منطقة محايدة لايجوز إطلاق الرصاص فيها . وأيضاً اتفق البريطانيون على وضع فرقة من المشاة الألمان والمجريين مكونة من حوالى ألفى مجند فى محيط المعسكر لحراسته ومنع سجنائه من الخروج منه . وطلب البريطانيون من الجانب الألمانى أن يقوم فريق من رجال الوحدة الخاصة مكون من نحو خمسين فرداً بتسليم المعسكر إليهم ، وأن يتم انسحاب

الألمان منه فى الساعة العاشرة من صباح اليوم التالى :

وفى يوم ١٣ أبريل ١٩٤٥ عينت القيادة البريطانية القوة اللازمة لدخول معسكر برجن بلسن . فى حين عقد الجهاز الطبى التابع للقوات البريطانية مؤتمراً تمهيدياً على عجل لدراسة أوضاع هذا المعسكر الصحية. ورغم هذه الهدنة فقد أظهر الجيش الألمانى مقاومة عنيفة فى المناطق المحيطة بمعسكر بلسن . ولم تتمكن الدبابات البريطانية من اقتحام هذا المعسكر إلا فى صبيحة يوم الأحد الموافق ١٥ أبريل ١٩٤٥ . وعند اقترابها من أسلاك المعسكر الشائكة توقفت الدبابات البريطانية لالتقاط أنفاسها قبل دخوله .

لم تكن القوات البريطانية تعلم شيئًا عن وجود معسكر برجن بلسن بالقرب منها إلا فى الأسبوع الثانى من شهر أبريل ١٩٤٥ ، عندما سرت بين المراسلين الحربيين الملحقين بالجيش البريطانى إشاعة بوجوده وأن النازيين بصدد تسليمه . وظن هؤلاء المراسلون الحربيون أن هذا المعتقل لايختلف فى شىء عن بقية المعتقلات النازية فلم يعن واحد منهم بمتابعة هذا الموضوع إلا صحفى واحد اسمه ريتشارد ديمبلبى Richard Dimble-by يعمل فى محطة الإذاعة البريطانية ذهب بنفسه لمتابعة أخباره، ووصف هذا الصحفى هول مارآه داخل المعسكر . رأى أكوامًا من الجثث وأكواخًا مليئة بالسجناء الذين يتضورون جوعًا . ويروى لنا هذا المراسل كيف أنه كان يخطو على جثث الموتى فى الظلام المخيم ، واستوقفه أنين ينبعث من كومة .

يقول ريتشارد ديمبلبى فى هذا الشأن :

«رأيت فتاة كانت عبارة عن هيكل عظمى يستحيل اكتشاف عمرها. فقد كان رأسها يخلو من الشعر تمامًا كما كان وجهها تعلوه صفرة الموت

مثل جلدة صفراء فيها ثقبان تملأهما مقلتا عينيها . وبدا ذراع هذه الفتاة كعصا تمتد وهى تتفوه ببعض الكلمات بينما صدرها يعلو وينخفض : (أيها الإنجليز أعطونى دواء) . كانت تحاول رفع صوتها . لكنها لم تقو على ذلك» .

كانت هذه الفتاة إحدى الناجيات من الموت فى معسكر برجن بلسن الذى اكتسب سمعة أشد ماتكون سوءاً . واحتوى المعسكر آنذاك على ٦٠ ألف سجين نصفهم من اليهود الناجين من المحرقة . وكان هؤلاء البؤساء يتوسلون إلى البريطانيين كى يمدوا يد المساعدة إليهم .

والجدير بالذكر أن فريقًا طبيًا بريطانيًا مكوناً من ستة وتسعين متطوعًا جاء من لندن إلى بلسن لإنقاذ السجناء . وكان من المعتقد أن خدماتهم الطبية جليلة وتستحق الثناء . غير أن المؤرخين أعادوا تقييم أداء هذه الفرقة الطبية فى العقد التاسع من القرن العشرين ووصلوا إلى نتيجة مفادها أن هذه الفرقة لم تكن مزودة بأية أدوات جراحية أو أجهزة طبية أو حتى أدوية وعقاقير مخدرة ، إذ لم يكن بحوزتها غير الأسبرين والأفيون. وليس أدل على ذلك من أن نحو ١٤ ألف سجين وسجينة فى معسكر برجن بلسن توفوا بعد تحريره على أيدى البريطانيين .

ولهذا نرى أن اليهود يتهمون بريطانيا بالإهمال والتقاعس عن إنقاذ سجناء بلسن من الموت . وهاجم بعض الأحبار قصور القوات البريطانية فى هذا الشأن فى مؤتمر عن الهولوكست ، عقدته الولايات المتحدة عام ٢٠٠٠ . وذكر الحبر اليهودى إرفنج جرينبرج Irving greanberg أن تعاملات الجيش البريطانى مع سجناء بلسن تدل على جهل مطبق

باحتياجاتهم الطبية ، وعلى إخفاقهم فى وضع خطة ناجحة لإنقاذ السجناء اليهود من الموت . يقول الحبر جرينبرج فى هذا الصدد «صحيح أن القتل الجماعى المنظم توقف ولكن موت السجناء لم يتوقف» .

وعلى أية حال ليس من السهل معرفة مدى مسئولية القوات البريطانية عن ارتفاع معدلات الوفيات فى برجن بلسن .

ومنذ نحو ستين عامًا مضت ، ألف جندى بريطانى اسمه ديريك سنجتون Derrick Sington – وهو من أوائل الذين دخلوا معسكر بلسن – كتاباً بعنوان «كشف الغطاء عن بلسن» يقول فيه : «سيأتى فى يوم من الأيام إنسان ليخبرنا بالمشكلة الطبية الضخمة التى كانت موجودة فى بلسن» . وبالفعل توافر فريق من المتخصصين فيما بعد على دراسة الموقف الطبى فى بلسن. ويضم هذا الفريق أطباء متخصصين أمثال إ. إ. فيلا E.E. Vella وبول كمب Paul Kemp وجوان ريلى Joanne Reilly وايلى تريبمان Elly Trepman . غير أن هذا الفريق لم ينشر النتائج التى توصل إليها . ورغم هذا التكتم من جانب المتخصصين ، فقد ظهر مؤخراً عدد كبير من اليوميات والخطابات التى سطرها ممرضون وممرضات وأطباء وجنود وعمال إغاثة دفعتهم فظاعة ماشاهدوا إلى تسجيلها . وظلت هذه الرسائل واليوميات خافية أثناء حياتهم ، ولم تظهر إلا بعد وفاتهم فى عقد التسعينيات من القرن العشرين .

وفى منتصف التسعينيات من القرن العشرين شكت المؤرخة جوان ويلى من أن غالبية من كتبوا فى هذا الموضوع من الرجال وليسوا من النساء . وهو مايدحضه بعض الباحثين قائلين إن عدداً لابأس به من النساء

إنبرى للكتابة عن معسكر بلسن مثل جين ماك فارلين Jene McFarlane وايفى باركر Effie Barker ومولى سيلفا جونز Molly Sylva Jones وميوريل بلاكمان Muriel Blackman وجين ليفرسون Jane Leverson. ومع ذلك يظل عدد الرجال الذين تناولوا هذا الموضوع يفوق بكثير عدد النساء المعنيات بهذا الأمر .

وفى الشهور الأربعة الأخيرة التى سبقت نهاية الحرب العالمية الثانية سعى هملر (من وراء ظهر هتلر) عندما رأى رجحان كفة الحلفاء إلى التفاوض على اطلاق سراح سجناء بلسن . ورغم هذا فقط احتفظ بولائه لهتلر . قابل هملر خلال الأربعة شهور الأخيرة من الحرب نائب رئيس الصليب الأحمر السويدى وابن عم ملك السويد الكونت فولك برنادوت Folke Bernadotte أربع مرات ، كما أنه التقى سراً فى برلين بممثل المؤتمر العالمى اليهودى . ومن المؤسف أن هملر لم يترك وراءه أية وثائق خاصة بهذه المقابلات .

يقول كيرستن Kersten إنه قام فى ٥ مارس ١٩٤٥ بإبلاغ هملر بانتشار وباء التيفوس فى معسكر بلسن . ويبدو أن هملر لم يكن يدرك مدى تردى الأوضاع الصحية فى هذا المعسكر . ويضيف كيرستن أنه أفهم هملر أنه إذا لم يفعل شيئًا لوقف هذا التردى ومنع وباء التيفوس من الانتشار فسوف تصبح ألمانيا بأكملها فى خطر داهم . ودعا هذا التحذير هملر إلى اتخاذ كافة الإجراءات الفورية للحيلولة دون تفاقم المرض .

وفى ٢ أبريل ١٩٤٥ التقى هملر للمرة الثانية فى برلين بالكونت فولك برنادوت فى برلين . وكان هذا الكونت يتفاوض نيابة عن الحكومة

السويدية من أجل إطلاق سراح السجناء السويديين الموجودين فى معسكرات الاعتقال . وذكر هملر لمفاوضيه أنه لاينبغى إجلاء اليهود من معسكرات الاعتقال الألمانية، بل إنه يحبذ تسليمها كما هى إلى قيادة الحلفاء.

وفى ٦ أبريل ١٩٤٥ ، قام هملر بتعيين كيرت بيخر Kurt Becher قوميسار الرايخ الخاص بشئون جميع السجناء اليهود والسياسيين حتى يتولى حل المشكلات الصحية الكأداء ومشكلات الإسكان التى تجابه نزلاء معسكر بلسن . وقرر بيخر على الفور زيارة جميع معسكرات الاعتقال للتفتيش عليها ، ووصل إلى بلسن فى وقت متأخر من بعد ظهر يوم ١٠ أبريل ١٩٤٥ . وعند وصوله هناك أبلغه كرامر قائد هذا المعسكر خطورة الموقف وأن ألف سجين فى بلسن مصابون بالتيفوس ، وأن الخبز لم يوزع على السجناء لمدة أسبوعين كاملين ، وأن مخزون البطاطس واللفت واللحم فى المعسكر يكفى لثمانية أيام فقط ، وأن مابين خمسمائة وستمائة سجين يموتون كل يوم .

واتفق بيخر وكرامر على ضرورة تسليم المعسكر للجيش البريطانى، وفى صبيحة اليوم التالى حصل بيخر على موافقة هملر بتنفيذ عملية التسليم فوراً . وفى صباح يوم ١٢ أبريل ١٩٤٥ قام العقيد الألمانى شميدت Schmidt والمقدم بوهنكامب Bohnekamp برفقة مترجم بركوب سيارة ترفع علم الاستسلام الأبيض وتتجه إلى خطوط القتال البريطانية .

وبعد مضى ثلاثة أيام وفى يوم ١٥ أبريل على وجه التحديد استيقظت السجينة كلارا جرينبوم وإبنتها مبكراً كالعادة للذهاب إلى العمل .

ولكن الكابو (أو السجين المشرف على المعسكر) لم يظهر فى المعسكر فاستمرت كلارا وابنتها فى النوم . ثم سمع السجناء هدير الدبابات البريطانية أثناء اقترابها من المعسكر .

عندما التقى هنريش هملر الفوهور فى مخبأ تحت الأرض فى بروسيا الشرقية يوم ١٠ ديسمبر ١٩٤٢ عرض هملر عليه فكرة إنشاء معسكر برجن بلسن . وجاء اجتماعهما فى وقت توالت فيه الهزائم على القوات النازية ، فقد شن السوفيت هجوماً عنيفاً مضاداً لفك حصار الجيش الألمانى عن ستالنجراد . فضلاً عن أنه لم يمر سوى أسبوع واحد حتى لحقت بالجيش الألمانى هزيمة نكراء على يد القوات البريطانية والأمريكية فى العلمين فى الصحراء المصرية الغربية . وبات من الواضح أن قوات المحور فى سبيلها إلى الهزيمة . ورغم الهزائم الألمانية المتتالية وانشغال هتلر بإرسال تعزيزات لصد الهجوم الروسى العنيف لتخليص ستالنجراد من قبضة الألمان وتعزيزات أخرى إلى روميل فى الصحراء الغربية ورفع روح الجيش الإيطالى المنهار ، فقد كان لديه وقت لمقابلة هملر والاستماع إلى اقتراحه بشأن معسكر بلسن . والجدير بالذكر أن هزائم هتلر المتوالية زادت من إصراره غير المعلن على إبادة اليهود ، وأثلج صدره أن يعلم من هملر أن إبادة اليهود الجماعية تسير على قدم وساق .

وحتى أواخر عام ١٩٤٠ لم تكن لدى ألمانيا النازية أية سياسة ثابتة أو واضحة بخصوص كيفية التخلص من يهود أوربا . وكان أمام النازيين عدد من الخيارات المفتوحة منها ترحيلهم إلى جزيرة مدغشقر . غير أن هيمنة الأسطول البريطانى على البحار حالت دون إرسالهم إلى هناك .

وعندما غزا الجيش الألمانى روسيا السوفيتية فى يونية عام ١٩٤١ فكر فى التخلص من يهود أوربا الشرقية بنفيهم إلى مجاهل الاستبس الروسية المترامية الأطراف والخالية من الزرع والضرع حيث يهلكون من الجوع والصقيع والعمل المضنى . ورغم أن هذه الفكرة أيضاً لم تنفذ بسبب دفاع السوفيت المستميت عن أراضيهم ودحرهم للقوات النازية الغازية ، فإن النازيين لم يتورعوا عن قتل آلاف اليهود والشيوعيين فى جميع بلاد أوربا الشرقية التى استطاعوا إحتلالها . ففى ١٥ أغسطس ١٩٤١ أشرف هملر فى مدينة منسك فى أوكرانيا على عملية إعدام جماعى لليهود . غير أن أسلوب قتلهم رمياً بالرصاص لم يرق له ، الأمر الذى دعاه إلى تطوير تكنولوجيا الموت باستخدام الغازات السامة وكذلك تطوير نهج القتل الرحيم الذى سبق للنازيين استحداثه للتخلص من سبعين ألف ألمانى من المعتوهين والمصابين بالأمراض العقلية .

وفى نوفمبر ١٩٤١ أرسل النازيون بعثات تدريب على القتل الجماعى عن طريق استخدام الغاز السام إلى معسكر بلزيك Belzec فى بولندا . وبحلول ربيع عام ١٩٤٢ تم تركيب مصنعين لإنتاج الغازات السامة فى معسكرى صوبيبور Sobibor وتريبلينكا Treblinka وأمام هذا التعطش النازى لإبادة يهود أوربا عن بكرة أبيهم ، بدت فكرة إقامة معسكر تبادل أو مقايضة فى برجن بلسن مستغربة . ويبدو أن الدافع الحقيقى كان الرغبة فى الابتزاز .

يقول هملر فى هذا الشأن : «طلبت من الفوهور الموافقة على تهجير اليهود إلى الخارج لقاء فدية ، وخولنى سلطة كاملة للموافقة على مثل هذه الحالات إذا كانت ستأتى بعملات أجنبية بكميات هائلة من الخارج» .

وتجلى الدافع نفسه إلى الابتزاز فى عدم قتل بعض اليهود الأصحاء وتسخيرهم للعمل فى مصانع الإنتاج الحربى .

وفى أواخر ديسمبر ١٩٤٢ أمر هملر رئيس الجستابو هنريش مولر بعزل اليهود الأثرياء والمرموقين فى معسكر خاص للمقايضة . وفى ربيع ١٩٤٣ تم اتخاذ إجراءات أخرى . وألح رجال وحدة البوليس الخاصة على القوات المسلحة أن تخصص لهذا الغرض جزءاً من معسكر السجناء بالقرب من سيل Celle فى ألمانيا الشمالية وتعيين الملازم أدولف هاس قائداً على الجزء المقتطع من المعسكر . وقد أعلنت السلطات النازية افتتاح معسكر بلسن فى ١٠ مايو ١٩٤٣ كمعسكر احتجاز مدنى على نحو ما أسلفنا . وقد بدأ النزلاء اليهود يصلون إلى هذا المعسكر فى منتصف يولية ١٩٤٣ . وظن النازيون أنهم سوف يضعون مابين عشرة آلاف وثلاثين ألف رهينة يهودية فى هذا المعسكر ، غير أن العدد المبدئى الفعلى لم يتجاوز سبعة آلاف رهينة من أصحاب الجنسيات المزدوجة ممن لديهم شهادات فلسطينية أو وثائق تسمح لهم بالهجرة إلى فلسطين .

وبعد مضى أسبوع واحد على لقاء هتلر وهملر ، الذى تقرر فيه إقامة معسكر بلسن ألقى أنتونى وإيدن زير الخارجية البريطانية بياناً فى مجلس العموم البريطانى بتاريخ ١٧ ديسمبر ١٩٤٢ جاء فيه أنه تلقى معلومات من مصادر بولندية مفادها أن هتلر عازم على إبادة يهود أوربا . وبعد استشارته بقية الحلفاء فى هذا الشأن ، أدلى فى البرلمان البريطانى بالبيان التالى :

«تقوم ألمانيا بترحيل اليهود من سائر الدول التى تحتلها فى ظروف أشد ماتكون فظاعة وبشاعة ووحشية إلى أوربا الشرقية وبولندا التى أصبحت

كبرى المجازر النازية . وتولى المحتلون الألمان على نحو منظم إجلاء كل اليهود الذين يقطنون الجيتو الذى خصصه الألمان لإيوائهم . ولم يبق فى الجيتو إلا قليل من العمال المهرة لاستخدامهم فى الصناعات الحربية . واختفى هؤلاء المرحلون دون أن يسمع أحد عنهم أى شىء . وكان الأصحاء منهم يؤدون الأعمال الشاقة التى تفضى إلى موتهم البطئ فى معسكرات الاعتقال . أما المرضى فكانوا يتركون كى يموتوا من تعرضهم لقسوة الطقس والتضور جوعاً ، أو كانت تنفذ فيهم أحكام الإعدام الجماعية عن عمد وترصد . وبلغت أعداد ضحايا هذه المجازر الوحشية عدة مئات الآلاف من الكبار والصغار» .

ومضى أنتونى إيدن يقول إن حكومات الحلفاء أدانت بأقوى العبارات السياسة الوحشية التى تنتهجها ألمانيا النازية للقضاء المبرم على اليهود بدم بارد ، الأمر الذى يحتم على الحلفاء الإطاحة بهتلر ونظامه . وتوعد إيدن النازيين الذين ارتكبوا هذه الجرائم بالعقاب الشديد . وقد رحب بهذا البيان – أمام البرلمان البريطانى أحد أثرياء اليهود – وهو جيمس روتشيلد James de Rothchild عضو البرلمان عن حزب الأحرار قائلاً إن هذا البيان من شأنه تعزيز مكانة رعايا حكومة جلالة الملك اليهود ليس فى بريطانيا وحدها بل فى جميع أرجاء الإمبراطورية البريطانية . وناشد روتشيلد محطة الإذاعة البريطانية أن تذيع خطابه على أوسع نطاق ممكن حتى يشعر اليهود بالأمل فى الخلاص من نير العبودية النازية ، وأن الحلفاء يقفون بجانبهم ويشدون أزرهم . وبالفعل استجاب إيدن واستجابت محطة الإذاعة البريطانية لطلبه فأكدا للنازيين أن هذه ليست حرباً بل عمليات قتل متعمدة وبربرية تدعو إلى الاشمئزاز . واستقبل أعضاء البرلمان البريطانى

وعيد إيدن وتهديده للنظام النازى بالتهليل لدرجة أنهم وقفوا دقيقة من صمت حداداً على ضحايا النازية . وحتى ندرك ماتركته كلمات إيدن من أثر فى نفوس أعضاء البرلمان البريطانى نقتطف من يومياته الفقرة التالية : «قال لى لويد جورج فيما بعد (لاأتذكر منظراً كهذا فى جميع سنوات عضويتى فى البرلمان) » .

ولكن الدراسات التاريخية التى أجريت مؤخراً تشير إلى أن الحكومة البريطانية لم تفعل الكثير لإنقاذ اليهود من محنتهم فى معسكر برجن بلسن لأنها لم تعتبر هذا أولوية . وعندما عَنّ لبعض أعضاء مجلس العموم أن يسألوا إيدن عن الإجراءات التى ينوى اتخاذها للتخفيف من ويلات وبلاوى اليهود الرازحين تحت نير النازية ، جاءت إجاباته زئبقية وغير محددة مثل قوله بوجود عقبات تحول دون ذلك .

ومنذ أوائل سبتمبر نما إلى علم أجهزة مخابرات الحلفاء مايجرى لليهود من قتل جماعى . ولكن هذه الأجهزة آثرت عدم الكشف عن هذه المعلومات كى تحمى المصادر التى أبلغتها بها فظلت هذه المعلومات فى طى الكتمان حتى أواخر عام ١٩٤٢ . ويبدو أن تشرشل أظهر تعاطفاً مع اليهود أكثر من التعاطف الذى أظهره إيدن نحوهم . ويبدو كذلك أن وزارة الخارجية الأمريكية كانت تشارك إيدن عدم اكتراثه بمصير اليهود رغم أنها عقدت فى أبريل ١٩٤٣ مؤتمراً فى برمودا حول محنة اليهود الذين يسومهم النظام النازى ألواناً من العذاب .

ولكن واشنطن غيرت موقفها السلبى من هؤلاء اليهود فى أوائل ١٩٤٤ عندما استجاب الرئيس الأمريكى روزفلت تحت ضغط اللوبى

اليهودى لمحنة اليهود فى ألمانيا النازية . ففى ذلك الوقت أنشأ الأمريكان هيئة لاجئى الحرب لتقديم الغوث إلى اللاجئين اليهود . وقد تبرع اليهود الأمريكان إلى هذه الهيئة بمبلغ عشرين مليون دولار . وإستطاعت هذه الهيئة أن تساعد رجل الأعمال اليهودى السويدى راؤول والنبرج Raoul Wallenberg فى محنته وآخرين من بنى جلدته . وعلى أية حال عبر روزفلت عن اقتناعه بأن خير وسيلة لمساعدة اليهود هو الانتصار على هتلر فى أسرع وقت ممكن بتحرير أوربا المحتلة من براثن النازية .

ذكرنا فيما سبق أن النازيين خصصوا قطاعًا فى معسكر برجن بلسن أسموه معسكر فلسطين ، للمقايضة على اليهود الأثرياء والمرموقين وتهجيرهم إلى فلسطين نظير إطلاق سراح بعض الألمان الذين يعيشون هناك . غير أن سياسة المقايضة لم يكتب لها النجاح حيث أن عدد اليهود الذين تم ترحيلهم بالفعل إلى فلسطين مقابل مقايضتهم برعايا ألمان كان ضئيلاً حيث إن النازيين أجهزوا على معظم السجناء اليهود فى معسكر فلسطين .

كانت بريطانيا وأمريكا تعلمان بوجود معسكر اعتقال برجن – بلسن غير أنهما لم يعرفا موقع هذا المعسكر على وجه التحديد . وعلى أية حال عبرت وزارة الخارجية البريطانية فى ١٤ يولية ١٩٤٤ عن رغبتها فى معرفة المزيد من المعلومات عن هذا المعسكر . والجدير بالذكر أن وزارة الخارجية البريطانية استقت معلومات عن معسكر بلسن على جانب عظيم من الصحة والمصداقية من سفارات بريطانيا فى كل من لشبونة وبيرن والمؤسسات الخيرية اليهودية .

وفى أواخر عام ١٩٤٤ عبر الديبلوماسيون البريطانيون عن قلقهم حول مصير رعايا بريطانيا فى هذا المعسكر ممن يحملون الجنسية البريطانية والهولندية فى الوقت نفسه ، الأمر الذى دفع الحكومة البريطانية إلى أن تطلب من السفارة السويسرية فى برلين التى ترعى المصالح البريطانية فى ألمانيا التدخل لدى الألمان للسماح للبريطانيين بزيارة هذا المعسكر وخاصة لأن ألمانيا رفضت طلبًا للصليب الأحمر بزيارته . وفى نهاية شهر فبراير ١٩٤٥ وافقت وزارة الخارجية الألمانية على طلب بريطانيا وأضافت أنه يمكن للبريطانيين القيام برحلة تفتيشية فى غضون نحو ستة أسابيع أى فى منتصف أبريل ١٩٤٥ تقريباً . وبحلول أوائل أبريل من العام المذكور اتضحت فى أذهان المسئولين البريطانيين صورة الفظاعات التى تجرى داخل المعسكر . ففى ١٩ مارس (١٩٤٥) قام مكتب الأمن فى ميناء ليفربول بإجراء مقابلة مع يهودى اسمه الدكتور رودلف ليفى Rudolph Levy الذى أقلته سفينة من برجن بلسن إلى هذا الميناء .

كان الدكتور ليفى يحمل الجنسية التركية وتم إطلاق سراحه مع مائة وأربعة معتقلين آخرين يوم ٤ مارس ١٩٤٥ . وتم ترحيله على ظهر سفينة سويدية متجهة إلى إسطنبول عن طريق ليفربول . وقد أدلى هذا اليهودى بمعلومات مهمة وحديثة عن هذا المعسكر وقيادة كرامر له فى عام ١٩٤٤ . كما أشار إلى الزحام الشديد داخل هذا المعسكر نتيجة ترحيل أفواج عديدة من سجناء معسكرات الاعتقال فى شرق أوربا إليه ، مما أدى إلى انتشار وباء التيفوس .

ووصل التقرير الذى سطره الدكتور ليفى فى ٢ أبريل ١٩٤٥ إلى قسم سجناء الحرب التابع لوزارة الخارجية البريطانية . ومعنى ذلك أن

البريطانيين كانوا على علم بما يجرى فى معسكر بلسن قبل أن يعرض الألمان عقد الهدنة معهم بعشرة أيام . ولكن البريطانيين لم يكونوا على معرفة بمكان المعسكر على وجه الدقة . وبطبيعة الحال تحرت وزارة الخارجية البريطانية عن الرعايا البريطانيين المحبوسين فى برجن بلسن . وعندما وصل الجيش البريطانى الزاحف إلى هذا المعسكر لم تكن لديه أية خطة عمل للتعامل معه .

برجن بلسن يتنسم نسيم الحرية (١٢ أبريل - ١٦ أبريل ١٩٤٥) :

فى يوم ١٢ أبريل ١٩٤٥ سمع الضابط ديريك سنجتون عن معسكر اعتقال برجن بلسن لأول مرة فى حياته . وكان آنذاك يقف فى الخارج أمام مقر قيادة الجيش البريطانى على الطريق إلى وينسن Winsan فى شمال ألمانيا . وجاءه ضابط زميل له ليشرح له أن الألمان يعرضون عقد هدنة ، حتى يمكن القضاء على وباء التيفوس الذى تفشى فى بلسن . واستغرب جميع الحاضرين من هذا العرض المفاجئ . وانشغل سنجتون عن هذا الموضوع بسبب انخراطه فى أعمال قتالية ضد القوات النازية على مقربة من معسكر بلسن لمدة ستة وثلاثين ساعة ؛ حيث إن طابور الدبابات الذى يقوده تعرض إلى كمين نصبه الألمان له .

وبمجرد عودة سنجتون من أعماله القتالية إلى مقر القيادة البريطانية مساء يوم ١٤ أبريل تلقى أمراً بالتوجه فوراً ومعه مكبر صوت إلى معسكر بلسن . وأصدر سنجتون أمراً إلى مدرعة مكبرات الصوت بالتحرك إلى هناك بصحبة ثلاثة جاويشات يتقنون عدة لغات أوربية بهدف شن حرب نفسية على الألمان . كان سنجتون خريج جامعة أكسفورد يعمل صحفياً قبل

انضمامه إلى صفوف الجيش » كما كان عند تكليفه بمهمة الذهاب إلى بلسن فى السابعة والثلاثين من عمره . وكان معروفًا عنه شدة تحمسه للحرب وكراهيته المتأججة ضد النظام النازى ، فضلاً عن أنه كان نصف يهودى فأبوه ألمانى يهودى من رجال الأعمال .

تابع سنجتون السياسة النازية منذ صعود الحزب النازى عن كثب كما أنه فى فترة الحرب كتب دراسة عن وسائل الإعلام التى يستخدمها جوبلز . ولكنه لم يكن قد سمع عن معسكر بلسن قط . وفى اليوم التالى توجه سنجتون لمقابلة العقيد تيلور Taylor قائد الكتيبة رقم ٦٣ المضادة للدبابات الذى أسندت إليه مهمة قيادة معسكر اعتقال بلسن . وحتى يمنع انتشار وباء التيفوس أصدر تيلور أمراً بمنع السجناء من مغادرة المعسكر وعدم التجوال فى الريف والمناطق المحيطة به ، وأسند تيلور مهمة منع السجناء من الخروج والتجوال إلى فرقة من الحراس، قوامها ألفا حارس.

اتفق الضابطان سنجتون وتيلور على إمداد المعسكر بما يلزمه من طعام ودواء . ومن جانبه انصرف تيلور للالتقاء والتفاوض مع المسئولين عن الجيش الألمانى ، فى حين استقل سنجتون مركبته العسكرية ليسير بها فى غابات تفوح برائحة عطرة كان البريطانيون قد أضرموا النار فيها لتطهيرها من القناصة الألمان .

وفى أثناء مروره بمركبته وجد عدة لوحات تحذر من خطر التيفوس . والتف بمركبته ليجد نفسه أمام منحنى يفضى إلى مدخل المعسكر . ثم وجد على جانبى الطريق أكواخًا من الخشب . وهناك وجد فى انتظاره مجموعة من الضباط الألمان الذين جاءوا لاستقباله وفى مقدمتهم قائد

معسكر بلسن جوزيف كرامر الذى أخبر سنجتون أن هذا المعسكر يحتوى على شواذ الجنس والمجرمين المحترفين وبعض السجناء السياسيين . ولكن كرامر حذر سنجتون من مغبة استخدام أى مكبر صوت فى المعسكر فقد ران السكون فى تلك اللحظة عليه ، مؤكداً أن الحكمة تقتضى استمرار الهدوء فى المعسكر .

ولكن العقيد تيلور وصل فى تلك اللحظة ليعطى الأمر باستخدام مكبرات الصوت للإعلان عن وصول الجيش البريطانى وتحرير المعسكر . وأيضاً أصدر المقدم سنجتون إلى الألمانى كرامر أمرا بتنفيذ التعليمات .

وتوغل الضابطان البريطانيان في المعسكر حتى وصلا إلى بوابة خشبية عالية بدت لذهن سنجتون كما لو كانت بوابة حديقة حيوانات . ومر الرجلان على الأكواخ الخشبية المطلية باللون الأخضر . فتجمع عدد كبير من السجناء واقتربوا من الأسلاك الشائكة وهم حليقو الرؤوس يلبسون ملابس المعتقل وهى عبارة عن بيچامات مخططة مثل جلد الحمار الوحشي.. وكان منظر السجناء مزرياً للغاية . غير أن سنجتون لمح وسط هذا الجمع غير الآدمى رجلاً غير حليق الرأس يرتدى بزة عادية ، فمد سنجتون يده لمصافحته واتضح أنه صحفى هولندى .

وأعلن سنجتون للسجناء عن طريق مكبر الصوت أنهم منذ تلك اللحظة أصبحوا أحراراً . وبينما سنجتون يسير بمركبته فى الطريق الرئيسى للمعسكر جاءت حشود من السجناء لمشاهدته ، وقام جندى ألمانى بإطلاق الرصاص فى الهواء فوق رؤوس السجناء لتفريقهم فأخرج سنجتون مسدسه وأمره بالتوقف عن إطلاق النار . وأيضًا شاهد سنجتون مايقرب من اثنى

عشر سجيناً ينهالون ضرباً على السجناء المجتمعين . ولم يفهم أن هؤلاء المعتدين هم الكابوهات أى السجناء الذين اختارهم النازيون للتنكيل بزملائهم لحساب القيادة النازية للمعسكر .

ثم توقفت مركبة سنجتون أمام معسكر صغير للنساء فقالت سجينة فرنسية له : «يجب أن تخلصنا فهذا المعسكر شيء بشع» . ثم استمرت المركبة فى السير حتى وصلت إلى معسكر أكبر للنساء . ولم تمض لحظات حتى أحاطت بالمركبة مئات النسوة . وأخذن يصرخن ويولولن دون أية سيطرة على مشاعرهن لدرجة أن ولولتهن طغت تمامًا على مكبرات الصوت . ومدت النسوة أياديهن إلى أفرع الشجر الصغيرة وألقين بها على المركبة تعبيراً عن ترحيبهن بقدوم الجيش البريطانى . وسقط أحد الفروع على كتف كرامر فأزاحه عن كتفه بضجر . وكما قالت السجينة مانيا سالنجر Mania Salinger فيما بعد : «ثم جاءت دبابات أخرى وارتفعت مكبرات الصوت لتكرر على مسامعنا بعدة لغات (لقد أصبحتم أحراراً . نحن الجيش البريطانى . ألزموا الهدوء . الطعام والمعونة الطبية فى الطريق إليكم)» .

وعند منتصف فترة مابعد الظهيرة ، لحق العقيد تيلور بالمقدم سنجتون فى المعسكر رقم (١) كما حضر ضباط بريطانيون كثيرون فى القيادة رقم (٨) كفرقة استطلاع لتفتيش المكان . وقام هذا الفريق من الضباط باستجواب كرامر استجواباً دقيقاً ، فعلموا منه أن النازيين دمروا كل الوثائق الخاصة بمعسكر برجن بلسن بناءً على التعليمات والأوامر الصادرة من برلين ، كما علموا أن المعسكر الرئيسى يشتمل على نحو أربعين ألف

سجين وأن مخزون الطعام يكفى لمدة ثلاثة أيام فقط» .

ثم حدثت واقعة هزت وجدان الضباط البريطانيين هزاً عميقاً فقد رأوا الحراس الألمان يطلقون الرصاص على عدد من السجناء ويردونهم قتلى دون أى مسوغ .

عندما دخل تيلور المعسكر ، هاله أن يرى أكوام الموتى كما هاله أن يعرف أن ١٨ ألف سجين وسجينة قضوا فى شهر مارس (١٩٤٥) وحده أى قبل تحرير المعسكر بنحو شهر .

ولم يكن تيلور الوحيد الذى استبشع مارأى ، فقد كتب نائبه الرائد بن بارنيت Ben Barnett : «لاتوجد كلمات فى اللغة الإنجليزية تستطيع تصوير الفظاعات والبشاعات التى حدثت فى المعسكر تصويراً دقيقاً» . ويسترسل بن بارنيت قائلاً إن عقله يعجز عن استيعاب ماحدث ؛ لأنه لم يتصور إمكانية حدوث هذه البشاعات .

ولم يظهر على كرامر أى خجل أو ندم بل التفت إلى سنجتون وقال إنه فعل كل مافى وسعه . وسأله الضباط البريطانيون لماذا لم يلذ بالفرار مثلما فعل رجال وحدة البوليس الخاصة فأجاب أنه بقى فى مكانه فى المعسكر تنفيذاً للأوامر الصادرة إليه . وفى خلال الأربعة وعشرين ساعة التالية أعاد البريطانيون صياغة بنود الهدنة التى عقدوها مع الألمان بخصوص تسليم معسكر برجن . وعبثا حاول كرامر أن يحذر البريطانيين من مغبة إطلاق سراح سجناء هذا المعتقل لأنه سوف يؤدى إلى الانفلات الأمنى وإندلاع أعمال الشغب . ولكن البريطانيين لم يلقوا بالاً لتحذيراته . وبالفعل كان كرامر على حق فقد حدثت بالفعل أعمال عنف وشغب ،

تدخل الحراس الألمان والمجريون لقمعها بسفك دماء القائمين بها ، الأمر الذى أصاب الجنود البريطانيين بالغثيان من هذا القتل المبرر وغير المبرر .

وفى اليوم التالى تمكن البريطانيون من نزع سلاح الألمان المسئولين عن معسكر بلسن ، كما تم القبض على كرامر رغم أن القبض عليه لم يكن منصوصاً عليه فى اتفاقية الهدنة .

يقول ضابط بريطانى فى هذا الصدد أن الأولوية الأولى نتيجة دخول البريطانيين معسكر بلسن انحصرت فى توفير الطعام والماء . واستدعاء تعزيزات عسكرية أكبر وفرض الأمن والنظام ومنع السجناء من التجوال فى محيط المعسكر .

وفى مساء يوم ١٥ أبريل ١٩٤٥ قام البريطانيون بتجميع دباباتهم حول مخزن الطعام فى المعسكر (١) وانتظروا فى توتر وقلق ليروا ماسوف يحدث . وكان من دواعى ارتياحهم أن السجناء لم يحاولوا الخروج من المعسكر بأعداد غفيرة ، فضلاً عن أنهم يحاولوا الفتك بحرس وحدة البوليس الخاصة على نطاق واسع . غير أنهم شقوا طريقهم إلى مخزن الطعام دون أن يكترثوا بالدبابة الشيرمان التى اعترضت مدخل المخزن، كما أنهم لم يبالوا بالطلقات النارية التى أطلقها الحراس البريطانيون فى الهواء . ونهب السجناء مخزن الطعام عن آخره ، فلم يبق فيه سوى بعض أرغفة الخبز الأسود التى اعتاد النازيون توزيعه على السجناء وبعض بالات الدقيق . واختفى أيضاً من حظيرة كرامر الخاصة الخمسة والعشرون خنزيراً التى كان يحتفظ بها لنفسه ، وترك قوات رجال الوحدة الخاصة الفارون وراءهم كوخاً مليئاً بالملابس الرسمية التى يرتدونها .

غير أن الصورة فى المعسكر رقم (٢) أى فى مدرسة بانزر Panzer للتدريب العسكرى حيث تم إيواء أكثر من خمسة عشر ألفا من السجناء الذكور الذين وصلوا مؤخراً إلى بلسن ، كانت أكثر صخباً ، فقد اندلعت منه فى المساء أعمال عنف شديدة . وطارد السجناء الروس والبولنديون الأقوياء الكابوهات وأذنابهم وألقوا بهم من نوافذ الطوابق العليا انتقاماً للخسف والتنكيل الذى كابدوه على أيديهم . ويقول أحد الناجين من الموت أن السجناء أجهزوا على مائة وخمسين من الكابوهات وأتباعهم .

وفى اليوم التالى الموافق ١٦ أبريل ١٩٤٥ وصلت قوات بريطانية إضافية لتعزيز وضع الجنود البريطانيين في المعسكر . وجاب ديريك سنجتون بسيارته أرجاءه للمرة الثانية معلناً أن القوات البريطانية تسيطر سيطرة كاملة على معسكر بلسن وأن الطعام والدواء فى طريقهما إليه . ومن ناحيته قام العقيد تيلور بنزع سلاح وحدة البوليس الخاصة . وفى محاولة من جانبه لوقف أعمال العنف فى المعسكر رقم (٢) بدأ تيلور بتقسيم السجناء إلى مجموعات وفقاً لجنسياتهم .

وأيضاً سعى البريطانيون إلى التعرف على نوعية السجناء الذين قاموا بتحريرهم . وحسبما يقول سنجتون تم تقسيم سجناء بلسن إلى ثلاثة أقسام رئيسية كالتالى : (١) السجناء السياسيون (٢) اليهود (وغالبيتهم من النساء) (٣) المجرمون (ويمثلون الأقلية) . ومن بين الأربعين أو الخمسة وأربعين ألف سجين فى المعسكر(١) بلغ عدد السجينات نحو خمسة وعشرين ألف سجينة كانت ثمانية عشر ألف منهن من يهوديات المجر وبولندا ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا . والجدير بالذكر أن هذه المجموعة

كانت – من الناحية العددية – من أكبر الجاليات الأوربية اليهودية الناجية من الهولوكست . فى حين تعرضت للإبادة عن طريق الغاز فى أوشويتز – بيركينو وتريبلينكا معظم عائلات تلك النسوة .

ولكنه يتعين علينا أن نذكر أن الجستابو زجوا فى بلسن بألف امرأة روسية وخمسة آلاف امرأة يوغسلافية وبولندية وفرنسية وبلجيكية بتهمة مقاومة الاحتلال الألمانى ، فضلاً عن أن النازيين زجوا فى معسكر بلسن(١) بخمسة عشر ألف سجين معظمهم من البولنديين والروس .

واكتشف سنجتون أن النازيين زجوا أيضاً فى معسكر بلسن بسجناء حرب روس من كلا الجنسين حاولوا الهرب أو اعتدوا على الألمان، وفرنسيين وفرنسيات ساعدوا بنى جلدتهم وبلجيكيين قدموا العون للطيارين البريطانيين وألمان مناهضين للنازية وبولنديين اشتركوا فى ثورة جيتو وارسو ضد النظام النازى إلى جانب لصوص ألمان وموسات ألمانيات .

وقد كتب ضابط بريطانى جاء إلى بلسن فى الأيام الأولى من تحريره ، يقول : «خرجت من قراءاتى عن المعسكر بانطباع بأن السجناء عن بكرة أبيهم تقريباً كانوا من اليهود» . ولكن هذا الضابط اعترف فيما بعد بأن هذا الانطباع خادع . يقول الملازم وليم روتش William Roach الذى كان مسئولاً عن إدارة قسم رجالى كبير من المعسكر(١) :

«كان مجموع النزلاء هناك ١٥٢٨٧ معظمهم من الروس يليهم البولنديون . وكان هؤلاء يشكلون ٦٠ ٪ من عدد السجناء . وكان هناك نحو خمسمائة يونانيًا ونفس هذا العدد تقريبًا من الفرنسيين والبلجيكيين والتشيكيين ومائة وعشرين من الهولنديين بالإضافة إلى عدد لابأس به من

اليوغسلافيين . أما الألمان فقد تراوح عددهم بين ١٦٠٠ و ١٨٠٠ إلى جانب عدة مئات من الغجر» .

قلنا إن الشغل الشاغل للجيش البريطانى منذ تحريره لمعسكر بلسن هو توفير الطعام والماء للسجناء . وفى أول مساء أمضته القوات البريطانية فى هذا المعسكر تلقت القيادة البريطانية رقم ٨ طلباً عاجلاً وملحاً بسرعة إمداد السجناء بالطعام والماء . غير أن هذه القيادة لم تتمكن من تلبية هذا الطلب إلا فى تمام الساعة الرابعة بعد ظهر يوم ١٦ أبريل (١٩٤٥) . فقد حضرت آنذاك قافلة للغوث مكونة من فناطيس ماء ولوريات من النوع الثقيل تحمل أدوات المطبخ .

وقرر البريطانيون أن السبيل الوحيد لمنع السجناء من القيام بأعمال الشغب هو إصدار أوامر إليهم بعدم الخروج من بلوكاتهم وإرسال مندوبين عنهم لاستلام الطعام وتوزيعه على زملائهم فى كل بلوك . ولم يكن من السهل إعلان ذلك عن طريق مكبرات الصوت بسبب كثرة لغات السجناء وتعددها . وأمضى سنجتون وزملاؤه البريطانيون ساعتين كاملتين لتهدئة روع السجناء وإقناعهم بالتزام بلوكاتهم .

وعندما تم إعداد الطعام خرج المندوبون عن السجناء لاستلامه طبقاً لعدد السجناء الموجودين فى كل بلوك . وطلب البريطانيون من السجناء مراعاة ضمائرهم فى إعطاء المرضى نصيبهم من الطعام . واستغرق توزيع الطعام وقتًا طويلاً لدرجة أن آخر البلوكات فى معسكر النساء استلمت أنصبتها من الطعام فى وقت متأخر من المساء .

وأحس تيلور أن البريطانيين قاموا بواجبهم على قدر طاقتهم وعبر عن رضائه عن أدائهم فى توزيع الطعام ، فقد قال : «إننى متأكد من أن

جميع القادرين تلقوا مرقة اللحم والخضار محفوظاً فى علب من الصفيح وبسكوت . ويذكر جندى بريطانى أن السجناء تلقوا النوع نفسه والقدر نفسه من الطعام الذى يعطى للجنود البريطانيين الذين يحاربون على جبهة القتال، وأن الكمية المنصرفة كانت تكفى لإطعام الجندى المحارب لمدة أربعة عشر يوماً ، وهى تحوى السجق ومرق اللحم ولحم الخنزير والفاكهة والبودنج والمربى والزبدة والجبن .

وبطبيعة الحال لم ينس السجناء هذا الانتقال المفاجئ من شدة الجوع إلى التخمة . ويذكر فكتور مامنتوف Viktor Mamantov القادم من لننجراد كيف التهم السجناء هذا الطعام إلى حد الإفراط ؛ الأمر الذى سبب لهم مشاكلات صحية خطيرة وجعلهم يتقيأون . وسرعان ماتساقط السجناء من التخمة وعانوا من الإسهال . وإنها لمفارقة مابعدها مفارقة أن يموت كثير منهم من الإفراط فى الأكل مثلما مات الكثيرون منهم من شدة الجوع، وبذلك يصبح البريطانيون مسئولين دون قصد منهم عن وفاتهم .

البريطانيون يستغلون برجن بلسن فى الدعاية ضد النازية :

بعد مرور أسبوع واحد على تحرير معسكر برجن بلسن قام أحد الصحفيين بزيارته فوجد رجال وحدة البوليس الخاصة غارقين فى دمائهم بسبب اعتداء الجنود البريطانيين عليهم . وأيضاً زاره الجنرال ديمبسى Dempcey قائد الجيش البريطانى الثانى فخطر له على الفور استغلال البشاعات التى ارتكبها النازيون فى هذا المعسكر للتشهير بألمانيا النازية . وكان حريصاً على دعوة الصحفيين إلى زيارة معسكر برجن بلسن للكتابة عنه .

وجاء رجال الإعلام بكاميراتهم دون إبطاء ليلتقطوا صوراً بشعة لأكوام الجثث الملقاة على الأرض بينما امرأة تطهو طعاماً أعطاه لها الجنود البريطانيون ، فى حين كان السجناء المصابون بالدوزنتاريا يقضون حاجتهم على قارعة الطريق ، وبينما كانت امرأة عارية تماماً تستحم فى فنطاس ماء طفت على سطحه أشلاء طفل ميت . واستغل البريطانيون هذه الفظائع للتشهير بالنظام النازى وفى تبرير تدمير المدن الألمانية بالقنابل والإصرار على استسلام ألمانيا دون قيد أو شرط .

أسند الجيش البريطانى مهمة إمداد معسكر بلسن باحتياجاته إلى البريجادير هيوز لولولين جلين Hughes Llewellyn Glen ، وهو رجل ضخم الجثة رياضى ذو شارب شديد السواد ، لعب دوراً بطولياً فى الحرب العالمية الأولى . ورغم خشونة مظهره فقد كان يحمل بين جنبيه قلباً دافئاً يحس بمتاعب الآخرين .

ولد هيوز – وهو ابن طبيب – عام ١٨٩٢ فى مدينة صغيرة نائية اسمها فنتيرسبرج Ventersburg فى جنوب أفريقيا . ومات الأب نتيجة إصابته بعدوى أثناء قيامه بإجراء إحدى العمليات الجراحية ؛ فاضطرت عائلته إلى العودة إلى إنجلترا حيث تلقى هيوز تعليمه فى مدرسة خاصة متواضعة الحال هى مدرسة إبسوم Epsom .

تفوق هيوز فى الرياضة البدنية وفى لعبة الرجبى على وجه التحديد، وحصل على منحة دراسية مكنته من الالتحاق بمستشفى جامعة لندن . غير أن اندلاع الحرب العالمية الأولى وقف حائلاً دون استكمال دراسته للطب . وتطوع على الفور للخدمة العسكرية . وذهب إلى فرنسا ولكنه عاد منها فى

العام التالى لأداء الامتحان النهائى فى كلية الطب . ثم عاد إلى فرنسا ليعمل فى إسعاف الجرحى والمصابين فى ميدان القتال . وظل يعمل فى هذه الوظيفة لمدة ثلاثة أعوام . ومنحه الجيش البريطانى وسام الشجاعة مرتين : المرة الأولى لأنه عرض حياته للخطر حين خرج فى وضح النهار دون أن يكترث بالنيران والمرة الثانية لأنه احتفظ بهدوئه ورباطة جأشه وهو يبطل مفعول قنبلة . ولكن هيوز أصيب فى نهاية الحرب إصابة بالغة.

وبعد شفائه من الإصابات الشديدة التى لحقت به، آثر هيوز أن يترك الخدمة العسكرية ليعمل طبيبًا فى ريف منطقة ديفون بجنوب إنجلترا. وراقت له حياة الريف البسيطة . وكان أحياناً يمتطى صهوة جواده لمسافات طويلة كى يعود مرضاه ، ثم انتقل إلى لندن حيث افتتح عيادة أنيقة فى منطقة كنسجتون الراقية . ويبدو أنه اشتاق إلى الانخراط فى الخدمة العسكرية فعاد إليها فى أواخر عقد الثلاثينيات من القرن العشرين؛ حيث أرسله الجيش البريطانى إلى فرنسا كقائد للفرقة الخامسة للإسعافات الميدانية .. وفى عام ١٩٤٥ كان هيوز آخر من تم إجلاؤه عن دنكرك . وفى أواخر ١٩٤٥ أظهر هيوز قدرة فائقة على قيادة الجنود أثناء قيامه بعملية عسكرية تعرف بعملية أرنهم Arnhem فرقاه الجيش إلى رتبة بريجادير وعينه رئيس أطباء الجيش الثانى البريطانى .

وصل هيوز إلى معسكر برجن بلسن بعد ظهر يوم تحريره فى ١٥ أبريل ١٩٤٥ ، وكان حاضراً عند استجواب النازى كرامر قائد هذا المعسكر. وفى نفس المساء الذى وصل فيه إلى بلسن استدعى الدكتور كلين Klein كبير أطباء هذا المعسكر ، وأمره بإمداده على جناح السرعة فى صبيحة

اليـوم التـالى بمعلومـات عن حـالة السـجناء الصـحيـة والإمكانات الطبيـة المتوافرة فى المعسكر .

وفى اليوم التالى توفر هيوز على تفقد المعسكر وفحصه فحصاً دقيقاً.

قدر البريـجادير هيوز عدد سجناء المعسكر رقم (١) بنحـو ٤١ ألف شخص بينـهم ٢٨١٨٥ امرأة و١٢ ألف رجل يعيشون فى ثلاثة مـجمعات للرجال ومجمعين للنساء أحدهما صغير والآخر كبير للغاية . وهاله اكتظاظ المعسكر بالذكور والإنـاث من السـجنـاء كمـا هاله شـدة هـزال وعـدم قـدرة السجين على أن يرقد مـاداً كل جسمـه على الأرض بسبب ضـيق المكان، وكان الكوخ الذى لايتسع لأكثر من مائة سجين يحتوى على مـابين ستمائة وألف سجين . وفى الكوخ الكائن فى مـجـمع النسـاء رأى هيـوز مـرضى التيـفوس يفتـرشون الأرض ويعجـزون عن الحركـة . وأيضـاً كـان بعض السجناء عرايا ، كما ولدتهم أمهاتهم يتدثرون ببطانيات قذرة .

كان معسكر برجن بلسن أشبـه مـايكون بمرحـاض بشرى هائل فقد غطى البـراز والبـول أرضـيات الأكـواخ . وكـان النائمـون فى الأسـرة العليـا لايتمـالكون أنفسهم أحيـاناً فيبولون ويتبرزون على من ينامون فى الأسرة السفلى . ورغم هذا فـقد كـان مـجمع الرجـال (٣) أفـضل حـالاً من بقيـة المجمعات ، فى حين كـان مجمع الرجال (٢) أسوأها على الإطلاق ففيه عاش نحو ثمانية آلاف سجين يعانى معظمهم من مرض التيفوس . ولم يزد عليه سوءاً سوى مجمع النساء الأصغر حجمـاً ، والذى ضم نحـو ستـة آلاف سجـينـة . أمـا مـجـمع النـسـاء الرئيـسى (ويحـمل رقم ١) فـقـد تراوح عـدد سجيناته بين ٢٢ ألف و ٢٣ ألف سجينة . ولكن سوء حالته لايقارن بسوء

حالة مجمع النساء (٢) ، الذى اشتمل على كومة هائلة للغاية من الجثث .. وفى الكوخ رقم ٢٠٨ القريب تراكمت جثث النساء فى الممر المكتظ لدرجة لاتسمح لأية سجينة بالرقاد ، وهى تمد كامل جسمها على الأرض. وحسب تقديرات البريجادير هيوز كانت ١٧ ألف سجينة من مجموع سجينات المجمع (١) البالغ عددهن ٢٣ ألف سجينة يحتجن إلى العلاج فى المستشفى بسبب اشتداد وطأة المرض عليهن ، لدرجة أنه لم يكن هناك ثمة أمل فى شفاء عدد كبير منهن .

ولاحظ هيوز أنه لم يكن فى معسكر بلسن سوى مخزن صغير للأدوية والعقاقير ، وأن إدارته البريطانية لاتحاول أن تفعل شيئًا من أجل إنقاذ المرضى . وعثر هيوز فى المعسكر على عدد كبير من صناديق الصليب الأحمر تحتوى على أطعمة قامت منظمات القوات اليهودية بإرسالها . ورأى هيوز أن ٧٠٪ من نزلاء معسكر بلسن (١) يحتاجون إلى العلاج فى المستشفى ، وأن مالايقل عن عشرة آلاف منهم سوف يموتون قبل أن يتلقوا أى علاج ، علمًا بأن التيفوس والسل انتشرا بشكل وبائى . وأيضًا لاحظ هيوز أن أحوال المعسكر (٢) البالغ عدد سجنائه ١٥١٣٣ سجينًا كانت فى أوائل إبريل ١٩٤٥ أفضل من أحوال غيره من المعسكرات، رغم انتشار سوء التغذية وكثرة الوفيات بين السجناء بسبب خلو هذا المعسكر من مرض التيفوس .

ورغم اعتياد هيوز منظر الموت ، فقد بكى عندما شاهد البؤس الإنسانى فى برجن بلسن حيث رافقته طبيبة الأسنان هاداساه بيمكو Ha-dassah Bimko أثناء تفقده للمعسكر وشرحت له ماكان يجرى داخله . وقرر هيوز أن يبذل قصارى جهده لإنقاذ مرضى معسكر بلسن رغم

انشغاله بالمرضى والمصابين من العسكريين البريطانيين . ولهذا قرر استدعاء كل الاحتياطى من الأطباء . غير أن مساعيه اصطدمت بعائق ، فقد كانت الأعمال القتالية تلقى الجانب الأكبر من رعاية الجيش الطبية . ورغم ذلك فقد وضع الجيش تحت إمرته وحدة إسعاف ومركز استقبال خاص لمعالجة المصابين والمرضى فى معسكر بلسن هى وحدة الإسعاف الميدانى الخفيف الحادية عشرة (التى تتكون من مائتى رجل ، والتى كانت مهمتها أصلاً نقل المصابين من الجنود البريطانيين لتلقى العلاج) . وقام البريجادور هيوز باستدعاء قائد وحدة الإسعاف المقدم ميرفن جونين Mer-vin gonin ولكنه هذا الرجل لم يصل إلى بلسن إلا يوم ١٧ أبريل ١٩٤٥ . وكان جونين ووحدة الإسعاف التى يقودها فى حالة من الإعياء الشديد عند وصولهم إلى معسكر بلسن .

وعلى عكس وحدة الإسعاف الحادية عشرة المتعبة والمنهكة ، كانت وحد ةعلاج الإصابات رقم ٣٢ تتمتع بالنشاط ، و تعنى بإجراء العمليات الجراحية على الجنود المصابين فى الأعمال القتالية . وهى تتكون من فريقين من الجراحين يساعدهما فريق من الممرضين والممرضات ، وبعد انتهائها من مهمتها فى عمليات الإبرار المعروفة باسم D. Day وتحرير فرنسا من الاحتلال النازى أصبحت وحدة الإسعاف رقم ٣٢ وحدة احتياطية لمدة عدة شهور تولت إدارة مستشفى صغير بالقرب من الحدود الألمانية – الهولندية . وقد صدر الأمر إلى هذه الوحدة بالتحرك إلى مدينة هامبورج . وفى فجر يوم ١٧ أبريل (١٩٤٥) جاء ضابط اتصال من الجيش البريطانى الثانى لإيقاظ المقدم جونستون Johnston قائد وحدة الإسعاف رقم ٣٢ من نومه ليخبره بالتوجه إلى معسكر اعتقال برجن بلسن، الذى

قامت الفرقة المدرعة رقم ١١ بتحريره قبل ذلك بيومين ، ولم يكن لدى هذا القائد أية فكرة واضحة عن هذا المعسكر . وقد كتب فيما بعد أنه كان من الصعب عليه أن يتصور أن فى مقدور وحدته بإمكانياتها الضعيفة ، والتى تتكون من مائتى سرير، أن تفعل الكثير من أجل أعداد مرضى بلسن الغفيرة .

كان المقدم جونين قائد وحدة الإسعاف الخفيف (١١) طبيباً ممارساً فى حين كان المقدم جيمس جونستون قائد وحدة إسعاف المصابين رقم ٣٢ ضابطاً نظامياً فى الجيش البريطانى ، ولهذا تم تعيينه كبير الهيئة الطبية فى معسكر بلسن ، فى حين ظل هيوز يعمل فى الجيش الثانى . وفى حين أسندت إلى هيوز مهمة تخطيط سير العمل فى معسكر بلسن أنيطت إلى جونستون مهمة تنفيذ الخطة التى وضعها هيوز وكذلك الإشراف اليومى على مجريات الأمور فى المستشفى ، وهو عمل اتفق مع مشاربه .

ولد جونستون الأسكتلندى عام ١٩١١ ثم تخرج من مدرسة الطب فى جلاسجو ، ثم التحق بصفوف الجيش فى عام ١٩٣٤ . وشارك فى الإنجاز الطبى العظيم الذى حققه الجيش البريطانى ، عندما ضرب الزلزال باكستان وقتل ثلاثين ألف باكستانى فى مدة لاتزيد عن ثلاثين ثانية . وكان لجونستون شخصية جذابة حببت الناس فيه ، وقد شهد زملاؤه فى العمل على لطف معشره ودماثة خلقه ، التى لم تحل دون تمتعه بالحزم العسكرى إذا إقتضى الأمر ذلك .

وعند وصول الضباط الأطباء إلى معسكر بلسن يوم ١٧ أبريل ١٩٤٥ قدروا احتياجاته الطبية على النحو التالى . قال جونستون إن إسعاف بلسن

يحتاج إلى اثنتى عشر مستشفى عاماً يسع كل منها ١٢٠٠ سرير . وبطبيعة الحال شكا جونين من نقص الأطباء والأسرة والعاملين فى مجال التمريض إلى جانب نقص الملابس والأدوية والضمادات ومقاييس درجة الحرارة وقصريات البول والبراز . والأسوأ من كل هذا عدم وجود أية لغة مشتركة للتفاهم . ولهذا اعترف جونستون بأن المهمة الطبية المسندة إليه تبدو مستحيلة .

غير أن الجيش البريطانى استفاد من قربه من مدرسة بانزر للتدريب العسكرى فقد كانت على مبعدة ميل واحد فقط من معسكر برجن بلسن وتصلح بعد إجلاء السجناء منها لأن تكون مستشفى . ولاغرو فهى تحتوى على عدد كبير من المبانى ، تتكون من أربعة طوابق ومقصف كبير ومطابخ عصرية ومطعم للضباط ومساكن للأزواج ودار عرض سينمائى ومستشفى عسكرى مجهز بمعدات حديثة ، وقد كانت مدرسة بانزر مليئة بجرحى الحرب الألمان .

قام جونستون بزيارة تفقدية سريعة لمدرسة بانزر للتدريب العسكرى بعد ظهر أول يوم جاء فيه إلى معسكر بلسن بصحبة ضابط رفيع المستوى فى قيادة الجيش البريطانى الثانى ، عهد إليه فيما بعد بالإشراف على سجناء بلسن الأصحاء . ثم قام جونستون بتحويل جانب كبير من المدرسة إلى مستشفى لمعالجة المرضى . وطلب جونستون من البريجادير هيوز إخلاء المستشفى العسكرى من مرضاه العسكريين الألمان البالغ عددهم ٦٥٠ فرداً ، كما طلب ضم مطعم الضباط إليه حتى يتمكن كبداية من إيواء عشرة آلاف مريض فيه .

أما الميزة الثانية التى وجدها جونستون فى معسكر برجن بلسن فقد تمثلت فى توافر الكفاءات الطبية فيه . فعندما تفقد هيوز معسكر برجن بلسن يوم ١٦ أبريل (١٩٤٥) اتضح له أنه يشمل عدداً كبيراً من السجناء الأطباء والممرضين . واستطاع أن يكسب ثقتهم ويوثق علاقته بهم وعلى وجه خاص الدكتورة بيمكو التى تحدثت اللغة الفرنسية بطلاقة غير عادية . وأيضاً تركت هذه الطبيبة ومساعدتها الطبيبة الدكتورة روث جتمان Guth gutman أثراً طيبا فى نفس جونستون منذ اليوم الأول من التقائه بها .

يقول جونستون فى هذا الشأن : «كانت لهاتين المرأتين الممتازتين الكلمة العليا واليد الطولى فى المستشفى» . وتمكنت هاتان المرأتان بتحقيق مايشبه الإعجاز الطبى ، ونستدل على ذلك من الكلمات التالية التى سطرها أحد الضباط . قال : «استطاعت هاتان المرأتان دون مساعدة السلطات لهما، وبدون أية معدات طبية أو غير طبية الحفاظ على شىء من النظام فى جو من الفوضى الضارية أطنابها . وكان الكوخ الذى تسكنانه المكان النظيف الوحيد فى كافة أرجاء المعسكر . ولن أنسى طيلة حياتى مقابلتى الأولى لهما . ففى وسط القذارة والانحطاط البشرى ، احتفظت هاتان المرأتان بنظافة جسديهما ورجاحة عقلهما كما بدا عليهما الهدوء والوقار ليصبحا مثلاً ساطعًا يحتذى به بقية السجناء وتجسيداً لانتصار الخير على الشر» .

كان ذلك الانطباع العام الذى تركته هاتان المرأتان فى كل من عرفهما ؛ فقد اعتبر العقيد جونين الدكتورة بيمكو أشجع امرأة عرفها فى حياته وأنها صانعة معجزات بعنايتها بالمرضى وقدرتها على علاجهم،

دون أدوية وقدرة مساعدتها العجيبة على الأخذ بيدهم وفرض الأمن والنظام عليهم.

ورغم ضعف الإمكانات الطبية ، فقد حاول البريطانيون تقليص عدد الوفيات بين السجناء بمنع التيفوس والأمراض المعدية الأخرى من الانتشار إلى جانب الاهتمام بتغذيتهم والإسراع بدفن الموتى قبل مجئ حرارة الشمس التى تساعد على انتشار الكوليرا . وحفاظاً على الأصحاء تم عزلهم عن المرضى فى أكواخ خاصة بهم . وبالتدريج تم إخلاء مبانى معسكر برجن بلسن وحرقها بعد نقل جميع الباقين على قيد الحياة إلى مدرسة بانزر للتدريب العسكرى .

وفى مثل هذا الجو المرعب لم يكن لحياة الفرد أية قيمة على الإطلاق . يقول جونين فى هذا الشأن : «كنا نعرف أن خمسمائة سجينة سوف يموتون كل يوم ، وأن مثل هذا العدد سوف يستمر يوميًا فى الموت لمدة أسابيع مقبلة وأنه لن يكون لما نفعله أقل مفعول . وعلى أية حال لم يكن من السهل على المرأ أن يرى طفلاً يختنق أمام عينيه من مرض الدفتيريا ، وهو يعلم أن شق فتحة فى رقبته مع التمريض السليم كفيلان بإنقاذه من الموت» .

وتم تقسيم العمل على النحو التالى : «تقوم وحدة جونين للإسعاف بإجلاء معسكر برجن بلسن من المرضى وإمدادهم بالطعام فى حين تقيم وحدة إجلاء المصابين برئاسة جونستون مستشفى فى ثكنات مدرسة بانزر للتدريب العسكرى . وتقوم السلطة العسكرية بنقل الأصحاء وعزلهم كما يقوم قسم الصحة الميدانية بدفن الموتى ومنع انتشار التيفوس برش المكان بمسحوق الـ د. د. ت .

يقول عريف عامل بوحدة نقل المصابين رقم ٣٢ أن السعادة غمرته عندما عرف بأمر رجوعه إلى الخدمة العسكرية والاشتراك فى الأعمال القتالية . ولكن هذه الفرحة مالبثت أن تبددت حين صدر أمر آخر بإلحاقه بوحدة طبية لمعالجة المرضى فى معسكر بلسن . وبعد أن تم إيواؤه وزملاؤه بالقرب من معسكر بلسن ، حضر إليهم العقيد جونستون ليخاطبهم قائلاً : «إنه شيء لايمكن تصديقه . لايوجد هناك أدنى تنظيم أو طعام . لايوجد أى شيء بالمرة . هؤلاء السجناء اعتراهم الهزال وكادوا يتضورون جوعًا وأصابتهم اللوثة وأصبحوا يفتقرون إلى الروح .. هؤلاء الناس الجائلون فى أرجاء المعسكر فقدوا آدميتهم وصاروا كالسوائم .... لقد تعودت رؤية المناظر الفظيعة ، وكنت أظن فى نفسى القدرة على تحمل فظاعتها ، ولكن مارأيته فى بلسن هزنى هزاً عنيفاً وجعلنى أرغب فى القئ» .

يقول الممرض فريد سمبسون Fred Simpson العامل فى وحدة نقل المصابين رقم ٣٢ أنهم أخبروه أن معسكر برجن بلسن مرعب وبشع يتفشى فيه التيفوس والسل ، وأن من حق أى متطوع للعمل فيه أن يتراجع عن تطوعه . والغريب أن جميع المتطوعين للعمل فى هذا المعسكر وعددهم نحو ٢٥٠ شخصاً قبلوا التحدى ولم يتراجع منهم أحد .

ويذكر سيسيل وارين Cecil Warren الذى يعمل كحامل نقالة فى وحدة الإسعاف الخفيف أن العقيد جونين تفقد طابور العرض الذى يقف فيه ، وقال للمصطفين محذراً : «حسناً يا أولاد . سوف تذهبون إلى مكان سنتناوله غداً كل المانشيتات العريضة فى جميع صحف العالم» .

وعندما اقترب المتطوعون للعمل فى برجن بلسن ، زكمت أنوفهم رائحته النتنة . وأسندت إلى هؤلاء المتطوعين مهمة إجلاء هذا المعسكر من

جميع نزلائه . وعندما سألو جونين عن موقع هذا المعسكر ، قال لهم ذلك المعسكر المخصص للاعتقال أسفل الطريق .

وفى اليوم التالى ، تم تلقيح جميع المتطوعين بلقاحى التيفوس والتيفود ، قبل ذهابهم إلى أرض المعسكر .

البريطانيون يفشلون فى تنفيذ خطتهم لإجلاء المعسكر فى الفترة من ١٨ أبريل حتى ٢٣ أبريل ١٩٤٥ :

فى يوم ١٨ أبريل ١٩٤٥ ، بدأ البريطانيون يضعون خطة البريجادير هيوز موضع التنفيذ وهى تتمثل فى دفن الموتى وإجلاء سجناء بلسن إلى مدرسة بانزر للتدريب العسكرى .

وفى يوم ١٦ أبريل كلف البريطانيون فرق البوليس الخاصة النازية تحت إشراف بريطانى بنقل الجثث المتراكمة فى معسكر الموت أو معسكر الرعب (وهو معسكر بلسن رقم ١) على عربات تجرها الخيول واللوريات ثم دفنهم فى قبور جماعية واسعة سبق للألمان أن حفروها إلى جانب قبور جماعية جديدة قام الحراس المجريون بحفرها عن طريق استخدام بولدوزرات الجيش . ولم يقم بمهمة حفر القبور رجال الوحدة الخاصة وحدهم ، بل اشتركت فى حفرها ثلاثون امرأة عاملة فى هذه الوحدة إلى جانب الجنود والمدنيين الألمان . والجدير بالذكر أن معظم الحراس الألمان لاذوا بالفرار من المعسكر عند اقتراب القوات البريطانية منه. ولهذا اضطر الجيش البريطانى إلى الاستعانة برجال الوحدة الخاصة النازية فى نقل الجثث تحت أشعة الشمس الحارقة وتحت تهديد السلاح فى عربات متحركة بثلاثة أرجل .

والرأى عند سنجتون أن نقل هذه الجثث من أكواخ المعسكر خفف الكثير من الناحية النفسية من وطأة العيش فى مكان واحد مع الموتى. وفى كل صباح اجتمع حشد من السجناء بالقرب من المقابر الجماعية ليصبوا لعناتهم على الألمان والكابوهات الذين ساموهم فى الماضى مر العذاب . وكتب أحد الجنود البريطانيين العاملين فى الوحدة الطبية بتاريخ ٢٢ أبريل ١٩٤٥ ليعبر عن غيظه وشماتته وهو يرى النازيين أذلاء أمام أفراد الجيش البريطانى . يقول هذا الجندى «إنهم يجمعون الموتى والملابس المعدية ويجرون العربات بأيديهم ويلقون حمولاتها فى مقابر جماعية هائلة تسع كل مقبرة منها خمسة آلاف جثة. وكان جنودنا المسلحون طيلة الوقت يصرخون فى وجوههم ويركلونهم بأرجلهم ويهددونهم ولايذيقونهم طعم الراحة للحظة واحدة . فيالهم من نماذج بشرية بشعة .. رجال وحدة البوليس الخاصة بملامحهم الإجرامية كما تصورهم أفلام هوليوود السينمائية .. وهم يدركون المصير الذى ينتظرهم بعد انتهائهم من عملهم».

أرغم الجيش البريطانى رجال الوحدة الخاصة النازية على نقل الجثث ودفنها دون لبس أية قفازات ووزع عليهم طعامًا لايغنى ولايسمن من جوع كما تعمدوا تكليفهم بأداء الأعمال المنهكة للغاية . وفى نهاية الأمر مات بالتيفوس عشرون من مجموع الخمسين رجلاً العاملين فى وحدة البوليس الخاصة . غير أن قيادة الجيش البريطانى تدخلت واستبعدت رجال الوحدة الخاصة من نقل الموتى ودفنهم وكلفت سجناء الحرب الألمان بأداء هذا العمل .

وفى المراحل الأولى من تحرير معسكر بلسن قام الجيش البريطانى بإحضار البولدوزرات للإسراع فى عمليات حفر القبور ودفن الموتى وخاصة لأن تربة بلسن الرملية كان يصعب حفرها . وكان منظر البولدوزرات وهى تنقل الجثث يثير الغثيان فهى تبقر بطون الموتى وتنشر روائحها العفنة لدرجة أن سائقى هذه البولدوزرات لم يتحملوا المضى فى عملهم لفترات طويلة مما أدى إلى استبدالهم بشكل متكرر . وفى بادئ الأمر تباطأ المجريون فى حفر القبور ولكن القوات البريطانية حثتهم على سرعة الإنجاز .

وحتى يوم ٢٠ أبريل ١٩٤٥ لاحظ أحد زوار معسكر بلسن بعثرة الجثث فى كل مكان . وطبقاً لروايته رأى هناك مايقرب من ألف جثة ملقاة على الأرض . وألقت الجرافات مئات الجثث فى إحدى المقابر الجماعية . غير أن العقيد جونستون اعترف بعد مرور ثلاثة أيام بأن عملية دفن الموتى كانت أبطأ مما هو متوقع . وأخطأ جونستون عندما قدر عدد الجثث فى المعسكر بثلاثة آلاف حيث كانت هناك جثث أخرى كثيرة متناثرة فى الأكواخ . وثمة عامل آخر لم يأخذه جونستون فى الحسبان وهو أن السجناء كانوا أسرع إلى الموت من القدرة على دفن الجثث . فقد فشلت جهود الجيش البريطانى فى الحد من معدلات الوفيات التى زاد منها السماح للسجناء بالانتقال من مكان إلى آخر . وفى يوم تحرير المعسكر فى ١٥ مايو ١٩٤٥ وصل عدد الوفيات إلى نحو خمسمائة ميت . وطبقًا للتقديرات البريطانية ارتفع عدد الوفيات يوم ١٩ أبريل إلى ٨٢٥ حالة ، ثم انخفض عددها فى يوم ٢١ أبريل إلى ٤٠٠ حالة . ولكن العدد مالبث أن ارتفع حتى زاد عن ألف ميت يومياً ابتداء من ٢٢ أبريل ١٩٤٥ .

لم توضع خطة هيوز موضع التنفيذ على الفور حيث إن تنفيذها فى مجال إجلاء السجناء المرضى من معسكر بلسن (١) لم يبدأ إلا بعد أسبوع من وصول القوات البريطانية إليه . أما إجلاء الأصحاء من بلسن فلم يحدث قط . وتسبب هذا التأخير فى تنفيذ الخطة إلى تعثرها . وبدت المشكلة مثل مشكلة البيضة والفرخة أيهما أسبق إلى الوجود ، إذ لم يكن بالإمكان إجلاء السجناء من معسكر الرعب (١) إلا بعد إنشاء مستشفى لعلاجهم فى المعسكر (٢) ، وهو الأمر الذى إستغرق وقتًا أطول مما ينبغى . وبينما أشرفت إدارة فرقة نقل الجرحى والمصابين (٣٢) على قيام أربعمائة جندى مجرى مسجون بالتخلص من أثاث الثكنات بإلقائه من النوافذ ، جاب بريطانيون آخرون المناطق الريفية المجاورة بحثًا عن المعدات اللازمة لأعمال السجناء .

يقول جونستون فى هذا الشأن : «ذهبنا ببساطة إلى المدن والقرى المحلية بحثاً عن المعدات اللازمة . وفى غضون أيام قلائل استطعنا إخلاء مقصفين وثمانية مبانى من قاطنيها وتجهيزها بالمعدات . واستطاع طبيب التخدير فى الوحدة واسمه وينتربوثام Winterbotham إعداد سبعة آلاف سرير بمعدل ألف سرير يوميًا عن طريق التجوال فى أرجاء الأقاليم والاستيلاء على كل ما استطاعت أيدينا وضع اليد عليه . وأحضرت اللوريات التابعة لإدارة جونين مايزيد عن ٢٥٠ طناً من المعدات . وقدر جونستون احتياجات هذه المستشفى بأربعة عشر ألف بطانية وخمسة آلاف نقالة وسبعة آلاف مرتبة مصنوعة من القش وسبعمائة قصرية براز وسبعمائة مبولة بالإضافة إلى سبعة آلاف أداة للمطبخ ».

وأيضاً تعين إخلاء الثكنات من الجنود الألمان . وقد تقرر بمقتضى بنود الهدنة المعقودة بين البريطانيين والألمان أن يغادر ثمانمئة جندى معسكر بلسن يوم ١٩ أبريل . ولكن وسائل النقل والمواصلات البريطانية لم تصل فى الموعد المحدد الأمر الذى عطل رحيلهم لمدة يوم ، ولكنهم قاموا بنسف إمدادات المياه قبل رحيلهم .

وتحدد يوم ٢٠ أبريل موعداً لإخلاء معسكر الرعب (١) من سجنائه المرضى بعد كثير من الإرجاء والتأخير المرهق لأعصابهم . وحين نما إلى علم المرضى نبأ تأجيل إخلائهم أصابهم الإحباط الشديد . وحتى تدخل القوات البريطانية فى نفوسهم الأمل ، اضطر جونستون إلى التمويه على السجناء ، فاستدعى سيارات الإسعاف إلى المعسكر ليدخل فى روع المرضى أن جلاءهم يجرى على قدم وساق . ونجحت هذه الحيلة فى رفع روح المرضى المعنوية دون أن يدركوا أن سيارات الإسعاف التى دخلت معسكر الموت (رقم ١) خرجت منه فارغة مثلما دخلت . ولم يبدأ الإجلاء الفعلى للسجناء المرضى من معسكر بلسن (١) إلا فى ٢١ أبريل . وإتجهت خطة الإجلاء الأصلية إلى تقسيم السجناء طبقًا لمدى خطورة أمراضهم . وبطبيعة الحال صرفت السلطات البريطانية النظر عن إجلاء الحالات الأقل خطورة والحالات الميئوس من شفائها . وتطلبت الخطة تجميع كل حالات التيفوس فى عنابر مخصصة لهذا الغرض حتى يمكن وضعها تحت رعاية طبية خاصة . وكلفت السلطة البريطانية السجناء الأطباء بفرز السجناء وفقاً للخطة الموضوعة . وأعطتهم أقلاما من نوع خاص للكتابة على الجلد وطلبت منهم وضع علامة T على جبهة المريض للدلالة عن إصابته بالتيفوس وPT للدلالة على حالات الشفاء من التيفوس . وكانت هذه

التمييزات سليمة من الناحية النظرية البحتة ولكنها من الناحية العملية فشلت فشلاً ذريعًا منذ اليوم الأول . ولم يكن الفشل راجعًا إلى عيب فى الخطة ولكنه كان راجعاً إلى تحيزات وأهواء القائمين بتنفيذها . كما صرح جونين بذلك فيما بعد .

فقد كان الطبيب البولندى على سبيل المثال يحابى بنى جلدته ويدعى أنهم يعانون من التيفوس لإنقاذ حياتهم . وكان عامل التمريض يفعل الشيء نفسه .

وعندما أخفق البريطانيون فى تنفيذ خطتهم الأصلية وهى تقسيم المرضى حسب أمراضهم لجأوا إلى طريقة أخرى فى إجلاء المرضى تتمثل فى إجلاء سكان كل كوخ على حدة . وحتى ذلك لم يخل من عشوائية الاختيار حيث كان يتعذر نقل جميع سجناء الأكواخ إلى المستشفى رغم لهفتهم جميعاً للانتقال إليها .

كان الكثيرون من حملة النقالات من الشباب ، الذين اعتادوا نقل الموتى فى ميدان القتال . وقد عبر جونين عن شدة إعجابه بهم فقد كتب عنهم بعد الحرب يقول : «كانوا رائعين فهم يعملون من الساعة الثامنة صباحاً حتى الخامسة مساءً ويأخذون ساعة واحدة للغداء فى تلك الأكواخ وسط أشد أنواع العفن على وجه الأرض .. عفن الأجسام الحية التى لم تعرف الاستحمام ، وتعانى من كل أمراض العالم وتختلط بالموتى الذين ظلوا دون دفن لفترة طويلة . وتعين على حاملى النقالات أن يخلعوا عن هذه الجثث التى لاتزال الحياة تدب فى أوصالها الأسمال البالية التى ترتديها وأن يغطوا أجسادها بالبطاطين وينقلوها فى سيارات الإسعاف .

واضطر البريطانيون إلى استخدام العنف لمنع السجناء الأفضل حالاً من الصعود إلى هذه السيارات بالقوة وأن يجادلوا الأطباء القادمين من وسط أوربا فى أمر محاباتهم لأصدقائهم وبنى جلدتهم ومحسوبيتهم فى إجلائهم دون وجه حق .

والجدير بالذكر أن واحداً وعشرين من حملة النقالات أصيبوا بعدوى التيفوس ، على الرغم من حقنهم بالمصل المضاد .

قلنا إن السجناء الذين وقع عليهم الاختيار لإجلائهم من معسكر الموت كانوا مجردين من ثيابهم ويغطون ببطانيات نظيفة قبل نقلهم بسيارة الإسعاف إلى المستشفى التى كانت فى الأصل إصطبلاً للخيل فى المعسكر (٢) ، والذى أغرى الجيش البريطانى باستخدام هذا الإصطبل كمستشفى وجود عشرين قطاعًا (مكاناً مخصصاً لكل حصان) على جانبيه. ووضع البريطانيون فى كل قطاع منضدة وفوطاً وفرشاة للتنظيف وصابوناً ووحدة حمام متنقلة مزودة دائمًا بالماء الساخن . وهكذا بدأ الإصطبل كما لو كان مغسلة بشرية كبيرة . وتولى الممرضون الألمان وضع كل مريض على منضدة ثم يقوم ممرضان أو ممرضتان من المستشفى العسكرى الألمانى بغسله وحلق شعره ورشه بمسحوق الـ د. د. ت . المطهر .

واعترف جونستون أن معظم السجناء كانوا فى حالة زرية . وقد شعر المرضى المصابون بقروح الفراش والدمامل والخراريج وبألم ممض عند الاغتسال . وبلغ عدد السجناء الذين دخلوا هذه المغسلة البشرية أربعة عشر ألف سجين لم يمت منهم سوى سجينين . والجدير بالذكر أن معظم النساء لم يعترضن على اغتسالهن أمام الملأ .

وقد كتبت مولى سيلفا جونس Molly Sylva Jones العاملة بهيئة الصليب الأحمر شيئاً مشابهاً قالت : «رقدت الجثث التى لم تخمد أنفاسها بعد والهياكل العظمية فوق منضدة يكسوها جلد شبيه بجلد الحيوان غيرت القذارة والخراريج المهملة لونه . رقدوا دون حراك فى أغلب الأحيان وارتفع أنينهم على نحو متكرر بمجرد أن لمستهم يد الممرضة . رقدوا بعيون مفتوحة وغائرة تكاد لاترى شيئاً مما يجرى حولها .. عيون خالية من أى تعبير لايسكنها غير الخوف والفزع» .

وعندما حضرت الممرضات الألمانيات إلى هذه المغسلة البشرية كان موقفهن من المرضى والمريضات عدائيًا فى البداية. ولكن ما أن جاءت الدفعة الأولى من هؤلاء المرضى حتى فغرن أفواههن وحملقن برعب فى تلك الأشباح .. وانخرطت إحداهن فى النشيج والبكاء لأنها لم تتحمل بشاعة ما رأت ثم حذت حذوها كل قريناتها تقريبًا البالغ عددهن ستين ممرضة . وتغلبت المشاعر الإنسانية عليهن فاهتزت عواطفهن الجياشة بقوة ، كما عاد إليهن حماسهن للعمل لدرجة أن البريطانيين لم يعودوا يحسون بأى عداء ضدهن. وقد كتب جونستون فى هذا الشأن يقول:

«قامت هذه الفتيات على خدمة المرضى كالإماء ، وإعتراهن النحول والذبول وأرهقن أنفسهن فى العمل من الثامنة صباحاً حتى السادسة مساءً ، فاكتسبن احترامنا» . وفى النهاية بدأنا نقدم إليهن الشاى فى منتصف الصباح إلى جانب السجائر» وبطبيعة الحال كن بحكم عملهن يتعرضن للإصابة بعدوى التيفوس . وطبقاً لرواية الحلفاء اقترحت عليهن السلطات الحليفة أخذ أمصال المناعة ضد الوباء . ولكن الضابط الألمانى

المسئول عنهن كان أحمق عندما رفض إعطائهن المصل بحجة أنهن أخذنه حديثاً . ولكن هذا لم يكن صحيحاً . فبعد مضى شهر واحد أصيبت منهن ٣٢ ممرضة (من مجموع عددهن البالغ ٤٨ ممرضة) بعدوى التيفوس . وعند السؤال اعترف الضابط الألمانى بأنهن لم يأخذن مصل التيفوس من قبل وعلل رفضه بأعذار واهية .

وبعد إزالة مسحوق الـ د. د. ت عن جسم المريض وتغطيته ببطانية أرسل إلى المستشفى الكائنة في المعسكر (٢) . وفى اليوم الأول الموافق ٢١ أبريل ١٩٤٥ تم إجلاء ٣٢٠ امرأة مريضة من معسكر الرعب إلى المستشفى . وفى اليوم التالى (٢٢ أبريل) ارتفع عدد النسوة اللاتى دخلن المستشفى إلى ٥٢٠ امرأة . وفى ٢٣ أبريل قدرت الزيادة فى العدد بـ ٣٤٤ مريضة . وكانت هذه مجرد بداية لعمليات إجلاء كثيرة .

وإلى جانب إجلاء السجناء المصابين بالتيفوس ونقلهم إلى المستشفى سعت الخطة التى وضعها البريطانيون إلى إجلاء السجناء الأصحاء ونقلهم إلى أماكن تتوافر فيها الشروط الصحية . ولكن هذا الشطر من الخطة لم يتحقق فقد اعترف جونستون يوم ٢٣ أبريل ١٩٤٥ ، أى بعد مرور أسبوع من وصول الفريق الطبى : «إن إجلاء الأصحاء من المعسكر (١) إلى المعسكر (٢) لم يبدأ بعد» .

ويرجع بعض السبب فى هذا إلى أن البريجادير هيوز لم يكن متفرغاً لعملية إجلاء السجناء من بلسن حيث تعين عليه فى نفس الوقت العمل بعض الوقت ككبير أطباء الجيش البريطانى الثانى . وبالتالى خلا معسكر بلسن من وجود شخصية طبية لها القول الفصل فى شئون المعسكر الطبية .

وفى واقع الأمـر وقـعت إدارة مـعـسكر بلسن على عـاتق ثلاثة مـسـئـولين بريطانيين ، هم العقيد جونستون المسئول الطبى ، والعقيد مايلز Miles المسئول عن الشئون العسكرية ، والعقيد مونتاجو Montagu قائد الحامية العسكرية الذى حل محل العقيد تيلور يوم ٢٠ أبريل ١٩٤٥ .

ولم يكن إجـلاء الأصحـاء شأناً طبـيًا على الإطلاق بل كـان مـهـمـة إدارية تقع على عـاتق الإدارة العـسكرية وقـوات الحـامـيـة . وأدى تـوزيـع المسئولية على أكثر من شخص إلى تعثر عمليات إجلاء الأصحاء .

وطبـقاً لما يقوله الصـحـفـى باتريك جوردون ووكر Patrick gordon walker لم يتـخـذ أى من هؤلاء المسئولين البريطانيين أية إجراءات هامـة على الإطـلاق . ورغم مـرور أسبـوع بأكـمله علـى تحـرير مـعـسكر بلسن لم تتـخـذ خطـوة واحـدة لإجـلاء الأصـحــاء من هـذا المعـسكر رغم أنه كـان بالإمكان إيواؤهم فى حى المتزوجين فى مدرسة بانزر للتدريب العسكرى . ويقـال إن قـائد الحـامـيـة العـسكريـة كـان السبب فى تعطيل عـمليـة إجـلاء الأصحـاء رغم أنه كـان من الممكن إجلاء السجنـاء الألمان من المعسكر فى اليوم الرابع أو الخامس من تحرير المعسكر .

ولكن عـمليـة الإجلاء لم تتم إلا بعد انقضاء نحو أربعة عشر يومـاً . ومعنى هذا أن ثمـانية أيام بأكملها ضـاعت سدى . وقد كتـب جوردون ووكر فى يوميـاته : «مـات ألوف السجنـاء وكـان فى الإمكان إنقاذ المئـات منهم . لقد انهـار الناس الذين خـاطروا بأرواحـهم من المرض وبعضـهم سوف يلقى حـتفـه» . وأكـد جـوردون أن السبـب فى حـدوث هـذه الكارثة لم يكن نقص العمالة ، فالعمالة كانت متوافرة ولكن السبب فى رأيه يرجع إلى عدم وجود

سلطة تستطيع اتخاذ القرار ؛ أى بمعنى آخر يكمن السبب فى عدم تفرغ البريجادير هيوز تفرغاً كاملاً لعمله فى معسكر بلسن .

كان فشل البريطانيين فى إجلاء الأصحاء من معسكر بلسن واضحاً ولكن المسئولة عن هذا الفشل لم تكن واضحة . ومن ناحيته أثنى ديريك سنجتون ثناءً عاطراً على ضباط المفرزة العسكرية (٢٤٤) التى وصلت إلى معسكر بلسن يوم ١٧ أبريل ١٩٤٥ . يقول سنجتون فى هذا الصدد :

«لم يقصر العقيد مايلز والملازم فارمر Farmer والملازم جيبونز Gibbons والملازم بالستون Balston فى أداء عملهم» . فقد أعدوا بهمة ونشاط محموم الاستعدادات اللازمة لإجلاء السجناء الذين يتمتعون ببعض الصحة والعافية . فضلاً عن أنهم بدأوا فى تطهير المجمع من التلوث . وشكا العقيد مايلز من أن القوات البريطانية لم تأخذ الألمان فى معسكر بلسن بالشدة والحزم كما شكا من افتقار عمليات الإنقاذ إلى إدارة جماعية حيث انها اعتمدت على جهود فردية يعوزها التنسيق وتعوزها السلطة الكفيلة بوضع الخطة الموضوعة موضع التنفيذ . ومما ساعد على تفاقم هذا الوضع كثرة التغييرات التى أجريت على قيادات المعسكر البريطانية . أضف إلى ذلك أن عدداً كبيراً من هذه القيادات كانوا من أصحاب الرتب المنخفضة إلى جانب ضآلة عدد هذه القيادات .

ولم يطرأ أى تحسن فعلى إلا بعد أن عينت قيادة الجيش البريطانى العقيد سبوتيسوود Spottiswoode الذى تسلم عمله فى معسكر بلسن يوم ٢١ أبريل ١٩٤٥ . وأدى التأخير فى إجلاء الأصحاء وعزلهم عن المرضى إلى إصابة الكثير من هؤلاء الأصحاء بمرض التيفوس .

ونذكر أن السجينة مونا جورج Mona george - وهى مغنية فى كاباريه فرنسى زج بها الجستابو فى غياهب السجن بتهمة الاشتراك فى أعمال المقاومة ضد النازية - جاءت إلى الضابط ديريك سنجتون لتقول له : «ياسيدى لقد توفت اليوم سبعة نساء أخريات . وإذا مكثنا فى هذا المكان سوف نموت جميعًا من الوباء . وإذا لم تفعلوا شيئًا فسوف يقضى جميع النساء نحبهن فى غضون أيام قليلة !» يقول ديريك فى هذا الشأن : «فى وسط حبات اللفت والبراز المتناثر على الأرض ورائحة الجلد المحترق وضراط النساء اللاتى يقضين حاجتهن ، بدا لى كلامها صحيحًا ولايوجد رد عليه . وشعرنا بالعجز الذى يدعو إلى اليأس . كنا ندرك أن العمل يجرى على قدم وساق لإنشاء معسكر الاستقبال وتجهيز المعدات الخاصة بمستشفى الإستقبال بأقصى سرعة ممكنة . ولكن فى نفس الوقت كانت هناك نساء كتب عليهن الوقوع فى مصيدة الموت والإصابة بالعدوى القاتلة» .

ومع ذلك فقد استطاع سينجتون مع زميل له إجلاء خمسة عشر امرأة فرنسية من كوخهن وإيوائهن فى عنبر نوم ، أقاماه فى مخزن ملابس رجال وحدة البوليس الخاصة . بالإضافة إلى نجاحهما فى إجلاء عدد من الشخصيات المعروفة والهامة . ولكن الأخريات كن أتعس حظاً ، فبقين فى معسكر الموت ، مثل ربة البيت برتا فيردربر Bertha Ferdeber التى ماتت لأنها طلبت الدواء فلم يجبها أحد إلى طلبها ، الأمر الذى أدى إلى وفاتها مما أثار حنق وغضب إحدى قريباتها ، وجعلها تسخر من البريطانيين بقولها إنهم بارعون فى شىء واحد هو جمع جثث الموتى .

كتبت هذه المرأة بتاريخ مايو ١٩٤٥ تقول : «مر على تحريرنا أسبوعان . ورغم ذلك فقد ظلت عربات الجر تنقل جثث الموتى أكثر مما كانت تفعل في الماضي» . وتستطرد هذه المرأة لتقول في سخرية مريرة : «صحيح أن هناك فرقًا بين جنازات اليوم وجنازات الأمس . فالآن نشاهد الألمان يجرون عربات نقل الموتى في حين أننا فيما مضى كنا ندفن موتانا بأنفسنا . فياله من فرق عظيم أن يوضع الموتى في قبور جماعية سواء ماتوا كسجناء أو ماتوا كأحرار» .

وتروى لنا هذه المرأة أن جندياً بريطانيًا ، اعتقد مخطئًا أنها ميتة فشدها من رجليها ونادى على زميل له كي يساعده في مواراة جثمانها الثرى فإذ بالمرأة تقول له : «صبراً فإن ساعتي لم تحن بعد» . قالتها باللغة الإنجليزية قبل شدها إلى داخل القبر .

ويبدو أن البريطانيين كانوا قانطين من تحسين ظروف معسكر الموت أي المعسكر (١) . ورغم ذلك فقد قدموا إلى سجنائه بعض الخدمات. ولكن اهتمامهم الأكبر انصب على تحسين معسكر مدرسة بانزر للتدريب العسكري . ويتضح لنا هذا الاهتمام من المقارنة بينهما . فقد أقام البريطانيون على أرض معسكر بانزر للتدريب العسكري ٥٣٠ مرحاضاً في حين أن عدد المراحيض التي أقيمت على أرض معسكر الموت (المعسكر رقم ١) لم يزد عن مائتي مرحاض بحلول ٣٠ أبريل ١٩٤٥ . وبمجئ يوم ١٩ أبريل أقيمت حمامات متنقلة في معسكر الموت . وقد التقطت كاميرات الجيش البريطاني أفلامًا للفتيات الفرنسيات وهن يدعكن أجسادهن بالصابون ويستحممن تحت الدش يوم ٢٢ أبريل١٩٤٥ . وإستطاع أحد

الضباط فى سلاح المهندسين مستعيناً بعشرين من رجال فرقة مطافئ سيل Celle أن يضخ ماء قناة راكدة فى فناطيس فى كل من المعسكر والمطابخ . ولكن هذا الماء لم يكن صالحًا للشرب مطلقًا ، حيث أن أجساد الموتى اختلطت بماء الفناطيس .

والجدير بالذكر أن المحاولة الأولى التى بذلها قطاع الصحة الميدانى لرش جميع الأكواخ وسجنائها بمادة الـ د. د. ت لم تكن مجدية .

يقول جونستون فى تفسير هذا إن المكلفين بالرش لم يتحملوا الرش إلا لفترات قصيرة . ولهذا لم يكن بالإمكان رش السجناء على خير وجه . ويقول جوردون ووكر إن معسكر الموت (١) كان خاليًا من الأدوية كما كانت إدارته عاجزة عن اتخاذ أية قرارات طبية طارئة .

وواجهت القوات البريطانية مشكلة كأداء فى توفير الغذاء اللازم لنزلاء معسكر الموت . ولكنها تمكنت من تجاوزها عن طريق البحث عن الطعام المتوافر محليًا . وفى يوم ١٦ أبريل اكتشف البريطانيون مستودعًا ألمانيًا للطعام يحتوى على ٦٠٠ طن من البطاطس و١٢٠ طناً من اللحوم المحفوظة و٣٠ طناً من السكر و ٢٠ طناً من اللبن المجفف إلى جانب الكاكاو والقمح . وكان فى مدرسة بانزر للتدريب العسكرى مخبز تبلغ طاقته الإنتاجية سبعين ألف رغيف فى اليوم . فضلاً عن وجود مزارع ألبان ومجازر قريبة على إستعداد لتوريد اللبن والزبدة واللحوم والخضراوات.

لقد سبق أن أشرنا إلى شره السجناء الملتاث إلى ازدراد الطعام والتخمة القاتلة التى أصابتهم من جراء ذلك عقب تحرير معسكر بلسن

مباشرة . وتعلم البريطانيون الدرس من هذه التجربة وأدركوا أهمية أن يكون الطعام مناسباً وأهمية توزيعه بالعدل والقسطاس على النزلاء . وحتى يكون إطعامهم مناسبًا أعطى البريطانيون اللبن للمرضى فى حين أعطوا البطاطس لمن هم أفضل منهم صحة ، ولكن لايوجد دليل على أن اتباع هذه السياسة كان مجدياً .

وبطبيعة الحال استأثرت الطباخات بالكثير من الطعام الأمر الذى حسّن من حالتهن الصحية ولياقتهن البدنية . ولجأ السجناء الروس إلى التجوال فى الريف المجاور وتفوقوا على أقرانهم بالقدرة على السطو على طعام سكان الريف ، الأمر الذى جعل البعض يعلق على ذلك بقوله : «الروس هم الروس . فقد أعطاهم الإنجليز الطعام ولكن هذا لم يمنعهم من سرقته فى الوقت نفسه » . ولم تستطع إدارة معسكر بلسن منع آلاف السجناء من الدخول إليه والخروج منه كيفما شاءوا حيث إن منعهم إستلزم إطلاق النار عليهم ، وهو الأمر الذى أحجم عنه الجيش البريطانى .

ومضى أحد عشر يوماً على أول معرفة للبريطانيين بوجود معسكر اسمه برجن بلسن ، كما مضى أسبوع على نجاح البريطانيين فى تقديم المعونة إلى السجناء . وفى تلك الفترة توفى سبعة آلاف نزيل في بلسن . ويجدر بالذكر أن مالايقل عن ألف وسبعمائة سجين ماتوا فى يوم واحد هو ٢٣ أبريل ١٩٤٥ .

ويعترف جونين بأن معاقرة الخمور ساعدت البريطانيين على تحمل العمل فى مثل هذه الظروف الفظيعة كما أنها حمتهم من الإصابة باللوثة والجنون . وزاد من رغبتهم فى الشرب حتى الثمالة أنهم رأوا أنفسهم

عاجزين عن إنقاذ السجناء الذين كانوا يتساقطون أمامهم كالذباب . كانت مهمة مستحيلة وقليلة الجدوى فكل مانجح البريطانيون فى إجلائهم لايزيد عن مابين أربعة آلاف إلى سبعة آلاف سجين من مجموع سجناء بلسن البالغ عددهم نحو أربعين ألف سجين .

الحبر اليهودي ليسلى هاردمان Leslie Hardman يأسى لحال السجناء :

فى ١٦ أبريل عام ١٩٤٥ عاد الحبر اليهودى ليسلى هاردمان الملحق بالكتيبة البريطانية (٨) من هولندا إلى مقر القيادة البريطانية فى سيل التى استدعته إليها عقب وصوله . وأبلغه عقيد بالقيادة البريطانية أن الجيش البريطانى اكتشف وجود معسكر قريب للغاية (بلسن) قائلاً له : «إنه معسكر فظيع ولكن عليك أن تذهب إليه لأنك سوف تجد هناك كثيرين من بنى جلدتك» ، وفى اليوم التالى – أى بعد مرور ثمانية وأربعين ساعة على تحرير معسكر بلسن – استقل هاردمان السيارة تجاه هذا المعسكر وما أن وصل إليه حتى وجد أمامه أكوامًا من الجثث الملقاة على الأرض فشعر حيالها بالعجز . ثم توقف بسيارته قرب مدخل المعسكر عند الكوخ الذى كان رجال الوحدة الخاصة يشغلونه . وهناك أمضى معظم اليوم وهو يتحدث بلغة اليديش إلى مجموعة من الممرضات اليهوديات القادمات من بولندا وليتوانيا وشجعهن على الكلام عن حياتهن قبل إعتقالهن . وكان هدف الحبر من وراء هذا كما جاء على لسانه :

«شعرت بأنه بإمكانى تقديم أكبر عون لهن إذا استطعت تخفيف التوتر الرهيب الذى تعانى منه عقولهن المكلومة وإذا استطعت أن أدخل

بعض الدفء إلى قلوبهن التى تجمدت وأبث بعض العاطفة فى أجسادهن الهزيلة الناحلة، واستجابت إحدى الفتيات اليهوديات لطلب الحبر اليهودى فانطلقت وهى ترتعش فى غناء بعض المقاطع فى أغنية عبرية . وكان صوتها جياشاً بالعاطفة مما جعل الحبر اليهودى يضع رأسه على المنضدة ويجهش بالبكاء .

ورأى هذا الحبر جنديين بريطانيين يحملان أجولة بطاطس داخل المعسكر . وما أن شاهدهما السجناء حتى خرجوا من جحورهم وكأنهم أشباح هائمة . يقول هاردمان إن الجنديين فزعا من منظر هذه الأشباح الجائلة فوضعا أجولة البطاطس على الأرض ولاذا بالفرار . وفى الحال قفز السجناء على أجولة البطاطس وكأنهم أسراب من الجراد ، كل يحاول انتزاع مايمكن انتزاعه منها . وكاد السجناء فى عجلتهم وأنانيتهم أن يدوسوا بالأقدام على فتاة صغيرة تحت الأقدام لولا إنقاذ هاردمان لها .

كان الحبر ليسلى هاردمان ابن بائع أصواف نمساوى ، ألقى الجيش البريطانى القبض عليه فى الحرب العالمية الأولى باعتباره عدواً أجنبيًا . وأنجب هذا الرجل ابنه ليسلى عام ١٩١٣ فى منطقة نيث Neath بجنوب ويلز . ونشأ الابن فى مانشستر وليفربول فى عائلة يهودية شديدة الإستمساك بالتقاليد الدينية . وبعد إنهاء دراسته فى بعض المدارس اليهودية المحلية أصبح جزاراً ينحر المواشى طبقًا للشريعة الموسوية ، ثم حصل على درجة علمية فى اللغة الإنجليزية قبل أن يصبح حاخاما يقيم الصلاة فى المعبد اليهودى فى ستيفيلد . ولكن اهتمامه الحقيقى انصب على المذهب الصهيونى ومصير يهود أوربا . وأراد هاردمان الانخراط فى الحرب

العالمية الثانية فإلتحق عام ١٩٤٢ بصفوف الجيش البريطانى ككاهن أو قس.

وعند عودته إلى معسكر بلسن فى اليوم التالى رأى هاردمان إحدى الجرافات تجرف كومة من الجثث الآدمية لإلقائها فى حفرة واسعة سبق حفرها . وتوجه هاردمان إلى الضابط المسئول وسأله : «أليس من الأفضل إظهار توقير أكبر لهم» وأجابه الضابط أن هذا للأسف غير ممكن ثم إقترح عليه أن يعود إلى الحفرة بعد إمتلائها بالجثث كى يصلى صلاة جماعية عليها .

وفى عام ١٩٥٧ قام ليسلى هاردمان بسطر مذكراته عن معسكر بلسن بالاشتراك مع أحد الصحفيين . ولكن مذكراته تختلف فى كثير من المواضع عن روايات شهود العيان البريطانيين الآخرين .

ورغم أن البريطانيين نصحوا هاردمان بالتحكم فى عواطفه ، فإنه فشل فى ذلك عندما رأى منظر الجثث المتراكمة لدرجة أنه انهار يوم ٢١ أبريل ١٩٤٥ انهياراً كاملاً وانخرط فى نشيج عال فى ساعة متأخرة وهو يتجاذب أطراف الحديث مع الضابط باتريك جوردون ووكر . يقول هاردمان إنه سعى إلى توزيع خواتم الزفاف على الأرامل اللاتى فقدن أزواجهن فى معسكر بلسن لإدخال السلوى والعزاء إلى قلوبهن . ولكن آلمه أن يرى أرملة تتمزق من الحسرة على زوجها الذى فقدته فانخرطت فى بكاء يمزق نياط القلب . ولم يستطع هاردمان أن يتحمل منظرها وهى تبكى بحرقة دامية فتوقف عن توزيع خواتم الزفاف بنفسه على الأرامل ، وأناب عنه مساعدته اليهودية المجرية حتى يتمكن من الفرار من كوخ

النائحات المولولات .

وفي يوم ٢٠ أبريل قام ليسلى هاردمان بإقامة أول قداس يهودى فى معسكر بلسن والاحتفال بيوم السبت فى الهواء الطلق فى المعسكر (١) وتناول الأطعمة المسموح بها شرعاً فى مثل هذه المناسبات .

وشكا هاردمان من تباطؤ الجيش البريطانى فى مساعدة السجناء اليهود على إجتياز محنتهم ، فالتمس من رئيس الإدارة الطبية فى المعسكر أن يبادر بتقديم المزيد من العون إلى السجناء . واستمع العقيد جونستون إلى شكوى هاردمان بجدية وتعاطف وسمح له بإنشاء مركز للإسعافات الأولية فى المعسكر (١) .

وبالفعل قام هاردمان بتزويد إحدى الحجرات فى هذا المركز بنحو اثنى عشر سريراً . ورغم أن حجرة الإسعافات الأولية هذه لم تتسع لأكثر من ثلاثين مريضًا فإنها كانت أفضل من لاشىء . وفى هذه العيادة تولى طبيب بولندى معالجة الحالات الطارئة وأعطى مرضاه عقاقير ألمانية صرفها من الصيدلية فى محاولة حثيثة من جانبه للتخفيف عن بنى جلدته لحين إجلائهم من معسكر الموت (١) . ولم يقف اصرار هاردمان وإلحاحه عند هذا الحد ، بل حث البريطانيين على تحسين الطعام المقدم للسجناء . وذات مرة قام بنفسه بقيادة شاحنة فى المناطق الريفية المجاورة للمعسكر واستطاع أن يملأها بالفاكهة المحفوظة وبعض الفسيخ . وعندما أخبروه أن أحد المؤرخين البولنديين المرموقين يحتضر فى أحد الأكواخ وأن الجنود البريطانيين رفضوا مساعدته أو حتى الاقتراب منه خوفاً على حياتهم من العدوى ، لم يتردد هاردمان فى دخول الكوخ لإطعام هذا المريض بنفسه

بالفاكهة . غير أن السلطات البريطانية مالبثت أن غيرت موقفها منه ، فأمرته بالاكتفاء بتوزيع طعام الجيش على السجناء .

وأيضًا حث هاردمان سجناء بلسن بالكتابة إلى ذويهم ووعد بإرسال خطاباتهم بالبريد ، ولكن السلطات البريطانية سمحت لهم فقط بكتابة عبارات مبتسرة عن أنفسهم دون الدخول في أية تفاصيل عن أسلوب معاملة النازيين أو حتى عن تردى الأوضاع القائمة في معسكر بلسن ، الأمر الذى اضطر هاردمان إلى التدخل وإقناع الضابط بضرورة السماح لهؤلاء التعساء برواية حكاياتهم بالتفصيل . وعندما بدأ أقرباء السجناء يردون على خطاباتهم أقام هاردمان خدمة بريدية داخل المعسكر .

وفي نهاية الأمر بدأ البريطانيون يضيقون ذرعاً بالحبر هاردمان . ويبدو أن البريطانيين تضايقوا من فرط تحمسه لمساعدة بني جلدته والتدخل في قرارات الجيش لدرجة أن العقيد جونستون طلب من الحاخام الأكبر التابع لقيادة الجيش البريطاني ورئيس هاردمان في المرتبة الدينية استبعاده لأن هاردمان أصبح هستيرياً وفاقد السيطرة على أعصابه . وتنفيذاً لهذا الطلب توجه الحاخام إيزاك ليفي إلى معسكر بلسن لمقابلة هاردمان والتحدث معه . ولكنه ما أن دخل ليفي المعسكر حتى ارتاع من منظر السجناء ، ثم ظهر له هاردمان .

يقول ليفي في رسائله إلى زوجته : «مددت يدى كي أصافحه (أى هاردمان) فقام بمعانقتي وأجهش بالبكاء كالأطفال .. وشاهد الناس من حولي بكاءه فأخذوا ينخرطون في البكاء . فاضطررت إلى الانتحاء به جانبًا حتى يتماسك ويسيطر على عواطفه . إنه ليس رجلاً هستيرياً بل هو

إنسان منهك عليه أن يبتعد عن المكان وينعم بأجازة بعض الوقت» . ولكن هاردمان رفض بشدة أخذ أجازة وتعمد أن يأخذ ليفى إلى واحد من أكثر الأكواخ سوءاً فخرج ليفى ممتقعاً تعلو وجهه صفرة الموت وهو يتمتم «هذا فظيع .. فظيع ..» ، وبدلاً من اقناع هاردمان بأخذ أجازة والبعد عن المكان ، استطاع هاردمان إقناع رئيسه الدينى بعكس ذلك .

تعزيز الخدمات الطبية فى معسكر بلسن (١) فى الفترة من ٢٤ حتى ٣٠ أبريل ١٩٤٥ :

فى يوم ٢٣ أبريل ١٩٤٥ وصل فريق من هيئة الأنباء البريطانية إلى معسكر بلسن لتصوير أول شريط ناطق داخل هذا المعسكر . وقد سبق لمصورى الجيش البريطانى تسجيل مشاهداتهم فى هذا المعسكر فى أفلام صامتة .

وتولى مهمة التصوير الناطق رجل يدعى بول وياند Paul Wyand الذى أصدرت إليه وزارة الإعلام البريطانية تعليمات بكيفية التقاطه للصور حتى لاتبدو أنها مجرد دعاية تهدف إلى فضح الوحشية النازية ، بل تقريراً عن حقيقة ماجرى فى معسكر بلسن .

ولتحقيق هذا الهدف قام المصور السينمائى بياند بالتقاط صور لعدد من شهود العيان صورهم أمام المعسكر للإدلاء بشهاداتهم أمام الكاميرا . وكان هؤلاء الشهود يضمون قساً بريطانيًا وعقيداً فى سلاح المدفعية البريطانية وجندياً يمثل وجهة نظر الرجل العادى .

وفيما يلى ماقاله هذا الجندى : «اليوم يوافق ٢٤ أبريل ١٩٤٥ . اسمى جنر إيلنجورث Gunner Illingworth وأعيش فى منطقة شيشاير Che-

shire وإني في الوقت الحالي أتولى حراسة أفراد وحدة البوليس الخاصة الموجودين في بلسن . لايمكن تصور ما آلت إليه الأمور في هذا المعسكر . وعندما يرى أي إنسان مانراه بالفعل يدرك القضية التي نحارب من أجلها هنا . إن الصور المطبوعة على الورق تعجز تماماً عن وصف ماجرى . فالأشياء التي ارتكبت لايمكن للمرء أن يتصور بالمرة صدورها عن أي إنسان .. الآن نحن نعرف حقيقة ماجرى في هذه المعسكرات . وإني شخصياً أعرف ما أحارب من أجله».

وأيضاً التقط وياند صوراً سينمائية لعدد كبير من السجناء من بينهم الدكتورة اليهودية هاداساه بيمكو التي تمالكت مشاعرها وتحدثت باستفاضة باللغة الألمانية ، دون أن تسمح للعواطف أن تتغلب عليها . وأخيراً قام المصور بتصوير الكثير من العاملين في إدارة معتقل بلسن وهم واقفون أمام أكوام الجثث ، إلى جانب تصوير الطبيب الألماني فريتز كلاين الذي اشتهر بفرز السجناء في معسكر أوشويتز تمهيداً لإرسالهم إلى غرف الغاز أو معسكرات العمل . وانصرف هذا الطبيب المعروف بإسم طبيب بلسن المجنون لمدة أسبوع كامل إلى دفن الموتى .

يقول بول وياند في هذا الشأن:

«أحضرت كلاين إلى حافة الحفرة التي كان يلقي الجثث المتراكمة فيها . وظهرت في خلفية المنظر جثث أخرى يلقى بها في الحفرة بالطريقة نفسها . وجاء جنديان لمساعدتي فوقف كلاهما بجانب الطبيب . كان كلاين يرتجف من الخوف . وبدأ أشبه مايكون بالملتاث بعد الجهد الذي بذله خلال الأيام القليلة الماضية . وشرحت له الفتاة البولندية (التي تعمل

كمترجمة) المطلوب منه . وما أن تحدث حتى بدأت فى تصويره . ولم يتفوه إلا بكلمات قلائل فإذا بالفتاة المترجمة تصرخ قائلة (توقف عن التصوير لأن كلاين ذكر اسمه ووظيفته سليمين ولكنه أخطأ فى ذكر السنة) . عندئذ أخذ الجنود البريطانيون يدفعونه بمؤخرات البنادق ، كما عادت الفتاة الألمانية إلى الصراخ فى وجهه . عندئذ استأنف كلاين الكلام ، ولكنه فى هذه المرة التزم الصدق فى أقواله ».

وأيضًا أرادت وزارة الإعلام البريطانية أن تبين تورط المدنيين الألمان فى الفظائع النازية . ولهذا جئ بعمدة سيل وعمد المدن المجاورة لها إلى معسكر بلسن بعد ظهر يوم ٢٤ أبريل ١٩٤٥ لمشاهدة الموقع . ثم جئ بهم أولاً إلى حافة الحفرة التى امتلأت آنذاك إلى نصفها بالجثث والهياكل العظمية ، ووقف رجال ونساء الوحدة الخاصة الألمانية فى طابور العرض إلى جانب المقبرة الفاغرة فاهها . وطلب من العمد الوقوف إلى جانب الحفرة . ثم حضر الضابط ديريك سنجتون فى سيارة تحمل مكبراً للصوت بصحبة القائد العسكرى العقيد سبوتيسورد الذى قرأ أمام مكبر الصوت باللغة الألمانية التى تعلمها فى أوكسفورد إدانة للجرائم النازية بينما وقف جمهور الحاضرين فى صمت .

وقام البريطانيون بتذكير العمد الألمان الحاضرين بأنهم جاءوا بعد تنظيف المكان حيث إن البريطانيين قضوا أسبوعًا بأكمله فى تنظيف المعسكر وأن حالته كانت أسوأ من ذلك بكثير . واستمر العقيد سبوتيسوود فى إدانة النازية قائلاً : «ماترونه هنا عبارة عن إدانة نهائية ومطلقة للحزب النازى . وهو يبرر أى إجراء سوف تتخذه الأمم المتحدة فى سبيل القضاء

على هذا الحزب . والذى سترونه هنا عار وشنار على الشعب الألمانى لدرجة أن اسم هذا الشعب يجب أن يمحى من قائمة الشعوب المتحضرة، ومضى سبوتيسوود يقرع الألمان الذين سمحوا لهتلر وزبانيته أن يقترفوا مثل هذه الجرائم بقوله : «يجب أن تتوقعوا التكفير عن طريق الكد والعرق عما اقترفه أبناؤكم وعما فشلتم فى منعه من الحدوث» .

ويبدو أن المصور ورياند وصل إلى المعسكر فى الوقت المناسب ليشهد الفاجعة الإنسانية فى ذروتها حيث أن حال المعسكر بدأ يتحسن بعض الشيء يوم ٢٤ أبريل ١٩٤٥ .

ومن دلائل هذا التحسين أن البريطانيين تمكنوا فى نهاية الأمر من حل مشكلة دفن السجناء الموتى . وصرح ضابط فى هذا الشأن بأن معدل دفن الموتى انخفض بشكل واضح ، ثم أضاف قائلاً : «أقوم الآن بدفن أقل بقليل من ثلثمائة جثة كل يوم ، فى حين كان معدل الدفن فى البداية خمسمائة جثة ، كما أننا نقوم يومياً بإجلاء خمسمائة سجين إلى مدرسة بانزر للتدريب العسكرى » .

ويمكن القول بأن السلطات البريطانية استطاعت يوم ٢٨ أبريل ١٩٤٥ التغلب نهائيًا على مشكلة دفن الموتى فى قبور جماعية . وهكذا اختفت أكوام الجثث عن الأنظار . ونتيجة لهذا ارتفعت الروح المعنوية لدى المسئولين البريطانيين ؛ خاصة بعد أن تلقوا رداً على الاستغاثة التى كان البريجادير جلين هيوز قد أرسلها فى مساء يوم ١٥ أبريل ، كما أن التعزيزات والخبرات الطبية البريطانية بدأت تصل إلى معسكر بلسن ، وعلى رأسها الخبير فى مرض التيفوس الطبيب الملازم دابليو.أ. دافيز W. A. Davies التابع للفرقة رقم ٢١ .

ويرجع الفضل الأكبر فى محاربة التيفوس إلى مراكز الأبحاث الطبية الأمريكية التى استحدثت مصل كوكس Cox فى مؤسسة روكفلر البحثية فى نيويورك عام ١٩٤٠ إلى جانب استخدام المبيد الحشرى المعروف بالـ د.د.ت . وكان لهذا الضابط الأمريكى دافيز خبرة سابقة بنجاحه فى القضاء على وباء التيفوس الذى تفشى فى نابولى بإيطاليا عام ١٩٤٤ .

وفى يوم ٢٢ أبريل ١٩٤٥ تجرأ الملازم ديفز ودخل معسكر الموت (رقم ١) الذى تفشى فيه وباء التيفوس لعلاج السجناء المرضى الذين غطت الأوساخ والقاذورات والحشرات أجسامهم ، لدرجة جعلت من العسير على الأطباء الكشف عليهم لمعرفة إذا كانوا مصابين بأعراض التيفوس أم لا . واكتشف دافيز وفريقه الطبى بعد فحص عشرين حالة مأخوذة من عشرة أكواخ أعراض إصابتهم بالتيفوس .

وساعد على انتشار هذا المرض سهولة انتقال المرضى من مكان إلى آخر، ناهيك عن ازدحام الأكواخ بالسجناء . وتمثلت كبرى المشكلات فى إحجام كثير من أفراد القوات المسلحة البريطانية عن دخول الأكواخ الموبوءة بسبب شدة العفن المنبعث منها . ورفض كثير من الأطباء بالفعل المخاطرة بحياتهم . ولكن دافيز استطاع إيجاد حل لهذه المشكلة بأن قام بترقية الجنود الذين يقبلون دخول أكواخ الموت إلى رتب أعلى ، فضلاً عن اعتماده على الجنود المجريين الذين أسرهم النازيون وعلى الفتيات الأسيرات البولنديات فى تطهير الأكواخ بمسحوق الـ د. د. ت. واستغرقت عملية التطهير والرش تسعة أيام . وبحلول يوم ٣٠ أبريل ١٩٤٥ تمكنت

فرق الرش من تطهير نحو ثلاثين ألف سجين وفراشهم فى المعسكر (١) . ورغم أن إدارة المعسكر الصحية لم تتوقع نجاحها فى قتل جحافل القمل المنتشر فى المعسكر إلا أنها حددت موعداً لانتهاء وباء التيفوس فى ٢١ مايو ١٩٤٥ .

وعلى أية حال ، كان ديفيز وفريقه الصحى فى غاية اليقظة ؛ الأمر الذى مكنهم من منع وباء التيفوس من الانتشار ، كما أنهم منعوا أى نزيل من مغادرة المعسكر إلا بعد تطهيره بالمبيد الحشرى تطهيراً كاملاً . وعند محطات الإجلاء أقامت إدارة معسكر بلسن الصحية نقاطاً للتفتيش والمراقبة تتكون من الجنود المجريين الذين أسرهم الألمان ، مهمتها تطهير أى مغادر قبل الصعود إلى الشاحنة التى تقله إلى أى مكان آخر .

وفى قطاع المعسكر (٢) الذى يأوى السجناء الأوفر صحة ، أصدر البريطانيون تعليمات بعدم استعمال الأسلوب الألمانى فى التطهير عن طريق أجهزة عتيقة تقوم بتسخين درجة حرارة الجو . واستبدل البريطانيون هذه الأجهزة غير الفعالة بنقاط أو محطات تطهير ورش بمسحوق الـ د. د. ت ، والتحقت للعمل فى هذه النقاط فتيات بولنديات لهن خبرة سابقة بالتمريض .

وأيضًا وصل إلى المعسكر أخصائيون طبيون آخرون ، من بينهم المقدم البريطانى مارتن ليبسكومب Martin Lipscomb الذى تم تعيينه مستشاراً للشئون الغذائية يوم ٢٣ أبريل . لم يكن هذا الرجل متخصصاً فى علوم التغذية ولكنه كان صاحب تجربة واسعة فى طب البلاد الاستوائية اكتسبها من فترة عمله الطويلة فى الهند . ودفعه تواضعه إلى استشارة كبار

خبراء التغذية أمثال السير چاك دراموند Jack Drummond (عالم التغذية البريطانى الثقة إبان الحرب العالمية الثانية) وكذلك الخبير الغذائى الدكتور أرنولد مايكل جون Arnold Micklejohn الذى أرسلته وكالة غوث اللاجئين إلى بلسن .

وقد قام المقدم ليبسكوم بإجراء تجارب غذائية على نزلاء معسكر بلسن ليعرف أى نوع من التغذية يصلح للمشرفين على الموت نتيجة الجوع. واكتشف هذا الرجل والفريق العامل معه أن أمعاء مثل هؤلاء المرضى غير قادرة على تحمل الدسم الموجود فى اللبن المحفوظ . ولهذا نصحوا بضرورة تخفيفه بالماء . وبوجه عام قسم فريق التغذية طعام المعسكر إلى : (١) تغذية تصلح للسجين العادى ، (٢) تغذية تصلح لنزيل المستشفى وتكونت وجبة السجين العادى من ١٦ أوقية بطاطس وبعض اللحوم والخضراوات المحفوظة ، فى حين تلقى مريض المستشفى كمية أقل من اللحوم والخضراوات المحفوظة .

وتوصل ليسكومب إلى غذاء مركب ، وافق على استخدامه الخبير الغذائى الكبير السير جاك دراموند عند زيارته لمعسكر بلسن يوم ٢٢ أبريل ١٩٤٥ . وفى حالة المريض المتضور جوعًا اكتفى ليسكومب بإعطائه لبناً وسكراً وفيتامينات للتقوية . أما إذا كانت حالة المريض أفضل بعض الشيء فقد اقترح ليسكومب أن يتكون غذاؤه من لبن منزوع الدسم وسكر وكميات صغيرة من الخبز واللحوم والخضراوات المحفوظة . فضلاً عن البطاطس والشوربة والبيض إذا وجد . وأعطى ليسكومب الأصحاء طعاماً يومياً يصل إلى ٢٣٠٠ سعراً حراريًا وكمية سخية من البروتين الحيوانى والخبز والبطاطس بهدف تسمينهم .

غير أن الجيش البريطانى واجه مشاكلات ضخمة فى مجال الأغذية أثارها السجناء الروس بوجه خاص . كان معسكر بلسن (١) يضم سجناء مدنيين ، فى حين ضم المعسكر (٢) الجانب الأكبر من فرقة من الجنود الروس نجح النازيون فى أسرها عن بكرة أبيهم تقريباً .

وبمجرد أن استولى الجيش البريطانى على معسكر بلسن ، جاء ضابط اتصال روسى مطالبًا بحق السجناء الروس فى الحصول على نفس الوجبة التى يحصل عليها الجندى البريطانى الذى يحارب فى ميدان القتال، طبقًا للاتفاقية التى وقع عليها الحلفاء . وعبثًا حاول العقيد البريطانى جونستون أن يشرح له أن تنفيذ هذه الاتفاقية بحذافيرها سوف يعود بالضرر الصحى على السجناء الروس الذين يتضورون جوعًا . ورد عليه ضابط الروس بقوله : «إن معدة الروس مختلفة» وأصر على ضرورة إعطاء الفرقة الروسية الأسيرة الوجبة نفسها التى تعطى للجندى البريطانى المقاتل . وأيضًا استخدم ضابط الاتصال الروسى لغة التهديد والوعيد إذا لم يستجب جونستون لطلبه ، وتجنبًا للمشكلات ، رضخ الجيش البريطانى لمطالب الروس ، فصرف لهم طعامًا يوميًا تصل سعراته الحرارية إلى ٣٠٢٠ سعراً . وكتب جونستون يقول فى هذا الصدد اضطررنا فى نهاية الأمر إلى عزل السجناء الروس عن بقية السجناء وأن نطلب من السجناء الأطباء من بنى جلدتهم أن يتحملوا المسئولية» .

وبناءً على الطلب الذى تقدم به البريجادير جلين هيوز ، أرسلت منظمة الصليب الأحمر إلى بلسن فريقًا طبيًا مساعداً وثمانية ممرضات أيرلنديات كى يعملن فى البلاد الأوربية . وتسلم هؤلاء إشعاراً عاجلاً

بضرورة مغادرة هولندا والتوجه إلى شمال ألمانيا بعد مضى أربعة عشر ساعة . ووصل هذا الفريق إلى معسكر بلسن يوم ٢١ أبريل ١٩٤٥ لمعالجة السجناء المصابين بالتيفوس ، والتحق بالعمل كسائقى سيارات الإسعاف أربعة وعشرون رجلاً من العاملين فى منظمة الصليب الأحمر لنقل المرضى من معسكر الموت (١) إلى المستشفى والمغسلة البشرية ، كما تم إرسال البعض منهم للمساعدة فى مطابخ المعسكر (١) .

وأثناء عملهم فى المعسكر تحت راية الصليب الأحمر ، اكتشف متطوعان من أتباع الطائفة الدينية المعروفة بالكويكرز - وهما رانكين Rankin وبيل براوتون Bill Broughton - أن مشكلة المعسكر الرئيسية تكمن فى عدم صلاحية مياه الشرب قطعيًا . وعندما رأى الرجلان أن الجيش البريطانى لايأبه بحل هذه المشكلة سعيًا إلى حلها بنفسيهما مستعينين بعدد من السجناء المجريين . وكان أول مافعله هذان الرجلان هو دعك وتنظيف تنكات المياه الضخمة العارية . وكما يقول أحد العاملين فى تنظيف هذه التنكات :

«كانت رائحة التنكات والماء الموجود فيها مروعة . ولكننا استطعنا بجهد جهيد تفريغ التنكات وتنظيفها ووضعنا فيها مادة الكلور لأول مرة» . وهكذا لفت رانكين وبيل الأنظار إليهما . وبعد أن انتهت وحدة الجيش المكونة من ثلاثين جندياً من دفن الموتى ورش السجناء بمادة الـ د. د. ت، بدأت تهتم بمشكلة المياه والصرف الصحى . وطلبت الوحدة من بيل أن يعالج مشكلة الصرف الصحى الذى كان فى حالة مفزعة . واستطاع هذا الرجل بمساعدة العمالة المجرية والمدنيين الألمان عن طريق خراطيم

المطافئ والحفر فى الأرض بهمة ونشاط تطهير شبكة الصرف الصحى المسدودة . وأدى هذا إلى تكوين مستنقع قذر وعفن أغرق الطرف الأسفل من المعسكر . وأخرج العمال من شبكة الصرف الصحى معطفين وبطانيتين وكمية هائلة من الملابس المهلهلة والسجاجيد وأشياء أخرى . واكتشف بيل وعماله اختلاط مياه الشرب بمياه الصرف الصحى ؛ الأمر الذى أدى إلى وفاة كثير من السجناء.

والجدير بالذكر أن معظم العاملين فى منظمة الصليب الأحمر فى معسكر بلسن كانوا من النساء الأمر الذى سبب ضيقاً لقادة المعسكر الذين اعتقدوا أن النساء سوف يشكلن عبئًا يثقل كاهلهم . ولكن اتضح لهم أن هذا غير صحيح بالمرة ، فقد تفانت النساء فى عملهن . ومن ناحية حاول العقيد جونستون منع ممرضات الصليب الأحمر من دخول معسكر الموت (١) ، ولكنه سمح لممرضتين بالدخول فيه بسبب إصرارهما على العمل فيه. وأيضًا احتجت الممرضة جين ماك فارلين Jean McFar-lane لدى الضابط جونين لمنعها من دخول معسكر الموت (١) وأصرت على أن صورة المعسكر الحقيقية لن تكتمل فى ذهنها إلا إذا دخلت هذا المعسكر .

تمثلت الخطة التى وضعها الجيش البريطانى فى الإجلاء الجماعى لسجناء بلسن طبقًا لجنسياتهم ووفقًا لترتيب معين . وبناءً عليه قرر البريطانيون البدء بإجلاء الفرنسيين ثم البلجيكيين ثم الهولنديين ثم أهل لوكسمبورج . وكان مبررهم فى ترحيلهم بهذا الترتيب أن هذا سوف يمكن السجناء القادمين من دول أوربا الغربية من العودة إلى ديارهم فى أسرع

وقت ، فى حين أن عودة سكان أوربا الشرقية سوف تستغرق وقتًا أطول، ومن ثم ضرورة إرجاء ترحيلهم إلى بلادهم . وأيضًا تقرر إجلاء السجينات قبل السجناء . وتعين على كل مرتحل أن يمر بأربع مراحل : (١) النداء على إسمه كى يخرج من كوخه (٢) تسجيل اسمه (٣) استحمامه وتطهير جسمه من الحشرات (٤) الصعود إلى الشاحنات التى سوف تقله .

وفى الساعة التاسعة من صباح يوم ٢٤ أبريل ١٩٤٥ ، قاد شاويش تابع للضابط سنجتون سيارته العسكرية حتى وصل بها إلى معسكر النساء الأصغر . ودعا من خلال مكبر الصوت كل الفرنسيات والبلجيكيات والهولنديات وقاطنات لوكسمبورج إلى التجمع خارج أكواخهن والإصطفاف فى طابورين حاملات معهن القليل من المتاع . ونفذت النساء هذه التعليمات ثم حضرت شاحنة لنقلهن إلى نقطة تسجيل الأسماء الذى كان فيما مضى مقصف رجال وحدة البوليس الخاصة النازية .

وقد استمرت عملية الإجلاء هذه طوال اليوم . وكانت هناك محاولات من بعض النسوة لتجاوز دورهن فى الصعود إلى الشاحنة . ويصف لنا سنجتون الهرج والمرج الذى ساد النساء وهن يتدافعن ويتسابقن للصعود إلى الشاحنة. وعبثًا حاول هذا الضابط السيطرة على الموقف . ولتنظيم صعود النسوة إلى الشاحنة طالب كل سجينة بإبراز بطاقة هويتها . ولم تمض دقيقة أو دقيقتان حتى هجمت النساء عليه فوجد سنجتون نفسه فى نهاية الشاحنة مثبتًا فى مكانه ومحاصراً من كل جانب بالنساء المتدافعات . وبصعوبة بالغة استطاع سنجتون انتزاع نفسه من هذا الزحام ومن هذه الأمواج البشرية المتلاطمة .

وفى يوم ٢٤ أبريل ١٩٤٥ تم إجلاء ستمائة امرأة صحيحات البدن من المعسكر (١) وستمائة امرأة أخرى فى اليوم التالى . ثم ارتفع معدل الإجلاء اليومى للنساء إلى ألف امرأة يوميًا . وبحلول يوم ٢٨ أبريل تم إجلاء جميع النساء القادمات من دول غرب أوربا من معسكر الموت رقم (١) ، وبعد ذلك انصرف الجيش البريطانى إلى إجلاء الأصحاء من المعسكر رقم (٢) وإرسالهم إلى ديارهم . وفى ٢٥ أبريل تحرك رتل من السجناء الفرنسيين للصعود إلى شاحنات الإجلاء وهم يعزفون نشيد المارسيليز فيما رقص الجنود البريطانيون على أنغامه .

وتذمر الذين انتظروا بفارغ صبر حلول دورهم وحدثت أعمال شغب بينهم ، فالكل يريد أن ينجو بحياته من وباء التيفوس .

ورغم كل مابذله الجيش البريطانى من جهد من أجل تحسين الأحوال المعيشية فى معسكر بلسن ورغم إدخال قدر كبير من التحسن الفعلى فيه ، فقد ظلت معدلات الوفيات مرتفعة حتى يوم ٢ مايو ١٩٤٥ وتسبب الجوع الذى كابده السجناء تحت الإدارة النازية فى وفاة الكثيرين .

وفى اليوم المشار إليه كتب العقيد جونستون يقول : «إن الفشل يرجع إلى سوء توزيع الطعام حيث أن السجناء اتبعوا سياسة أنا ومن بعدى الطوفان فلم يحاولوا إطعام آلاف المرضى والضعفاء من زملائهم . وكانت النتيجة أن الأصحاء التهموا وجبات المرضى بالإضافة إلى وجباتهم ، وهو الأمر الذى أصاب الأصحاء بالإسهال وأدى إلى تضور المرضى جوعاً» .

وللتخفيف من قتامة هذه الصورة ، أعلن جونستون عن وصول مائة طالب طب بريطانى إلى معسكر بلسن للمساعدة فى إطعام المرضى والضعفاء .

طلبة الطب البريطانيون يتطوعون للعمل فى بلسن :

فى بداية شهر أبريل ١٩٤٥ ظهر إعلان فى كليات الطب فى لندن يطلب متطوعين للسفر إلى هولندا لمعالجة الأطفال الذين يموتون من الجوع هناك ، ويستخدمون معهم التجارب الطبية الجديدة المتمثلة فى تغذيتهم عن طريق الأنابيب بسائل يحتوى على البروتين والهيدروليسات hydrolysate والجلوكوز والفيتامينات . وكان طلبة الطب البريطانيون يعانون من عقدة الذنب لأنهم لم يذهبوا إلى الحرب ضد ألمانيا النازية . ولهذا استجاب للإعلان فى الحال ٩٦ متطوعًا للذهاب إلى هولندا . وبالفعل تم حقنهم بالمصل الواقى من التيفوس والأمراض المعدية الأخرى . وتسلموا يونيفورم الجيش لارتدائه ، غير أن عدة أسابيع مضت دون استدعاء السلطات العسكرية البريطانية لهم الأمر الذى أصابهم بخيبة أمل عظيمة .

وفجأة قامت السلطات العسكرية البريطانية باستدعائهم للذهاب إلى مقر الصليب الأحمر فى لندن . غير أن رئيسة الصليب الأحمر فى لندن جاءت لتقول لهم إن الجيش البريطانى اكتشف وجود معسكر اعتقال فى بلسن . ومن ثم تقرر ذهابهم إليه بدلاً من التوجه إلى هولندا لمعالجة الأطفال الهولنديين الجائعين . وقبل المتطوعون أداء هذه المهمة الجديدة ، وكانت عشرة أيام قد مضت على تحرير معسكر بلسن .

يقول مايكل هارجريف Michael Hargrave أحد المتطوعين إنهم كانوا ينتظرون بفارغ الصبر اليوم الذى يرحلون فيه لأداء هذه المهمة التى تغير موقعها من هولندا إلى بلسن . غير أن سوء الأحوال الجوية منع سفرهم لبضعة أيام ثم أقلتهم ست طائرات داكوتا وأنزلتهم فى سيل فى شمال ألمانيا

. وبعد اجتياز بعض العقبات ، تمكن المتطوعون من الوصول إلى ثكنات مدرسة بانزر للتدريب العسكرى .

ورغم مرور أكثر من أسبوعين على تحرير معسكر بلسن ، قد ظل نزلاؤه يموتون فى كل أرجائه ؛ كما كانت النسوة يقضين حاجتهن فى العراء . ويذكر طالب الطب روجر ديكسى Roger Dixey العفن المنتشر في كل مكان والجثث الملقاة بالآلاف على الأرض ترفعها الجرافات لتلقى بها فى الحفر . وتم توزيع العمل على المتطوعين فنصحهم بيتر هورسى Peter Horsey المسئول عن المعسكر بعدم التفكير فى فظاعة المناظر التى يشاهدونها والتركيز على أداء عملهم بكل همة ونشاط حتى لايعطوا أنفسهم فرصة للتفكير فى بشاعة مايرون .

يقول المتطوع إيان بروكتور Ian Proctor فى هذا الشأن :

«دخلنا الكوخ ووضعنا أيدينا على أنوفنا . ونظر كل واحد منا إلى الآخر ونحن نتساءل : من أين نبدأ . كان الكوخ مليئًا بأناس لم أشاهد طول حياتى من هم أشد منهم نحافة وهزالاً . وكان يفترض وجود مرحاض فى الطرف البعيد من المعسكر ، ولكنهم لم يقدروا على الوصول إليه . ولما كان هذا المرحاض غارقًا فى البراز الذى يصل ارتفاعه إلى رقبة الحذاء تعين على المرء أن يخوض فيه . وكان الناس حينذاك أضعف من أن يسيروا إلى المرحاض وكانوا يرقدون وسط برازهم وبولهم المتساقط من الأسرة الأعلى على الأسرة الأسفل .. شيء فى منتهى الفظاعة» .

وقد صور آلان ماك أوسلان Alan mac Auslan فى عام ١٩٤٥ امرأة ناحلة تسهل على نفسها أمامه . فقد بلغ بها الوهن مبلغاً عظيماً جعلها تعجز عن رفع عجزها عن الأرض لدرجة أن برازها وسخ فخذيها .

واختلف عدد النزلاء من كوخ لآخر ، فبعض الأكواخ احتوت على مائتى امرأة وبعضها الآخر احتوى على ١٠٤٥ امرأة . وبعضها احتوى على نساء بولنديات وروسيات ، فى حين أن بعضها الآخر احتوى على نساء من دول أوربا الغربية .

والجدير بالذكر أن مجموعة من المتطوعين مكونة من عشرة أشخاص اقتنعت بعدم جدوى العمل فى الأكواخ . ولهذا السبب آثروا التطوع لتنفيذ خطة وضعها الملازم الطبيب جلوك Gluck ، وهو يهودى من تشيكوسلوفاكيا تم تعيينه للخدمة يوم ٣٠ أبريل فى معسكر الموت (١) واقترح هذا الرجل خطة شبيهة بخطة الحبر اليهودى هاردمان تتمثل فى تحويل إحدى غرف المعسكر (١) غير المسكونة إلى مستشفى لمعالجة الحالات الحرجة لحين التمكن من إجلائها . والجدير بالذكر أن عدد كبيراً من الأكواخ أمكن فيما بعد تحويلها إلى مستشفيات من هذا القبيل .

كان جلوك رجلاً غير عادى فى قدرته على صنع المعجزات ، أسندت إليه مهمة الإشراف على تطهير وتنظيف ثلاثة أكواخ وغسل المرضى فى المغسلة البشرية ، قبل نقلهم إلى المستشفى . وفى خلال أسبوعين فقط تمكن هذا الرجل من غسل وتطهير ١٢٠٠ مريض قبل إعادتهم إلى أكواخهم بعد تنظيفها . وقد لعبت الممرضات البولنديات دوراً نشيطاً ، فضلاً عن أن الممرضات المجريات حذون حذوهن .

ويحدثنا أحد طلبة الطب الإنجليز المتطوعين للعمل فى بلسن ، فيقول إن عملية فرز الموتى من الأحياء كانت من أشق الأمور لأنه لم يكن من السهل التمييز بينهم . ومما زاد من مشقة عزل الأحياء عن الموتى أن

بعض الأحياء رفضوا الافتراق عن أحبائهم من الموتى . ولهذا تدخل الممرضون المجريون لانتزاع جثث الموتى بالقوة منهم ونقلها خارج الكوخ حتى يأتى الممرضون الألمان لنقلها .

كان فى مقدور المتطوعين البريطانيين تشخيص أمراض السجناء ومعرفة من منهم يعانون من الجوع أو الإسهال أو الأوديما الناجمة عن الجوع أو السل ، ولكن كان من العسير علاجهم ، فقد كتب أحدهم فى ١٩٤٥ يقول : «من الناحية الطبية لم يكن باستطاعتنا عمل الكثير خلال أول أسبوعين بسبب نقص العقاقير وخدمات التمريض . أضف إلى ذلك مشكلة العائق اللغوى ، حيث أنه لم يكن من السهل على ممرضة بولندية لاتعرف من اللغة الفرنسية سوى بضعة كلمات أن تشرح لروسى مريض بالحمى كيفية تناول جرعات السلفا» .

وذهب المتطوع دافيد براد فورد David Bradford إلى الرأى نفسه، عندما قال : «يكاد العلاج الطبى أن يكون مستحيلاً» . يقول برادفورد فى يومياته إن المرء لم يكن بوسعه أن يفعل شيئًا غير أن يعطى برشامة لهذا المريض أو ذاك أو قرصاً من الأسبرين أو الأفيون .. لم تكن جهودنا الطبية مجدية أو ذات نفع . ولعل أملنا انحصر فى جعل هؤلاء المرضى يحسون بوجود من يهتم بهم . وأدى نقص المعدات الطبية إلى قيام المتطوع مايكل هارجريف بشق خراج فى صدر مريض بشفرة موس حلاقة بعد تسخينه بالنار ، ثم تبريده فى الكحول دون إعطاء المريض مخدر أو مسكن للألم .

ومن ثم تركزت مهمة المتطوعين البريطانيين الأساسية فى تغذية المرضى . وطلب العقيد جونستون منهم التأكد من حصول كل سجين فى

المعسكر (١) على شيء من الطعام . وفى حين تشير السجلات البريطانية إلى نجاحهم فى استحداث أنظمة غذائية تناسب سجناء المعسكر (٢) ، تدل يوميات الطلبة المتطوعين على أن وجبة نزيل المعسكر (١) تكونت أساساً من الشوربة الدسمة وبعض اللحوم والخضراوات والخبز الأسود ، وهو غذاء لم تتحمله معدة معظم سجناء هذا المعسكر مما سبب لهم القئ . كما أن النزلاء الأصحاء وجدوه غير كاف . وعندما لاحظ المتطوعون أن طعام المرضى لايصلح للأصحاء وجدوا لزاماً عليهم تقسيم التغذية إلى نوعين ، نوع يناسب الأصحاء ونوع آخر يناسب المرضى . ولهذا لجأت إدارة المعسكر – كما أسلفنا – إلى تخفيف الدسم الموجود فى الطعام قبل إعطائه للسجناء المرضى ، فضلاً عن تقديم البسكوت إليهم بدلاً من الخبز الأسود إلى جانب المربة وبعض الكماليات الأخرى .

ولكن نجاح البريطانيين فى تحسين نوعية الطعام لايعنى وصوله إلى مستحقيه ، فقد لاحظ المسئولون عن المعسكر أن قادة كل معسكر يستأثرون بالطعام ويحرمون الضعاف منه ؛ الأمر الذى جعلهم يشددون الرقابة عليهم لمدة تصل إلى مايقرب من أسبوعين .

وعهد الجيش البريطانى إلى شخص يدعى تريمر Trimmer بحراسة مخزن ضخم ملئ بالشيكولاته والبيض وعلب الأطعمة المحفوظة . وكانت جوانب هذا المخزن الكبير من القضبان الحديدية ، ومع ذلك استطاع سجين نحيف التسلل من فتحاتها إلى الداخل حيث التهم بشراهة كل ماطالته يده من الطعام ، فانتفخت بطنه وعجز عن الخروج من بين قضبان المخزن . وفى صباح اليوم التالى دخل عليه تريمر ليجده مريضاً

وشاحب الوجه ونادماً على مافعل ، وقدم الجيش البريطانى هذا السجين للمحاكمة لتسلله خلسة إلى المخزن .

والجدير بالذكر أن الجيش البريطانى كانت لديه خبرات سابقة خاصة بالتغذية فى مجالات المجاعات والتضور جوعاً فى مستعمراتها والبلاد التابعة لها ، مثل المجاعة التى أودت بحياة ملايين الأيرلنديين فى الفترة من ١٨٤٥ حتى ١٨٤٨ ، والمجاعات التى حصدت أرواح ملايين الهنود فى أواخر عهد الملكة فيكتوريا . بالإضافة إلى وفاة ثلاثة ملايين نسمة عام ١٩٤٣ فى إقليم البنغال ، الأمر الذى يمثل صفحة سوداء فى تاريخ الاستعمار البريطانى للهند . هذه المجاعات المتكررة دفعت مراكز الأبحاث البريطانية إلى الاهتمام بكيفية معالجة مشكلات الذين يتضورون من الجوع .

وفى أثناء الحرب العالمية الثانية طلبت الحكومة الهولندية من الحكومة البريطانية أن تساعدها على التغلب على مشكلة المتضورين جوعاً من شمال هولندا . ولهذا طلب مجلس الأبحاث الطبية البريطانى من شركات الأدوية البريطانية إنتاج كميات وفيرة من دواء البروتين هيدروليسات تكفى لعلاج ستين ألف مريض . وكلفت بريطانيا مائة طالب طبى فى لندن بالذهاب إلى هولندا لاختبار مدى فاعلية هذا الدواء . وأيضاً طلبت الحكومة البريطانية الشىء نفسه من طبيبين أرسلتهما إلى بروكسل لتجريبه على أسرى الحرب البريطانيين هناك . غير أنه اتضح لها أن عدد هؤلاء الأسرى قليل للغاية ، فأصدرت أمراً لهذا الفريق بالسفر إلى معسكر برجن بلسن .

وكان هذا الفريق يضم طبيبتين هما الدكتورة جانيت فوهان Janet Vaughan والدكتورة روزاليند بيت - ريفرز Rosalind Pitt-Rivers . وبطبيعة الحال انضم هذا الفريق الطبى الجديد إلى الفريق القديم . وأحضر الفريق الطبى الجديد معه كميات كبيرة من مزيج الجلوكوز والڤيتامينات . وأصبح هذا المزيج بعد خلطه بعصير الليمون شراباً شائعاً بين المرضى .

وبعد يومين وصلت الأغذية التجريبية وبدأ اختبارها على سجناء الأكواخ ، وفى يوم ٤ مايو ١٩٤٥ جرب بيتر هورسى Peter Horsey فى خلال ساعة واحدة إعطاء المرضى ٨٠ لتراً مما يعرف بمزيج المجاعة البنغالية . وكان يفترض أن اللتر الواحد من هذا المزيج يكفى لتغذية رجل لمدة يوم كامل . ويتكون هذا المزيج من السكر واللبن المجفف والدقيق والملح والماء . ولكن هذا المزيج السميك تبين فشله بالتجربة بعد مضى يوم أو اثنين لا أكثر بسبب حلاوته المفرطة من ناحية ، وما ينجم عنه من إسهال من ناحية أخرى .

وشكا خبير التغذية فى وكالة الغوث إلى ليسلى هاردمان من عدم جدوى هذا المزيج مع نزلاء بلسن ، قائلاً : «إن هذه التركيبة سبق تجريبها وأنقذت الآلاف من الموت . ولكن الناس هنا يرفضونها بكل بساطة ، وعزا هاردمان السبب فى هذا إلى أن سكان شرق أوربا اعتادوا الطعم المالح ، الأمر الذى يجعلهم يشعرون بفرط حلاوة الشراب البنغالى الذى يبعث على القئ . وأيضاً فشل إدخال التعديلات عليه فى إرضاء ذوق السجناء الذين فضلوا البودنج المصنوعة من اللبن على الشراب البنغالى .

وبعدئذ جرب خبراء التغذية إعطاء السجناء بروتين الهيدروليسات . ولكن همفرى كيد Humphery Kidd كتب بتاريخ ٦ مايو عن رفض السجناء له أيضاً ، وخاصة لأنهم كانوا يأخذونه فى شكل حقن أو أنابيب توضع فى أنفى المريض . وقاوم السجناء الحقن الغذائية بسبب كثرة ما أعطاهم النازيون من حقن . وحسمت الدكتورة جانيت فوهان الأمر عندما قررت بصفة قاطعة عدم جدوى وصلاحية بروتين الهيدروليسات مؤكدة أن تجارب التغذية التى تجرى فى مراكز الأبحاث فى لندن لاتعنى بالضرورة أنها ناجحة على أرض الواقع . ولهذا رأى المعالجون أن أفضل علاج للمشرفين على الموت جوعاً هو إعطاؤهم كميات صغيرة من الطعام عن طريق الفم على فترات متكررة . ورغم ذلك ركب المسئولون الطبيون فى بلسن رؤوسهم وأصروا على ضرورة الاستمرار فى العلاج ببروتين الهيدروليسات .

ولم يقبل بعض مصورى الأفلام تصوير السجناء المرضى وهم يحتضرون من منطلق احترام آدمية الإنسان . وشعر المصور الكبير جورج رودجر George Rodger بالخجل من نفسه وهو يصور المحتضرين فتوقف عن التصوير وأخذ فريقه وابتعدوا عن المعسكر ، بل إنه امتنع تماماً عن تصوير الحرب .

تباينت ردود فعل طلبة الطب الإنجليز لما شاهدوه فى معسكر بلسن . فقد ذكر ألان ماك أوسلان Alan Mac Auslan فى مقابلة أجريت معه عام ١٩٨٥ أنه وزملاءه الأطباء اهتموا فقط بالجانب الطبى من مشكلة معسكر بلسن وبالأمراض التى تصيب الناس ؛ أى إن الفاجعة الإنسانية لم تشغل بالهم .

ولكن خطابات مايكل دافى Davy التى أرسلها عام ١٩٤٥ إلى أهله وذويه فى إنجلترا تروى قصة مغايرة تمامًا ، فقد كتب يقول : «كانت المناظر مصدراً للبشاعة والرعب اللذين لاسبيل إلى وصفهما . والشىء نفسه ينطبق على القذارة والوساخة والمرض» . واعترف دافى أن ذكرى بسلن سوف تبقى معه حية طيلة حياته» .

والجدير بالذكر أن السلطات البريطانية أرادت إلهاء العاملين فى معسكر بلسن عما هم فيه من ضيق وكرب بأن وفرت لهم سكناً راقيًا ودار سينما فاخرة وباراً حافلاً بأجود الخمور ومطعماً مزوداً بأشهى المأكولات .

وحتى يتغلب العاملون فى معسكر بلسن على بشاعة إحصاء الجثث ودفنها ، التجأوا إلى الفكاهة للتسرية عن أنفسهم ، كى يتمكنوا من مواصلة عملهم الفظيع . ولاحظ الصحفى المرافق ألان مورهيد Alan Moorehead أن الضابط الشاب المكلف بدفن الجثث وإحصاء عددها بدا مبتهجاً ومسروراً . حتى المصور المرافق للجيش – وهو يهودى اسمه مايكل لويس – كان يطلق النكات على الجثث للتغلب على تأثره العميق ببشاعة مارأى . وأيضاً كان الجنود البريطانيون يسمون السجناء المحتضرين بالمسلمين ؛ لأنهم بدوا وكأنهم يركعون للصلاة .

وأيضًا جاء إلى معسكر بلسن فريق من السائقين الأمريكان فى نفس وقت وصول طلبة كلية الطب البريطانيين . وكان لهؤلاء السائقين خبرة سابقة قبل مجيئهم إلى بلسن . فقد عملوا سائقين لسيارات الإسعاف فى كل من فرنسا وإيطاليا . ورغم بشاعة مناظر معسكر بلسن ، فقد نجح هؤلاء السائقون الأمريكان فى تناسيها .

وفي يوم ٨ مايو ١٩٤٥ عمت الفرحة جميع أرجاء المعسكر عند سماع نبأ استسلام ألمانيا النازية أمام الحلفاء ، فأقاموا الأفراح والليالى الملاح، غير أن كثيراً من السجناء استقبلوا خبر استسلام ألمانيا بنوع من التبلد واللامبالاة .

ويعبر دافيد برادفورد في يومياته بتاريخ ١٢ مايو ١٩٤٥ عن تفاؤله حيث إن بعض الأكواخ خلت من الموتى . وغمر الضباط البريطانيين شعور بالراحة لأنهم لم يعودوا يذهبون إلى صالة الطعام بأحذيتهم التى يغطيها البراز .

مستشفي معسكر (٢) فى الفترة من ٢١ أبريل حتي ٢١ مايو ١٩٤٥:

بعد إرجاء وتعطيل استمر لعدة أيام ، بدأ العمل فى إجلاء المرضى فى مدرسة بانزر للتدريب العسكرى فى ٢١ أبريل ١٩٤٥ . ويقول العريف إيمانويل فيشر Emmanuel Fisher إنهن جميعًا من النساء . والجدير بالذكر أن الوحدة العسكرية التى يعمل فيها هذا العريف هى التى أقامت على عجل أول مستشفى فى ثكنات هذه المدرسة العسكرية ، وكانت المريضات يجئن إلى هذه المستشفى على نقالات يحملها الجنود المجريون بعد اغتسالهن فى المغسلة البشرية .

يقول العريف فى هذا الشأن إنه كان أحيانًا يساعد فى نقل المريضات ، فلاحظ أن وزن الواحدة منهن لايزيد وزن صبى صغير فى التاسعة من عمره . وبعد أن وضع هذا العريف امرأة يهودية فى الخامسة والأربعين من عمرها فى الفراش التفتت إليه قائلة : «من فضلك أريد الذهاب إلى أمريكا . لقد انتظرت طويلاً من أجل هذا ! لقد ضربوا زوجى

وولدى بالرصاص أمام عينى» . وأيضاً قالت امرأة أخرى : «هل يجب علىَّ أن أموت وأنا لاأزال فى السابعة عشرة من عمرى فقط» . وتحدثت إلى العريف امرأة ثالثة باللغة الإنجليزية فاكتشف أن بعقلها لوثة .

وأضاف فيشر انه لم يستطع التطلع فى وجوه هذه التعيسات المحطمات أكثر من ثوان قليلة ، فقد إغرورقت عيناه بالدموع وأدار وجهه حتى لايرى زملاؤه الجنود عيونه الباكية . ولم يكن من السهل عليه تمييز ملامح هذه النساء فقد كن مجرد هياكل عظمية . وعبر فيشر عن أمله فى ألا تنظر أية سجينة إلى صورتها فى المرآة حتى لايضاعف هذا من حزنها.

كان العريف إيمانويل فيشر اليهودى آنذاك فى الخامسة والعشرين من عمره ويسكن حى الإيست إند الفقير فى لندن ، وهو واحد من ثمانية أبناء أنجبهم نجار روسى . فضلاً عن أنه كان عضواً فى كورال المعبد اليهودى فى لندن ومساهمًا فى مسرح اليديش . وعندما شعرت إدارة الجيش الطبية بحاجتها الملحة إلى فنى أشعة طبى ، وقع اختيارها عليه بسبب سجله المتفوق وأعطته كورس فى التشريح والتصوير الطبى والكهرباء والكيمياء يستغرق من الدارس عامين اختزلته الإدارة الطبية فى أربعة أسابيع ، وأرسلته إلى نورماندى يوم الإبرار للالتحاق بوحدة نقل الجرحى والمصابين رقم ٣٢ . وأسند إليه الجيش مهمة الإشراف على مائة وخمسين مريضة يقطنون إحدى ثكنات مدرسة بانزر العسكرية . ويوميًا تم إجلاء مايقرب من خمسمائة مريضة من معسكر الرعب (١) إلى معسكر مدرسة بانزر العسكرية بعد تطهيرهن من الحشرات .

وتلخصت الخطة التى وضعها العقيد جونستون فى أن تتولى الهيئة الطبية البريطانية الإشراف على المستفى الجديد ، ثم تتركه كى يقوم طبيب من السجناء أنفسهم بإدارته بمساعدة ثمانية ممرضات من السجينات .

وبطبيعة الحال لم يكن غسل المريضة ورشها بالمبيدات كفيلاً بالقضاء على كل الحشرات الملتصقة بجسدها أو بالحيلولة دون إصابتها بالتيفوس والسل والإسهال .

تقول إحدى ممرضات الصليب الأحمر فى هذا الشأن : «هؤلاء الناس اعتادوا نتيجة تضورهم من الجوع وإصابتهم بالمرض والوهن والتبلد والإفتقار إلى الصرف الصحى فى معسكر بلسن أن يتبرزوا ويتبولوا حيثما رقدوا أو على بعد ياردات قليلة إذا كانوا قادرين على سير هذه الياردات . وكان هناك نقص مستمر فى قصارى التبرز فى كل ثكنة . فضلاً عن أن السجينات الممرضات كن يمتنعن فى كثير من الأحيان عن تفريغ القصارى من البراز .. وأيضاً اكتشف فيشر ذات صباح عند دخول إحدى الثكنات أن إحدى الممرضات استغرقت فى النوم طول الليل بدلاً من السهر على خدمة المرضى .

يقول فيشر فى هذا الشأن :

«كانت الجرادل القذرة والعفنة والبطاطين والقصريات مبعثرة كالقمامة فى كل أرجاء المبنى ، كما كان البراز يغطى بعض أجزاء الأرضية ، وانقطعت الكهرباء طوال الليل ، فضلاً عن عدم إحضار القهوة من المقصف فى الساعة السادسة صباحًا . ولم يغتسل أحد من المرضى وسادت الفوضى . وبعد أن تناولت طعام الغذاء على عجل كما أفعل دائمًا

رجعت لأجد ممرضتى الوحيدة التى تتمتع بالكفاءة تجهش بالبكاء لعجزها عن الاستمرار فى أداء عملها على حد قولها . لقد قام الرجال بأعمال شغب خلال فترة غيابى وأخذوا يجرون عرايا فى كل اتجاه باحثين عن الطعام . واقتحموا غرفة الطبيب وسرقوا بعض البسكوت منها ... بل إنهم انتزعوا عظمة كبيرة الحجم خالية تماماً من اللحم .. وفى الكوخ المجاور رقد أربعة رجال عرايا كما ولدتهم أمهاتهم منذ منتصف النهار على الأرضية الخرسانية تحت منضدة للطعام فى انتظار الوجبة التالية» .

وعبثا حاول (مانى) أى فيشر أن يشرح لأحد السجناء أن نوع الطعام الذى يعطى له جزء أساسى من علاجه .

يقول فيشر : «هؤلاء الرجال أخذوا يتمتمون ثم يتوسلون ثم يشكون ثم يتصرفون بطريقة هستيرية . بل إنهم بكوا قائلين (أرجعونا إلى المعسكر ففيه نجد طعامًا ، وهل تسمون هذا طعامًا .. هاتوا بعض الملابس وسوف نرتديها ونجد طريقنا إلى هناك..)» . ويتساءل فيشر كيف يمكن لهم أن يفهموا وجبة الشاى التى توزع عليهم (المكونة من الشاى وشريحة من الخبز والزبدة) أو العشاء الذى يقدم إليهم فى الساعة السادسة مساءً (الذى يتكون من كمية أكبر من الشوربة الخفيفة والخبز) والذى لم يكن كافيًا لإشباعهم مثلما كانت وجبة منتصف الليل لاتكفيهم . وبدأوا يهرفون ويخطرفون . ولسوء الحظ أنه لم يتم فرز المرضى من الأصحاء بسبب ضيق الوقت كما فهمت . ونتيجة لهذا وجدت أمامى عدداً كبيراً من الأصحاء . وفى المساء استطعت أن أدخل السعادة فى قلوب مائة منهم عندما وزعت عليهم بعض السجائر» .

وبإجلاء خمسمائة مريض جديد كل يوم من المعسكر (١) إلى المعسكر (٢) ، لم يعد في مقدور الأطباء الثمانية والممرضين الثمانية العاملين في وحدة نقل الجرحى والمصابين رقم (٣٢) رعاية وخدمة هذه الأعداد المتزايدة ، ولهذا أصبح من الضرورى الاعتماد على خدمات المتطوعين الثمانية والأربعين التابعين لمنظمة الصليب الأحمر ، والقادمين مؤخراً إلى معسكر بلسن .

وأيضاً شكا فيشر من اعتلال صحة بعض الأطباء السجناء وضعفهم، الأمر الذى حد من قدرتهم على العمل وبالتالى زيادة عدد المرضى ، غير أن أداء بعضهم كان رائعًا مثل أوديت روزنستوك Odette Rosenstock . وهى ابنة تاجر مجوهرات فى باريس تحلت بالقوة والشجاعة والقدرة على إدارة شبكة خدمات لمساعدة الأطفال اليهود ، الذين قام النازيون بترحيلهم من جنوب فرنسا .

زج البوليس السياسى (الجستابو) بأوديت فى سجن درانسى -Dran cy الفرنسى ثم أرسلها إلى معسكر أوشويتز حيث عملت كطبيبة . وبعدئذ تم ترحيلها من أوشويتز إلى بلسن حيث وصلت معتلة الصحة بعد شفائها من مرض التيفوس ، وقد امتعضت هذه الطبيبة اليهودية الفرنسية من استعلاء البريطانيين وإحساسهم بالانتماء إلى جنس أكثر رقياً وتحضراً.

ومن ناحيته شكا العقيد البريطانى جونستون من عدم كفاءة الأطباء السجناء ، ولهذا أرسل إلى الحكومة البريطانية يطلب منها تزويده بأطباء وممرضين على درجة عالية من الكفاءة . ولكن الحكومة البريطانية خيبت أمله بأن أرسلت إليه أطباء وممرضين ألمان كانت قد أطلقت سراحهم بعد

وقوعهم فى أسر الجيش البريطانى ، ولكن هؤلاء الأسرى من الأطباء والممرضين كانوا على درجة عالية من الكفاءة . ومن بين هذه البعثة الطبية وصل من مدينة هامبورج الألمانية اثنا عشر ممرضاً وممرضة يتمتعون بالكفاءة ويلبسون ثياباً نظيفة بيضاء . ولكن كفاءة الأطباء والممرضات الألمان لم تشفع لهم لدى سجناء معسكر بلسن فقد أساءوا استقبالهم وصرخوا فى وجوههم لا لشىء إلا لانتمائهم إلى الشعب الألمانى. وما أن دخل الممرضون والممرضات الاثنا عشر معسكر بلسن حاملين حقائبهم الصغيرة ، حتى عاملهم السجناء بعدم اكتراث ثم تعالت صيحات الاحتجاج على وجودهم فى المعسكر . وفى لحظة واحدة هاجمهم حشد صارخ من السجناء الأصحاء والمحتضرين على السواء ، وأعملوا أظافرهم فى وجوههم وألقوا بأنفسهم على الممرضين والممرضات رافعين عليهم السكاكين والشوك والأدوات الطبية التى انتزعوها من تروللى التمريض . وفى خلال ثوان معدودات ، قام السجناء بتمزيق ملابس الممرضين والممرضات من الخلف وألحقوا بهم جراحاً تنزف دماً ، الأمر الذى جعل الجرحى يطلبون النجدة . فخفت قوات الجيش البريطانى إلى نجدتهم . وأصدرت السلطات تعليماتها إلى هيئة التمريض الألمانية بالابتعاد وخياطة ماتمزق من ثيابهم وتعديل منظرهم وإزالة آثار العدوان عليهم ، ثم العودة إلى عنابر المرضى لاستئناف عملهم . وبعد أن ساد التوتر المعسكر بضعة ساعات عاد إليه الهدوء فى اليوم التالى ، الأمر الذى مكّن هيئة التمريض من أداء عملها دون استفزاز أو تحرش .

ودفعت هذه الاعتداءات إحدى الممرضات الألمانيات إلى أن تسطر الكلمات التالية : «أفهمتنا هذه الأحداث أن الألمان أكثر الأمم إثارة للكراهية في العالم» .

وأيضاً كانت الممرضات الإنجليز يحملن البغضاء للنساء الألمانيات . غير أن موقف الرجال الإنجليز منهن كان مختلفاً فقد أظهروا إعجابهم بهن وأجمعوا على أن الممرضات الألمانيات الوحيدات في معسكر بلسن اللائي إنكببن على العمل الدءوب بكل همة ونشاط . وقد شهد على كفاءتهن وتفانيهن في العمل جندي بريطاني كتب في يونية ١٩٤٥ يقول عنهن : «هذه الفتيات فعلن أشياء مدهشة »، ويصرح العاملون في مجال الطب بأنهن بكفائتهن وتفانيهن في العمل جعلن الممرضات الإنجليزيات يخجلن من أنفسهن» .

وعندما وصل الأطباء الألمان إلى معسكر بلسن ، شكت إحدى الممرضات الإنجليزيات إلى العقيد جونستون قائلة : «أنا لاأستطيع استساغة هؤلاء الناس» ، ومضت تقول إنها أرغمت نفسها بعد أسبوع كامل على التعامل معهم من أجل مرضاها . ورغم هزيمة بلادهم ، فقد تحدى الأطباء الألمان السلطة البريطانية وتجاهلوا الأمر الذي أصدرته هذه السلطة بوقوفهم في طابور في صباح اليوم الذي وصلوا فيه إلى معسكر بلسن . فثارت ثائرة العقيد جونستون الذي هدد بشنق رئيسهم على أقرب شجرة . وأظهر هؤلاء الأطباء الألمان كثيراً من الصلف ، ولكنهم أدوا مهمتهم الطبية بكفاءة واقتدار .

وألحق البريطانيون الأطباء الألمان بالعمل في ثلاثة أكواخ لمعالجة المرضى الذكور ممن ساءت حالتهم الصحية للغاية ، فحلوا بذلك محل

الأطباء السجناء الذين افتقروا إلى الكفاءة . ويعترف العقيد جونستون فى ١٠ مايو ١٩٤٥ بفضل الأطباء والممرضين الألمان فى حدوث تحسن ملموس فى حالة السجناء الصحية . ولهذا سعى إلى التخلص من نصف عدد الأطباء السجناء واستبدالهم بأطباء ألمان للعمل فى المستشفى ، الذى تم إنشاؤه مؤخراً فى بلسن .

وما أن وضعت الحرب أوزارها حتى وصلت إلى بلسن وحدات عسكرية إضافية . وتولت وحدة الإسعاف الميدانى رقم ١٦٣ الإشراف الطبى على مرضى المستشفيات . وفى يوم ١٦ مايو ١٩٤٥ ، تكونت وحدة أخرى لنقل المصابين الجرحى أقامت فى المستشفى العسكرى الألمانى بالقرب من مدرسة بانزر للتدريب العسكرى . وتم نقل المرضى الألمان البالغ عددهم ٦٥٠ مريضًا من ثكنات هذه المدرسة لإيواء ١٦٠٠ سجين من معسكر بلسن .

ولم يمض يومان ، حتى امتلأ هذا المستشفى عن آخره بالمرضى . وأخيراً تحقق الحلم الذى داعب خيال كل من البريجادير جلين هيوز والعقيد جيمس جونستون فى أبريل ١٩٤٥ ، والمتمثل فى إنشاء المستشفى البريطانى العام لعلاج جميع الأمراض . بلغت سعة هذا المستشفى ١٢٠٠ سريراً . وأيضًا كان هناك مستشفى عام آخر فى طريقه إلى الإنشاء . وبالإضافة إلى ذلك ، حضر فريق سويسرى مكون من ستة أطباء واثنتى عشر ممرضة إلى بلسن يوم ٣ مايو ١٩٤٥ كما حضر من فرنسا فى نهاية هذا الشهر فريق طبى مكون من ٢٩ ممرضة تابعة للفاتيكان .

وبحلول منتصف شهر مايو ١٩٤٥ ، أصبحت بلسن تحتوى على أضخم مستشفى فى كل أوربا لإيواء أكثر من ١٣ ألف مريض ومريضة . وهكذا تحسنت الخدمات الطبية المقدمة إلى نزلاء بلسن . ومن دلائل التحسن الواضح فى أحوال السجناء الصحية أن عدداً من الميئوس من شفائهم بدأوا يستردون صحتهم .

وقد وجد بعض الناجين من الموت فى معسكر بلسن أنفسهم فى المستشفى العام المشار إليه ، ومن بينهم أنكا فيشر Anka Fisher التى وجدوها ترقد عارية على كومة من الجثث ، عندما دخل الجيش البريطانى هذا المعسكر . وكتبت هذه المرأة فى نوفمبر ١٩٤٥ تقول : «كنت غائبة عن الوعى آنذاك ولست أتذكر ماحدث لى . وحاول الجنود البريطانيون إنقاذ من لم تخمد روحه من كومة الجثث المتراكمة بإعادة التنفس إليه عن طريق تدليك الصدر . وعندما تبين هؤلاء الجنود أن أنكا فيشر لاتزال تنبض الحياة حاولوا سحبها من كومة الجثث ونقلوها إلى المستشفى حتى استردت الوعى . ولكن جسمها الناحل الهزيل المصاب بالتيفوس لم يزن أكثر من ٣٢ كيلو جرام ، وتلقت العلاج فى المستشفى لمدة تسعة أسابيع .

وبحلول منتصف أبريل ١٩٤٥ بدأ العمل بنظام تسجيل أسماء المرضى وتدوين بياناتهم . وفى بعض الأحيان كان المرضى مشتتى الفكر وزائغى البصر يعجزون عن مجرد الإدلاء بأسمائهم . وتذكر أنيج فرتر Annig Pfirter العاملة فى منظمة الصليب الأحمر أنها ذهبت إلى إحدى المريضات لتدوين اسمها فإذا بهذه المريضة تشمر عن كم قميص نومها، وتتلعثم قائلة : «أنا .. ليس لى اسم . فقط لى رقم . وليس لى موطن فأنا

يهودية . هل تفهمين! فأنا مجرد كلبة .. وعبثاً حاولت الممرضة استخلاص البيانات منها فإذا بهذه المريضة تخاطبها قائلة : «كم أتمنى أن أكون آدمية مثلك!» . وأشفقت الممرضة عليها فقبلتها وحاولت أن تساعدها على تذكر ماضيها وطفولتها ولعب الأطفال التى كانت تحتفظ بها . وفجأة سألتها الممرضة ما الاسم الذى كانت أمك تناديك به ؟ فأجابت المريضة «مريم» ثم أخذت تروى قصتها .

والجدير بالذكر أن بعض المريضات شعرت بالامتنان نحو ممرضاتهن بسبب مالمسن لديهن من رعاية وشفقة واستعداد للمساعدة ، فقد كتبت فتاة هولندية إلى متطوعة فى الصليب الأحمر اسمها ميوريل بلاكمان Muriel Blackman تعبر عن عظيم امتنانها لها بسبب رعايتها لها أثناء مرضها . وتلقت هذه الممرضة خطاب شكر وعرفان بالجميل من يهودى يعيش فى تل أبيب لعنايتها بأخته أثناء مرضها فى معسكر بلسن . وجاء فى هذا الخطا مايلى :

«أكتب لك للتعبير عن شكرى العميق وتقديرى العظيم لما أظهرتيه من عطف ومساعدة لأختى فى الوقت المأساوى الذى لايوجد فيه اعتبار لآدمية الإنسان .. وإنى فى غاية السعادة أن تتوافر لى فرصة لاكتشاف أنه لايزال هناك أناس مثلك يحملون المشاعر الإنسانية بين حناياهم والقدرة على التفهم والرغبة فى مساعدة المحتاجين . وأملى أن تحين لى فرصة مقابلتك والتعبير بنفسى عن تقديرى وشكرى لك لكل مافعلتيه من أجل أختى» .

وعندما استرد المرضى فى معسكر بلسن (١) صحتهم بالدرجة الكافية أرسلتهم السلطة البريطانية إلى المعسكر (٢) – الشهير باسم هارودز

وهو كما نعرف أكثر محلات لندن شهرة وفخامة – لارتداء ملابس أفضل. والجدير بالذكر أن مخزن المعسكر رقم (٢) المعروف باسم هارودز احتوى على كمية هائلة من الملابس والأحذية المستعملة ، جمعها الجيش البريطانى من الأهالى الألمان الذين يعيشون فى المناطق القريبة من معسكر بلسن . وأدى خلع السجناء لملابسهم القديمة واستبدالها بملابس جديدة إلى رفع روحهم المعنوية .

ولاحظت المشرفات على المخازن التجاء بعض السجينات إلى سرقة الفساتين وشنط اليد الحريمى ولكنهن تغاضين عن هذه السرقات لإدراكهن أن السجينات أصبحن فى طريقهن إلى العودة إلى حالتهن الطبيعية . وبعد ارتداء السجينات الملابس المستعملة واسترداد صحتهن بعض الشىء تولى الأطباء البريطانيون إرسالهن إلى المعسكر(٣) الواقع فى طرف مدرسة بانزر للتدريب العسكرى حيث تم تصنيفهن طبقاً لجنسياتهن.

غير أن نكسة ما لبثت أن حلت بالسجناء فى النصف الثانى من شهر مايو ١٩٤٥ فقد داهمهم – بعد استرداد شىء من صحتهم – مرض خطير نتيجة عدم تدقيق السلطات البريطانية فى فرز الأصحاء من المرضى قبل نقل الأصحاء إلى معسكر مدرسة بانزر للتدريب العسكرى . ولهذا أصيب مالايقل عن ٢٥٠٠ بأخطر الأمراض . ولهذا أيضاً قرر العقيد جونستون المبادرة بإدخالهم المستشفى للعلاج يوم ٩ مايو ١٩٤٥ .

وأوقفت السلطات البريطانية عمليات الإجلاء عن المعسكر(١) إلى المعسكر (٢) . وكان المعسكر (١) لايزال يأوى خمسة آلاف مريض تحسنت أحوالهم الصحية بعد إنشاء المستشفى الجديد . وأنها لمفارقة مابعدها

مفارقة أن تتحسن ظروف معسكر الموت (١) الصحية بحيث تفوقت على غيرها من معسكرات بلسن . وفى تلك الآونة وصل إلى بلسن دواء ناجع استحدث مؤخراً هو البنسلين ، غير أن السلطات الطبية البريطانية فى بلسن قصرت استخدامه على علاج الأسنان .

البريطانيون يحتفلون بحرق معسكر بلسن :

التحق سائق أمريكى يدعى نورمان كنكيل Norman Kunkel بإدارة معسكر بلسن الطبية . واقتصر عمله على أكواخ السجينات فكتب فى ١٦ مايو ١٩٤٥ يصف تعاستهن ، وبعد ذلك بيومين كتب فى ١٨ مايو من العام نفسه ينتقد تصرفات البريطانيين عقب إجلاء خمسمائة سجينة أخرى من معسكر الرعب (١) إلى مستشفى المعسكر (٢) لأن السلطات البريطانية كلفته بنقل هذا العدد الكبير من النساء وحشرهن فى مكان غير مجهز على الإطلاق لاستقبالهن مما اضطرهن إلى النوم على أكياس محشوة بالقش على الأرض . يقول هذا السائق الأمريكى فى نقده اللاذع للبريطانيين : «شعرت بالامتعاض من هذا التكليف نظراً لوجود مستشفى بريطانى على بعد أقل من ألف قدم يحتوى على ستمائة سرير جديد لم يستعملها أحد من قبل» .

وفى ٢١ مايو انتهى الجيش البريطانى من عمليات الإجلاء ، وبين إجمالى نزلاء معسكرات بلسن البالغ عددهم مابين أربعين وخمسة وأربعين ألف نزيل ونزيلة ممن كانوا يعيشون فى المعسكر (١) تم إجلاء سبعة عشر ألف منهم وترحيلهم إلى بلادهم الأصلية ، فضلاً عن نقل أكثر من اثنى عشر ألف منهم إلى المستشفى الجديد .. ولكن ثلاثة عشر ألف من السجناء

قضوا فى المستشفى ، فتم دفنهم فى مقابر جماعية ملحقة بالمعسكر الأصلى.

وبعد أن تم إخلاء جميع أكواخ المعسكر أضرم الجيش البريطانى النار فيها، فتصاعد دخان كثيف خانق وانتشر فى الجو . وقررت إدارة الجيش البريطانى إعطاء أجازة نصف يوم لجميع العاملين فى معسكر بلسن لحضور الاحتفال بهذه المناسبة ، واستدعت المصورين الذين حضروا بكاميراتهم .

وكان الاحتفال كالتالى : أقيمت أمام الأكواخ منصة ظهرت فى خلفيتها صورة كبيرة لهتلر والصليب المعقوف والأعلام النازية . وفى الساعة السادسة من مساء يوم ٢١ مايو ١٩٤٥ حضر إلى مقر الاحتفال البريجادير جلين هيوز والعقيد جونستون وعقيدان آخران اعتلوا المنصة . ومنها ألقى العقيد بيرد Bird قائد الحامية الجديد خطاباً قال فيه إن الجيش البريطانى يربأ بنفسه عن رفع العلم البريطانى فى معسكر بلسن ، لأنه لايريد لهذا العلم أن يقترن بالشرور والآثام المتمثلة فى هذا المعسكر .

وتم رفع العلم البريطانى فى الوقت المناسب للوهلة الأولى والأخيرة فأطلقت المدافع طلقاتها تحية للجنود البريطانيين فى الكتيبة رقم ١١٣ الذين ماتوا فى الحرب ، وأثنى المتحدث على أداء هذه الكتيبة الرائع ومابذلته من جهود مضنية فى دفن الموتى وإدارة المطابخ .

وأخيراً صعد الضباط الثلاثة على متن مدفع من طراز برن Bren وأطلقوا قذيفة لهب على كوخ فاشتعلت النيران فيه من الطلقة الأولى لتنتقل إلى بقية أكواخ المعسكر حسب ماجاء فى يوميات جين ماكفارلين Jean

McFarlan ، وإرتفع الدخان الكثيف الداكن إلى عنان السماء . وفى نهاية الاحتفال وقف المحتفلون لإنشاد النشيد القومى البريطانى : «حفظ الله الملك» ثم غادر الجنود البريطانيون معسكر الرعب لآخر مرة فى حياتهم . وكان أول كوخ يحترق يحمل رقم ٢١٧ . وتضاربت العواطف لاحتراق المعسكر فبينما عبر طالب الطب مايكل جريف عن حزنه لاحتراق الكوخ الذى إعتبره بيته ، فرحت الدكتورة هادسا بيمكو لاحتراقه لأنها رأت فى احتراقه نهاية للنازية .

وفى ليلة احتراق معسكر بلسن اجتمع الضباط الإنجليز فى صالة كبيرة تحولت إلى مايشبه الكاباريه سكروا فيها حتى الثمالة ورقصوا إلى وقت متأخر من الليل حتى الرابعة صباحاً .

ثم صدر الأمر بنقل العقيد جونستون ووحدة نقل الجرحى والمصابين رقم ٣٢ إلى بلدة كييل Kiel فى الشمال . وفى شهر يونية دعى جونستون لحضور مؤتمر طبى فى لندن عرض فيه شريط إخبارى قصير كان يعرض فى دور العرض السينمائى . وصورت إحدى لقطات هذا الفيلم الإخبارى كومة من الجثث فى معسكر بلسن .. فالتفتت امرأة تجلس أمام جونستون إلى جارها معلقة بقولها : «لابد أنهم وضعوا كومة الجثث على هذا النحو حتى تخرج الصورة مؤثرة» . وخطر لجونستون أن يقاطعها ويقول لها إن الصورة حقيقية وأن هذا ماحدث بالفعل» . ولكنه غير رأيه وآثر الصمت واجداً صعوبة فى منع نفسه من الكلام .

وغادر فريق طلبة الطب الإنجليز معسكر بلسن فى نفس الوقت ، الذى غادره جونستون تقريباً . وأمكن السيطرة على كل مشكلات المعسكر

فى توفير الطعام والدواء والماء بانتظام . ولاشك أن الخدمات الطبية فى معسكر بلسن وفرت للباحثين وعلماء التشريح مادة بحثية خصبة . فقد استطاع الباحثون إيجاد حل لمشكلة الإسهال ، الذى أصاب عدداً كبيراً من السجناء ، كما توصلوا إلى اكتشاف عقار أفضل من العقاقير الألمانية التى كانت تستخدم فى الماضى . هذا العقار الجديد عبارة عن مزيج من حمض النيكوتين والسالفانيازول يعطى يوميًا لمريض الإسهال فيشفى فى غضون أربعة أيام .

ويمكن القول إن الباحثين وجدوا حلاً طبياً لمشكلة الإسهال بحلول شهر مايو ١٩٤٥ ؛ أى بعد عشرة أيام فقط من إخلاء المعسكر (١) . وأيضاً اكتشف الباحثون علاجًا لمرضى الأوديما الناجم عن الجوع الشديد الذى يفضى إلى الموت ، وهو عبارة عن ورم فظيع يصيب الأرجل . كما توصل الأطباء إلى ضرورة علاج الجفاف بالتدريج ، فقد ثبت أن السوائل الكثيرة التى تعطى للمريض دفعة واحدة تؤدى إلى وفاته وليس إلى شفائه . وكذلك تغيرت مفاهيم الأطباء عن الطريقة المثلى لنقل الدم إلى الجرحى والمرضى .

غير أن مشكلة السل بقيت دون حل كما يقول بيتر هورسى ، وخاصة لأن سلطات المعسكر عجزت عن منع مرضى السل من التجول من مكان إلى مكان . وقد نشرت المجلة الطبية البريطانية مقالاً يشيد بجهد فريق طلبة الطب الإنجليز المتطوعين وعملهم المتفانى بروح الفريق الواحد الأمر الذى أثار حفيظة طبيبتين بريطانيتين تابعتين للجيش فقامتا بنشر شكوى فى هذه المجلة العلمية المتخصصة يوم ٢١ يولية ١٩٤٥ من إهمال الدور الذى لعبته وحدات التمريض الملحقة بالجيش فى خدمة نزلاء معسكر بلسن .

غير أن المراقب المحايد لايستطيع أن ينكر الدور البارز الذى لعبته المتطوعات فى منظمة الصليب الأحمر ، فإليهن يرجع الفضل الأول فى انخفاض نسبة الوفيات فى هذا المعسكر ، حتى قبل وصول فريق طلبة الطب البريطانى الذين شعروا فى نهاية شهر مايو أن معسكر بلسن لم يعد بحاجة إليهم ؛ خاصة بعد إقامة المستشفى البريطانى العام ووصول مائة طالب طب بلجيكى .

أحمر الشفايف وقدرته المذهلة علي رفع روح السجينات المعنوية :

فى أواخر شهر أبريل ١٩٤٥ وصلت إلى معسكر بلسن كميات كبيرة من أحمر الشفايف (الروچ) . واعتبر الأطباء هذا التصرف ضرباً من السفه لأن المعسكر كان بحاجة إلى ماهو أهم من ذلك بكثير . ورغم ضيق هؤلاء الأطباء الشديد من هذا التصرف ، فقد اتضح لهم أن أحمر الشفايف كان له مفعول السحر على النزيلات .

يقول العقيد جونين إن إرسال أحمر الشفايف إلى نزيلات بلسن كان عملاً عبقرياً له مفعول السحر فى رفع روح المريضات المعنوية :

«أعتقد أنه لايوجد شيء أفاد السجينات مثل (أحمر الشفايف) فقد كانت النساء راقدات فى الفراش دون بطانيات أو ملابس نوم ولكنهن كن يحملن معهن أصابع أحمر الشفايف ويتجولن فى المعسكر عاريات لايغطى أكتافهن سوى بطانية . وشاهدت امرأة ميتة راقدة على منضدة التشريح ، وهى تمسك فى يدها بقطعة من أحمر الشفايف . وهكذا استطاع أحمر الشفايف أن يعيد إلى سجينات معسكر بلسن فرديتهن وشخصياتهن لأنهن

لم يعدن مجرد أرقام مرسومة بالوشم على أذرعهن . وأخيراً بدأن فى إظهار الاهتمام بمظهرن . وبدأ أحمر الشفايف يعيد إليهن إنسانيتهن المفقودة» .

وإذا كان الجيش البريطانى قد حرر أجساد سجينات بلسن من الأسر فإن أحمر الشفايف نجح فى إنقاذ عقولهن من التشوه ، فقد انتعشت نفسياتهن واسترجعن الثقة بأنفسهن واحترامهن لذواتهن . وساعد هذا على تخلى السجينات عن تحدى السلطة والزراية بها ، فبدأن يطعن التعليمات الصادرة إليهن .

وسجلت إيفى باركر Effie Barker العاملة فى منظمة الصليب الأحمر بتاريخ ٨ يونية ١٩٤٥ التحول الرهيب الذى طرأ على السجينات نتيجة استخدام أحمر الشفايف فهى تقول : «إنها لمنحة عظيمة أن يشاهد المرء المعجزة التى هبطت الآن على بلسن الذى تحول من معسكر اعتقال إلى معسكر إجازة ومرح» .

وأيضاً لاحظ سائق سيارة إسعاف أمريكى هذا التغير الهائل فى حالة سجينات بلسن ، فبعد أن كن مجرد هياكل عظمية حليقة الرأس تحولن بقدرة قادر إلى فتيات جميلات يضعن الأحمر على شفاهن ويمشين فى منطقة بلسن ذات المناظر الطبيعية الخلابة يغازلن الجنود البريطانيين ولكن طبيباً فرنسياً زار المستشفى فلم ينخدع بهذا التغير المفاجئ الذى طرأ على السجينات مقتنعاً بأن هذه البهجة ليست سوى قشرة سطحية تخفى وراءها ندوبا وتشوهات نفسية تبقى إلى الأبد .. يقول أحد طلبة الطب البريطانيين فى هذا الشأن : «إن بعض السجناء لم يعرف هويته كما أن الكثير منهم لم

يعرفوا من أين جاءوا» . ويؤكد الحبر اليهودى إيزاك ليفى التابع للجيش الثانى البريطانى أن ٩٠٪ من الناجين من الموت لن يكونوا بشراً طبيعيين أبداً ، ولهذا اقترحت وكالة غوث اللاجئين فى عام ١٩٤٥ أن يتوافر عدد كبير من المحللين النفسيين على مساعدة السجناء والسجينات على اجتياز محنتهم النفسية .

ولكن نظراً لكثرة مشاغل الجيش البريطانى لم يتمكن من وضع برنامج للعلاج النفسى لهؤلاء السجناء ، حيث إن هذا الجيش انصرف إلى مساعدة أفراد القوات المسلحة على التخلص من الأضرار النفسية التى لحقت بهم . ناهيك عن الصعوبات الناجمة عن حواجز اللغة التى أعاقت عمليات تمريض وعلاج سجناء بلسن . ولم يجد الجيش البريطانى أمامه غير وضع السجناء المصابين بانفصام الشخصية فى عنبر منفصل ، كما أنه سعى إلى مساعدة المرضى نفسياً بتعليمهم فن الرسم أو توفير ماكينات الخياطة لليهوديات المريضات نفسياً القادمات من بولندا والمجر ورومانيا ؛ حيث إن الكثيرات منهن كن يعملن بالخياطة قبل اندلاع الحرب .

وسطر الطبيب النفسى العقيد فيلبس أول تقرير نفسى عن سجناء بلسن بعد قيامه بزيارة هذا المعسكر ثلاث مرات بطريقة عابرة ، بناءً على تكليف من البريجادير جلين هيوز .

وعقب الزيارة الأولى التى تمت فى ٢٠ أبريل ١٩٤٥ ، عبر فيلبس عن يأسه الكامل من الشفاء النفسى لسجناء بلسن حيث أنهم على حد قوله فقدوا كل الإحساس بالعزة والكرامة ، وأصبحوا يحيون حياة البهائم .

وعقب زيارته الخاطفة الثانية التى تمت فى ١٠ مايو ١٩٤٥ ، اكتشف فيلبس شعوراً عاماً بالسعادة والارتياح لدى السجناء بسبب مالاقوه من عناية واهتمام ولكن هذا الإرتياح كان مقروناً بالرعب والفزع الهستيرى من مجرد الكشف عليهم بجهاز أشعة إكس أو غيره من الأجهزة الطبية التى ذكرتهم بسوء معاملة النازيين لهم فى الماضى ، ولكن مظاهر التحسن الواضح على سجناء بلسن بدا لفيلبس عقب زيارته الثالثة للمعسكر فى ٣٠ مايو ١٩٤٥ فقد اكتشف ارتفاعاً ملحوظاً فى روحهم المعنوية .

وخلص فيلبس إلى أن غالبية السجناء يمكنهم أن يصبحوا مواطنين عاديين بعد مضى ستة أسابيع ولكنه لم يكن متأكداً من أن تجربة السجناء الأليمة سوف تزول آثارها مع مضى الزمن .. ويسترسل المحلل النفسى فيلبس قائلاً إنه حتى مع شعور السجناء بهويتهم فقد لازمتهم مظاهر الخوف والتوجس والقلق والتبلد والتوتر العصبى . ويقول سنجتون إن هؤلاء التعساء لم ينسوا قط أيام المجاعة الأمر الذى جعلهم ينخرطون فى أعمال الشغب وتخزين الطعام المسروق والسلوك العدوانى نحو الآخرين .

لقد شعر البريطانيون بالفخر لأنهم أنشأوا مكتبة فى معسكر بلسن ، لكنهم سرعان ما اكتشفوا أن الناجين من الموت كانوا يرغبون فى الاستمتاع بوقتهم وبخاصة الشابات الأمر الذى جعلهم عازفين عن التفكير والتأمل . يقول سنجتون فى هذا الشأن :

«كانوا يريدون أن يشعروا بطعم الحياة ولايريدون إعمال الفكر . وسرعنا ما اكتشفنا اهتمام سجناء بلسن بالتسلية والرياضة أكثر من اهتمامهم بالكتب . وأيضاً شعرت النساء بالفرحة تغمرهن وهن يشاهدن نهودهن

تمتلئ من جديد ومن عودة العادة الشهرية إليهن ، وانصرف تفكيرهن إلى مصاحبة الرجال . وشعرت السجينات الشاحبات بالامتنان للعساكر الإنجليز ، الذين دعوهن إلى حفلات راقصة على أنغام أوركسترا سلاح الطيران الملكى ؛ لأن هذه الحفلات الراقصة ردت الاعتبار إلى إنسانيتهن المفقودة . واعترفت سجينة تدعى سارة بيك Sarah Bick أن أحد الجنود الإنجليز سمع منها قصة اعتقالها ، فأشفق عليها وعاملها باحترام وأعطاها طعاماً جعل وجهها الغائر يمتلئ ويعود إلى حالته الطبيعية. ورغم أن تعليمات الجيش الإنجليزى كانت تحظر على العساكر الإنجليز إقامة علاقات صداقة مع الألمانيات ، فإن ذلك لم يمنعهم من إقامة علاقات عاطفية عابرة معهن . ولاشك أن رغبة السجينات فى الشعور بأنوثتهن دفعتهن إلى مصاحبة الجنود الإنجليز . فضلاً عن أن بعضهن كن يبعن أجسادهن مقابل السجائر والشيكولاتة وغيرها من الأشياء. تقول السجينة ماجدة هرزبرجر Magda Herzberger فى هذا الشأن : «بعد تحرير المعسكر حدث كثير من المضاجعات فى منطقة الغابة. وأحياناً عثر البعض على شركاء أو شريكات الحياة أى على أزواج وزوجات».

وأدت هذه العلاقات العاطفية إلى حمل فتيات كثيرات لأن حبوب منع الحمل لم تكن قد عرفت بعد ، الأمر الذى أدى إلى تعقيدات ومشكلات لاحد لها ، كما تخبرنا الدكتورة جيسلابيرل Gisella Perl طبيبة أمراض النساء المجرية المعروفة . وعندما أرسلت هذه الطبيبة إلى معسكر أوشويتز أجرت عدداً من عمليات الإجهاض لنساء كثيرات حتى تنقذهن من الموت فى غرف الغاز . وتم ترحيل هذه الطبيبة فيما بعد إلى معسكر بلسن حيث جاءت إليها الفتيات الحوامل ، وتوسلن إليها أن تجرى لهن عمليات إجهاض

بالمخالفة للشريعة اليهودية . وناقشت جيسلا بيرل هذا الأمر مع الحبر اليهودى هاردمان وحاولت إقناعه بعدم اتخاذ موقف متزمت فى هذا الشأن ، ولكنه رفض الإجهاض رفضاً قاطعاً لأن الشريعة الموسوية تحظره.

كان الجنس يشغل بال الشبان والشابات ولكن السجناء الكبار فى السن شغلهم شاغل آخر ، هو معرفة مصير الأهل والأقارب ، وأقيم فى يولية ١٩٤٥ فى كل إقليم ألمانى مكتب لمساعدتهم فى العثور على عائلاتهم . ويروى ليسلى هاردمان نجاح هذه المكاتب فى لم شمل العائلات وأحياناً لعبت الصدف السعيدة دوراً فى لم هذا الشمل . وفى أحيان أخرى أسفر البحث عن الأقارب عن أخبار أليمة ، فقد كان الأمل يحدو بإحدى النزيلات أن تجد أقاربها فأخذت تتجول من معسكر إلى آخر فى كل أرجاء ألمانيا لـ «كى أجد زوجى وابنى .. وبعد مرور تسعة عشر يوماً من التجوال على قدمى فى الطرق السريعة التى دمرتها الحرب علمت أنهم ضربوا زوجى حتى فاضت روحه قبل تحرير المعسكر بوقت قصير ، وكذلك أحرقوا ابنى .. وعندما رجعت إلى بلسن كنت قد فقدت الرغبة فى الحياة». ولهذا تجرعت السم ، ولكن أمكن إنقاذها فى آخر لحظة.

وعندما قام الألمان بتسليم معسكر بلسن إلى القوات البريطانية كانت أول مجموعة يتم ترحيلها يوم ٢١ أبريل ١٩٤٥ إلى المعسكر (٢) من الأطفال الهولنديين حيث أقامت ممرضتان من أشويتز هما لويا تريسزنسكا Luba Tryszynska وهرمينا كرانتز Hermina Krantz اللتان شجعتهما الدكتورة بيمكو على تخصيص مكان لهؤلاء الأطفال فى معسكر بانزر للتدريب العسكرى .

وأحاط الأطفال بالممرضة لويا بكل الحب لدرجة أنهم أجبروا السلطات البريطانية على إلغاء الأمر الصادر باستبدالها بباحثة اجتماعية إنجليزية . ولكن مجموعة أخرى سيئة الحظ من الأطفال يبلغ عددها أربعمائة طفلاً وطفلة ظلوا يعيشون مع ذويهم ، وعانوا مما عانى منه ذووهم من جوع وحرمان فى الشهور الأولى من عام ١٩٤٥ وأصيب ثلثاهما بمرضى التيفوس والسل .

وفى أوائل مايو ١٩٤٥ حضر إلى المعسكر متخصص فى طب الأطفال يدعى بوب كوليس Bob Collis البالغ من العمر خمسة وأربعين عاماً وينتمى إلى عائلة إنجليزية أيرلندية عريقة . وهو طبيب أطفال مرموق أجرى أبحاثاً طبية مهمة . وكان هذا الرجل يحمل بين جنباته قلباً يفيض بالطيبة مما حبب الناس فيه . وهو أول من سلط الضوء على الدور الذى لعبته الممرضتان لويا وهيرميتا فى تخفيف آلام الأطفال فى بلسن . وحتى ندرك التحسن الكبير الذى طرأ على صحة الأطفال على أيدى هاتين الممرضتين ، نذكر أن أحدهم زاد وزنه عشرة أرطال فى فترة قصيرة للغاية .

كان بوب كوليس شغوفاً بأطفال بلسن ، ومن ثم سعيه إلى أن يسترد الأطفال طفولتهم الضائعة . غير أن شدة محبته للأطفال جعلته يغض الطرف عما كانوا يرتكبونه من انتهاكات وتجاوزات .

وفى يولية ١٩٤٥ جاء إلى عنبر الأطفال الهولنديين رجل هولندى ليعلن أنه سوف يصطحب الأطفال معه إلى هولندا ودعا الممرضة لويا للذهاب هناك . ووافقت لويا على الرحيل إلى هولندا ولكن لم تمر ثلاثة أيام حتى عادت باكية إلى بلسن . وبررت عودتها بسوء استقبال الأطفال فى

هولندا ، فقد وضعوهم فى حجرة واسعة ليناموا على مراتب محشوة بالقش ، فضلاً عن أن دورات المياه التى استخدمها الأطفال كانت خارج المبنى . ومما زاد الطينة بلة أن رجال الحدود سمحوا لهذه الممرضة بدخول هولندا بعد لأى وعناء وجدال طويل .

وفى أوائل صيف ١٩٤٥ عبر البريطانيون عن استيائهم من استقلال الجنود المجريين عن سلطتهم ، كما استاءوا من الامتيازات التى تمتعوا بها مثل حمل السلاح . ولكن البريطانيين قبلوا وضعهم المتميز فى معسكر بلسن على مضض ، بسبب استعدادهم لأداء أى عمل يطلب منهم مهما بلغت وضاعته .

وبعد تحرير معسكر بلسن تحول جزء منه وهو مدرسة بانزر للتدريب العسكرى إلى مركز للنشاط الثقافى . فعلى سبيل المثال ألقى كل من يهودى مينوهين Yehudi Menuhin وبنيامين برتين Benjamin Britten بعض المحفوظات والأشعار هناك ، فضلاً عن أن الفرقة البريطانية المسرحية الشهيرة الأولد فيك جاءت لتقدم مسرحية برنارد شو الشهيرة «السلاح والرجل» على خشبة مسرح المعسكر . حتى النزلاء أنفسهم أقاموا الحفلات . وتولت باحثتان اجتماعيتان تابعتان لمنظمة الصليب الأحمر ، بالاشتراك مع ديريك سنجتون تشجيع نزلاء بلسن على إقامة ملهى ليلى دولى . يقول إيفى باركر فى هذا الشأن : «تعين علينا أن نشجعهم . ولكنهم فى النهاية تحمسوا لتقديم نشاطهم المسرحى» .

كانت البدايات المسرحية متواضعة ، وتقدم فى مقاصف المعسكر (٣) حيث تغنى النزلاء بأغانيهم القومية وعرضوا رقصاتهم الشعبية . ولقى نشاطهم المسرحى نجاحاً عظيماً لدرجة أن العقيد بيرنى Berney

الذى تم تعيينه مؤخراً قائداً للمعسكر قرر تخصيص مسرح المعسكر الكبير الذى يحتوى على ثمانمئة مقعد لتقديم عروضهم المسرحية .

وأسهمت الممثلة البولندية المحترفة إيفا ستوجسكا Eva Stojouiska القادمة من وارسو بنصيب وافر فى إعداد الملابس والديكور صنعتهما من بعض الأشياء الموجودة فعلاً فى المستشفى . واستطاعت هذه الممثلة المحترفة أن تقدم برنامجاً يجمع بين الغناء الأوبرالى وعزف غجر المجر على الكمان والأهازيج والأناشيد القومية إلى جانب بعض الأغانى التى يتغنى بها الجنود البريطانيون ، وهى أغنيات قدمتها أربع فتيات بولنديات جميلات وشاعت فيما بعد بين نزلاء المعسكر . تقول الممرضة السويسرية أننج فيرتر Annig Pfirter فى هذا الشأن :

«كانت تجربة جديدة وممتعة أن نرى المرضى السابقين سعداء وزال عنهم التوتر . ومن الصعب أن نصف مشاعرنا ونحن نرى هؤلاء الناس الذين كانوا فيما مضى يتصرفون كالحيوانات يكشفون فجأة عن شخصيتهم الفردية ومواهبهم الفنية» . وأيضًا يقول جويس باركنسون Joyce Parkinson أن هذه الحفلات المسرحية جعلت الجنود البريطانيين يحترمون النزلاء ويحسون بآدميتهم أكثر من ذى قبل . وهكذا تحول معسكر بلسن إلى مكان يبعث على البهجة والإنشراح ومعاقرة الخمور ، بعد أن كان يبعث على الحزن والكآبة .

السويد تتولى العناية بمرضى معسكر بلسن :

فى أواخر شهر مايو ١٩٤٥ أصبح معروفًا فى بلسن أن السويد تطوعت بأخذ كل مرضى هذا المعسكر لعلاجهم فى مصحات سويدية لمدة

ستة أشهر ، وبخاصة الأطفال اليتامى ، وأعلنت السويد أنها سوف تتبع سياسة لم شمل العائلات ؛ الأمر الذى حدا بكثير من السجناء والسجينات إدعاء قرابتهم لهؤلاء الأطفال اليتامى .

وحرصت السويد على استقبال مرضى معسكر بلسن واستبعاد الأصحاء فيه . ولهذا اغتاظت من الجيش البريطانى عندما سمح للسجناء الأصحاء بالسفر إلى السويد . وطبقًا للتقديرات تم تهجير ٩٢٧٣ ناجيًا من الموت من معسكرات الاعتقال إلى السويد فى الفترة الواقعة من ٢٣ يونية حتى ٢٥ يولية ١٩٤٥ وصل حوالى سبعة آلاف منهم من بلسن ، وكان نحو ثلثهم مجرد لحم على عظم ، والثلث الآخر أناسًا قابلين للشفاء بشىء من الرعاية الطبية . أما الثلث الأخير فكان يتمتع بصحة موفورة . وسمحت السلطات السويدية لفتاة تدعى هيدى سزموك Hedi Szmuk بالسفر إلى السويد بعد شفائها من التيفوس لتلحق بأختها التى اصطحبت عشيقها البولندى .

وفى يوم ١٩ يونية ١٩٤٥ غادر قطار الصليب الأحمر معسكر بلسن إلى ميناء لوبك Lubeck الألمانى حاملاً على متنه ٣٥٠ مريضاً ومريضة على نقالات وخمسين على مقاعد متحركة . وفى ميناء لوبك تم غسلهم مرة أخرى وتطهيرهم من الحشرات ، قبل السماح لهم بركوب الباخرة . وتعالت صيحات الفزع والاحتجاج بمجرد إدخال السجينات حمامات البخار بسبب خشيتهن أن يكون هذا مقدمة لإدخالهن إلى غرف الغاز . واقتضت الخطة السويدية عزل الأصحاء من المرضى .

ولكن السويديين فشلوا فى عزل أفراد العائلة الواحدة عن بعضهم البعض الأمر الذى اضطرهم إلى تغيير خطتهم الأصلية فأخذوا المرضى

المحمولين على نقالات إلى سفن معدة خصيصًا كى تؤدى عمل المستشفيات ، فى حين قاموا بنقل الناس العاديين فى عبارات عادية . يقول قائل : «عندما رفض أفراد العائلات الافتراق عن بعضهم البعض بغض النظر عن حالتهم الصحية اضطر (السويديون) إلى التخلى عن فكرة فصلهم» .

وفى بداية الحرب العالمية الثانية ، توترت العلاقة بين بريطانيا والسويد بسبب إظهار السويد شيئًا من التعاطف مع هتلر . ولكن السويد مالبثت أن غيرت موقفها فى عام ١٩٤٢ لخشيتها من وقوعها فى قبضة ستالين الحديدية إذا انهزمت ألمانيا وكسب الحلفاء الحرب . ولهذا سعت السويد إلى التقرب إلى أمريكا لعلمها بمدى حرصها على الحفاظ على حياة اليهود .. وحتى تكلل بالنجاح مساعى السويد إلى التقرب من الحلفاء تدخلت لإنقاذ يهود بودابست فى خريف عام ١٩٤٤ .

وفى الشهور الأولى من عام ١٩٤٥ تطلع السويديون إلى إنقاذ السجناء الأسكندنافيين فى معسكرات الاعتقال النازية عن طريق وساطة الكونت فولك برنادوت ، الذى تفاوض مع هملر . واستجاب هملر لمطالب المفاوضين السويديين فسمح لهم بدخول ألمانيا وأخذ السجناء السويديين الموجودين فى معسكر نيونجام Neuengamme ، ثم وافق هملر على ترحيل السجناء السويديين اليهود من معسكر ثيرسنيستادت .

وأخيراً سمح هملر بترحيل سبعة آلاف سجينة من معسكر رافنزبروك . وبذلك تم ترحيل مايقرب من ٢١ ألف سجين وسجينة من عدة معسكرات اعتقال إلى جنوب السويد فى نهاية الحرب عن طريق كل من

ألمانيا والدانمارك . ولكن المؤرخ الإنجليزى هيو تريفور روبر يتشكك فى سلامة هذه الأرقام ، والجدير بالذكر أن بريطانيا بذلت قصارى جهدها للتهوين من شأن الدور الذى لعبته السويد فى إنقاذ السجناء فى معسكرات الاعتقال النازية ؛ لأنها لم تنس موقف السويد المتعاطف مع هتلر فى بداية الحرب .

استقبلت السويد السجناء المرضى بكل ترحاب وأولتهم الرعاية الطبية المتكاملة . فلاغرو إذا رأينا هؤلاء السجناء يشيدون بالخدمات الجليلة التى قدمتها السويد لهم ، وزاد من إشادة السجناء بالسويد مناظرها الطبيعية الخلابة .

وبعد استرجاع اليهود المهاجرين لصحتهم خيرتهم الحكومة السويدية بين البقاء فى السويد أو العودة إلى بلادهم الأصلية . فاختار بعضهم البقاء فى حين رحل الآخرون إلى رومانيا وغيرها من البلاد . وبحلول أواخر عقد الخمسينيات من القرن العشرين نجحت الجالية اليهودية المهاجرة من معسكرات الإعتقال النازية إلى السويد فى الاندماج فى المجتمع السويدى، ولكن هذا لم يمنع البعض مثل هاداساه مودلنجر Modlinger من شعورهم بالاغتراب فى السويد فرحل منهم إلى إسرائيل من رحل ، وسافر الآخرون إلى الولايات المتحدة الأمريكية .

إنقسامات وخلافات :

عندما تمكن الجيش البريطانى من التغلب على المشكلات الصحية التى واجهت معسكر بلسن ، بدأ يواجه مشكلة أعوص وهى مشكلة العشرة ملايين مهجر المتفرقين فى أرجاء ألمانيا عند انتهاء الحرب العالمية

الثانية، وهو عدد ضخم بالمقارنة بعدد السجناء فى مدرسة بانزر للتدريب العسكرى الذى لم يزد عن ثلاثين ألفًا . وحلاً لمشكلة العشرة ملايين مهجر ، رأت السلطات البريطانية تصنيفهم وفقاً لجنسياتهم ثم ترحيلهم إلى بلادهم الأصلية ، وهى نفس السياسة التى سبق أن اتبعتها فى معسكر بلسن (٢) .

غير أن كثيراً من هؤلاء السجناء رفضوا الترحيل إلى مواطنهم الأصلية ؛ فالبولنديون وبخاصة اليهود منهم لم يرغبوا فى العودة إلى بولندا التى أصبحت بعد الحرب الثانية خاضعة للاحتلال السوفيتى . ولهذا فضل الكثيرون منهم اللحاق بأقاربهم وأصدقائهم فى كل من إنجلترا وأمريكا وفلسطين . وبسبب اضطهاد هتلر لليهود وتنكيله بهم ، تعززت وجهة النظر الصهيونية القائلة بأنه لم يعد لليهود أى مستقبل فى أوربا المعادية للسامية، وأن حل مشكلتهم يكمن فى الاستيطان فى الأراضى الفلسطينية .

والجدير بالذكر أن نحو ثمانية آلاف يهودى بولندى رفضوا ترحيلهم من بلسن إلى بولندا . ويجدر بالذكر أيضاً أن اليهود البولنديين المقيمين فى مدرسة بانزر للتدريب العسكرى شكلوا لجنة تمثلهم لدى السلطات البريطانية عقب مقتل يهودى على يد الحرس المجرى . وبعد إجلاء سجناء الدول الأوربية من بلسن ، صار هؤلاء البولنديون اليهود أقوى جالية فى معسكر بلسن . وضمت هذه الجالية عدداً من اليهود الأصحاء الذين سبق تهجيرهم إلى معسكر بلسن قبل استيلاء البريطانيين عليه بأسبوع واحد .

واستقر هذا الفريق القادم من معسكر اعتقال دورا فى مدرسة بانزر للتدريب العسكرى . وطبقاً لما يقوله المؤرخ لافسكى Hagit Lavsky فإن

هذه الجماعة الفتية والموفورة الصحة جاءت من أحياء اليهود (الجيتو) فى كل من بولندا وليتوانيا وانتمت إلى حركة الشباب الصهيونى الذى كان يستعد للسفر إلى فلسطين والاستيطان فيها . يقول المؤرخ هاجيت لافسكى فى هذا الشأن :

«كانوا يتحدثون باللغة العبرية ويعرفون الأغانى العبرية منذ نعومة أظفارهم . واستطاعت هذه الجماعة بمعنوياتها العالية وتحمسها الشديد أن تترك أثراً كبيراً فى جو المعسكر . فهم كثرة يحسب لها ألف حساب كما أنهم كانوا أصحاء البدن والعقل معًا .. وكانوا الوحيدين الذين يستطيعون تنظيم بنى جلدتهم الناجين من الموت والمحطمين والمنهكين ، أضف إلى ذلك أن هذا الشباب كانت لديه رسالة يقدمها إلى الناس . كان لهم هدف حقيقى ، وكانوا مفعمين بالأمل وبمعتقداتهم الصهيونية وتحمسهم ، الذى انتقل إلى الآخرين انتقال النار فى الهشيم ، وأصبحت قصائدهم الشخصية أشد ماتكون ارتباطاً بمصير شعبهم ؛ مماجعلهم يرفضون العودة إلى أوربا الشرقية . فضلاً عن أن هؤلاء الصهاينة الشبان صاروا نبراساً هادياً حتى قبل أن يتمكن السجناء الناجون من الموت من إسترداد شيء من عافيتهم وتقرير ماعساهم أن يفعلوا» .

وسرعان ماتنبهت الدكتورة هادساه بيمكو أن زعيم الجماعة يهودى من بدزن Badzin فى بولندا يدعى جوزيف روزنسافت Josef Rossensaft أطلق عليه الجميع اسم يوسل Yossel . وقد التقت الدكتورة هاداساه به فى حفل أقيم لوداع الحبر هاردمان . وسرعان ماوقعت تحت تأثير شخصيته الساحرة .

وفيما بعد كتبت هذه الطبيبة عنه تقول : «كان رجلاً ضئيل الحجم . ولكنه تحول إلى عملاق عندما تكلم» . لكم تأثرت بمسلك هذا الرجل وقراراته السريعة وإحساسه بالكرامة وعزة النفس اليهودية، وكان صاحب إرادة فولاذية وإحساس مدهش بالفكاهة » .

كان بقاء جوزيف روزنسافت على قيد الحياة معجزة لكثرة المخاطر التى تعرض لها .. ولد فى ١٥ يناير ١٩١١ فى عائلة مرموقة ومتدينة تعتنق المذهب اليهودى الهاديسى الجانح إلى الصوفية ، وكان قبل نشوب الحرب العالمية الثانية يعمل فى شركة لصناعة الحديد تملكها عائلته . وفى يوليه ١٩٤٣ تمكن من الهرب من القطار أثناء ترحيله هو وزوجته وابن زوجته إلى معسكر أوشويتز حيث قفز من القطار ليغوص فى نهر الفستولا غير عابىء بوابل الرصاص المنطلق من رشاشات الحراس النازيين . ولكن هربه لم يدم طويلاً ، فقد تمكن النازيون من إعادة القبض عليه ليرسلوه هذه المرة إلى معسكر بيركينو ، حيث ألحق بمعسكر عمل ليعمل مدة شهرين فى حمل الحجارة ، ثم أرسل إلى معسكر لاجسزا Lagisza ليهرب مرة أخرى فى مارس ١٩٤٤ ، ولكن النازيين سرعان ماقبضوا عليه ليرسلوه فى نهاية أبريل مرة ثانية إلى معسكر أوشويتز حيث تعرض لتعذيب شديد استمر شهوراً . ولكن النازيين فشلوا فى أن ينتزعوا منه أسماء الذين ساعدوه على الهرب . وبعد إجلاء معسكر أوشويتز ألحق روزنسافت بالعمل فى عدة معسكرات عمل ، كان آخرها معسكر دورا الذى انتقل منه إلى معسكر بلسن فى أوائل ١٩٤٥ .

وبعد تحرير الجيش البريطانى لمعسكر بلسن لعب هذا الرجل دوراً بارزاً فى اللجنة المركزية لليهود المحررين ، التى أنشئت فى ٢٤ يونية

١٩٤٥ . والجدير بالذكر أن الدكتورة بيمكو التى دعته للاشتراك فى هذه اللجنة تزوجت منه فى عام ١٩٤٦ . والجدير بالذكر أيضا أن هذه اللجنة ركزت نشاطها فى العملين الثقافى والاجتماعى .. ففى يولية ١٩٤٥ قامت اللجنة بإصدار أول صحيفة بلغة اليديش تنشر فى المنطقة الألمانية الخاضعة للاحتلال البريطانى ، فضلاً عن أنها كونت فى سبتمبر ١٩٤٥ فرقة مسرحية تعرف بمسرح كازيت Kazet الذى علق مراقب أمريكى على نشاطه بقوله أنه يقدم لجمهوره دراما واقعية خالصة مثل تصوير اليهود وهم يحترقون فى المحارق النازية ، وتصوير الألمان وهم يسحقون جمجمة طفل وكأنهم يفعلون شيئاً عادياً .

وأيضًا لاحظ هذا المراقب الأمريكى أن جمهور النظارة فى هذا المسرح لم يصفقوا أبداً عند نهاية العرض المسرحى مكتفين بالصمت الأليم.

ويسترسل هذا الأمريكى قائلاً :

«كان من المألوف أن ترى جمهور النظارة البالغ عددهم أكثر من ثلاثة آلاف شخص يجهشون بالبكاء ، وينخرطون فى نشيج هستيرى طوال فترة العرض . ولاغرو .. فهم يشاهدون فصلاً كاملاً من واقع حياتهم التعسة لدرجة أن الحاضرين اعتبروا المسرحية تجسيداً لحياتهم وليس تسلية أو إزجاء وقت الفراغ . فالمسرح فى نظرهم يمثل فن الاستمرار فى الحياة ، كما أنه يمثل ثقافة لم تندثر رغم محاولات الإبادة المنظمة» .

أنحى جوزيف روزنسافت باللائمة على العسكريين البريطانيين فى بلسن لأنهم كانوا يمانعون فى مجئ وكالات غوث يهودية إلى هذا

المعسكر. ومن ثم أصبح شغله الشاغل وشغل اللجنة المركزية الاعتراض على السلطات العسكرية البريطانية . وتعبيراً عن هذا الاعتراض أصر على الحديث إليها بلغة البيديش باعتبار أنها تمثل الجالية اليهودية التى اختارته للتحدث باسمها .

إحتدم الخلاف بين هذا الرجل والسلطات البريطانية لأنها كان يريد منها تخصيص مدرسة بانزر للتدريب العسكرى بالكامل كى تصبح مقراً خالصًا للجالية اليهودية لتحكم نفسها بنفسها ، فى حين أن السلطات البريطانية أرادت ترحيل السجناء الذين استردوا صحتهم فى بلسن إلى أماكن أخرى وتحويل مدرسة بانزر للتدريب العسكرى إلى مستشفى طبى . فضلاً عن أن البريطانيين أرادوا تغيير إسم معسكر بلسن إلى معسكر هوهن Hohne وهو مارفضه روزنسافت رفضًا قاطعًا ، لأنه رأى فى اسم بلسن رمزاً للنكبة التى حلت ببنى إسرائيل ومن ثم ضرورة الإبقاء عليه . وتحت ضغط اللجنة المركزية ليهود بلسن اضطرت السلطات البريطانية إلى صرف النظر عن الاسم الجديد .

وتخلع بعض الشهادات الأخرى على روزنسافت هالة البطولة فى حين تصوره شهادات أخرى على أنه مشاغب وبلطجى يرغم بقية اليهود على الانصياع لأفكاره الصهيونية الداعية إلى استيطان فلسطين . وتشهد ممرضة بهذا فتقول : «بمرور الشهور والأيام ، بدأ اليهود فى الانعزال عن بقية زملائهم السجناء واضطروا تحت القيادة القوية لزعيمهم اليهودى اتباع أفكاره ومخططاته . وحرص أنصاره على نبذ أى يهودى يصرح بعدم رغبته فى الذهاب إلى فلسطين . كما أن تدخل السلطة البريطانية فى هذا الموضوع لم تكن له أية فائدة تذكر» .

على أية حال كان روزنسافت سياسياً ماهراً ، فقد استطاع تأليب اليهود ضد السلطة العسكرية البريطانية والتشكيك فى أهدافها ونواياها كما استطاع جمع الأنصار والمؤيدين لأفكاره الصهيونية . فقد تمكن بالتضامن مع فريق من الأحبار اليهود التابعين للجيش الأمريكى من ممارسة الضغط على الدوائر السياسية فى واشنطن ، حتى تضغط بدورها على القيادة العسكرية البريطانية فى بلسن كى تعترف باليهود كيهود وليس كيهود بولنديين .

ومن جانبها أرسلت الحكومة الأمريكية فى عهد ترومان البروفيسور ج. هاريسون G. Harrison إلى أوربا لاستجلاء الموقف وكتابة تقرير عنه. وتبنى هاريسون وجهة نظر روزنسافت الصهيونية فكتب فى تقريره يقول : «يبدو أننا نعامل اليهود مثلما عاملهم النازيون مع فارق واحد هو أننا لانقوم بإبادتهم» . وحث هاريسون الولايات المتحدة أن تقبل اليهود الآن كأمة وأن تطالب بريطانيا بالسماح لمائة ألف يهودى بالهجرة إلى فلسطين . وقرر الرئيس ترومان تأييد هذه المطالب حتى يرضى عنه يهود أمريكا ، ويعيدوا انتخابه رئيساً لأمريكا للمرة الثانية .

وفى ألمانيا قام الجيش الأمريكى بتسليم كل معسكرات الاعتقال الواقعة تحت سيطرته إلى اليهود . ويشير هذا إلى الانقسامات التى حدثت بين بريطانيا وأمريكا بخصوص هجرة اليهود إلى فلسطين . ففى حين رأت الحكومة البريطانية ضرورة وضع قيود على هجرتهم إلى الأراضى المقدسة، حبذ الأمريكان رفع هذه القيود . والجدير بالذكر أن عدد اليهود الذين سمح لهم النازيون بالهجرة من بلسن إلى فلسطين ضئيل للغاية

بالمقارنة بأعداد اليهود الناجين من الموت الذين رحلوا إلى دول أوربا الشرقية ، ولكنهم فيما بعد آثروا الهجرة إلى فلسطين .

وإظهاراً للشهامة وتعبيراً عن نواياها الحسنة ، رحبت الدول الغربية بهجرة الأطفال اليتامى اليهود إليها . ففى يولية عام ١٩٤٥ عبرت الحكومتان البريطانية والسويسرية عن ترحيبها بهجرة هؤلاء اليتامى إلى إنجلترا وسويسرا . وبلغ عدد الأطفال اليتامى الذين هاجروا من بلسن إلى إنجلترا نحو ثلثمائة طفل .

وكانت هناك مشكلة فى معرفة الأعمار الحقيقية لهؤلاء الأطفال بسبب تدمير السجلات النازية الخاصة بهم ، ولأن الأطفال اليهود كانوا ماكرين ، فهم يرفعون عمرهم أو يخفضونه حسبما يرونه صالحًا لهم . ولكن الجيش البريطانى ظل محتفظًا بوثائقه وسجلاته بعد تحرير المعسكرات.

وبعد تأجيل وتعطيل متكرر ، أعلن البريطانيون يوم ٢٣ أكتوبر ١٩٤٥ أن طائرتين بريطانيتين من طراز داكوتا سوف تقومان بنقل الفوج الأول من الأطفال البالغ عددهم خمسين طفلاً إلى إنجلترا . غير أن اللجنة المركزية اليهودية التى يتزعمها روزنسافت اعترضت على سفر الأطفال اليهود إلى إنجلترا بحجة أنهم لن يعيشوا فى بيئة وبين عائلات يهودية ، ولن يتلقوا التعليم اليهودى . ولعل السبب الحقيقى فى اعتراض اللجنة المركزية اليهودية على هجرة هؤلاء الأطفال إلى إنجلترا هو أن فرص الأطفال فى الحصول على شهادات الهجرة إلى فلسطين سوف تكون أفضل إذا بقوا فى ألمانيا عنها فى إنجلترا . وبالفعل استقبلت إنجلترا خمسين طفلاً.

ولكن معارضة اللجنة المركزية اليهودية حالت دون سفر أفواج أخرى منهم إلى الأراضى البريطانية .

وفى أبريل عام ١٩٤٦ اصطحبت الطبيبة هاداساه بيمكو أول فوج من الأطفال يصل إلى فلسطين من معسكر بلسن للاعتقال .

محاكمات جرائم الحرب فى معسكر بلسن :

فى شمال شرق بلسن وعلى بعد نحو عشرين ميلاً منها ، تقع مدينة عريقة مزدهرة اسمها لونبرج Luneburg ظلت المركز الرئيسى لإنتاج الملح حتى القرن التاسع عشر . ولكن فقدان هذه المدينة لأهميتها التاريخية كان فى مصلحتها ، فقد نجت من الغارات التى شنها سلاح الطيران البريطانى ، فى حين شدد النكير على الجزء الشمالى من ألمانيا . ولهذا سلمت المدينة بطرازها المعمارى الذى يعود إلى القرون الوسطى من الأذى . والجدير بالذكر أن الموسيقار المعروف سباستيان باخ كان عضواً فى كورال إحدى كنائسها .

شاهدت هذه المدينة محاكمة القائد النازى لمعسكر بلسن جوزيف كرامر وأربعة وأربعين من رفاقه . وأقيمت المحاكمة يوم ١٧ سبتمبر عام ١٩٤٥ فى جمانزيوم يقع فى العقار رقم ٣٠ شارع ليندرستراس Linderstrasse ، وهو شارع بديع تحيط به الفيلات الجميلة فى ضواحى المدينة .

وفى يونية عام ١٩٤٥ قرر الحلفاء - خوفًا من أعمال الانتقام والتشفى - تقديم كبار مجرمى الحرب النازيين مثل جورنج أمام محكمة عسكرية دولية عقدت فى نوفمبر ١٩٤٥ ، فى حين اكتفوا بمحاكمة من

يقلون عنهم أهمية فى السلم النازى . ورغم أن معسكر برجن بلسن كان أقل فى شره من معسكرات أخرى مثل أوشويتز بيركينو فى بولندا ، فإن البريطانيين أظهروا اهتماماً بمعسكر بلسن أكثر من المعسكرات الأسوأ ؛ لأن الجيش البريطانى الذى قام بتحريره سلط الأضواء على فظاعات وبشائعه . ولهذا طالب البريطانيون بضرورة تقديم المسئولين عن فظائع وبشائع بلسن إلى محاكمة عاجلة ، وتقرر محاكمتهم أمام محكمة عسكرية .

ويبدو أن المحكمة البريطانية جمعت أدلة الاتهام على عجل ، كما أن الإدعاء تسرع فى توجيه التهم إلى المتهمين دون جمع الأدلة الدامغة الكافية ضدهم . ولكن ضابط بلسن العقيد ديريك سنجتون الذى تورط فى إتخاذ الإجراءات المتعجلة أكد أن المحاكمة جرت على نفس النسق الذى جرت عليه التحقيقات الجنائية فى بريطانيا .

واتضح للمحققين البريطانيين أن بعض المتهمين مثل قائد معسكر بلسن الألمانى جوزيف كرامر والدكتور فريتز كلاين سبق لهما العمل فى معسكر أوشويتز قبل التحاقهما بالعمل فى معسكر بلسن ، وأن جرائم المتهم الثانى أكثر وضوحًا من الجرائم المنسوبة إلى المتهم الأول . وذكر الإدعاء أن كلا المذنبين متهمان بقتل أفراد قوات الحلفاء شخصياً وسوء معاملتهم . ومن ثم فهما مسئولان عما حدث لهم .

وكانت التهم والجرائم المرتكبة فى أوشويتز أكثر وضوحاً وثبوتاً من التهم الموجهة ضد النازيين المسئولين عن بلسن لأن التهم فى الحالة الأولى ارتبطت على نحو مباشر بالإبادة عن طريق غرف الغاز والمحارق، فى حين أن التهم المتعلقة بمعسكر بلسن انصبت على الإهمال القاتل . والجدير

بالذكر أن هذه المحكمة العسكرية تجاهلت ذكر إتباع النظام النازى لسياسة الإبادة بوجه عام وإبادة اليهود بوجه خاص .

وشملت صحيفة الاتهام عدداً من الطباخين والكتبة والكابوهات (وهم بولنديون) إلى جانب المذيع الأيرلندى وليم جويس ، الذى كان يعمل لصالح الألمان . ومراعاة للعدالة البريطانية ، عينت المحكمة العسكرية محامياً مؤهلاً للدفاع عن كل متهم . وفى يولية ١٩٤٥ طالع ضابط فى سلاح المدفعية البريطانية اسمه العقيد وينوود Winwood إعلاناً نشرته قيادة الجيش البريطانى العامل فى ألمانيا بموافاتها بأسماء الضباط المؤهلين للعمل كمحامين عسكريين ، وتقدم وينوود بطلب للخدمة العسكرية فى مجال القانون ؛ حيث أنه اشتغل كمحام مدنى عام ١٩٣٨ . وبعد مرور شهرين من التقدم بطلبه أبلغته قيادة سلاح الجو الملكى البريطانى بالحضور إلى مقرها فى بلدة سيل دون ذكر الأسباب .

وفى اليوم التالى جاءه ضابط من هيئة الأركان ليقول له : «حسناً . طالما أنت أول الحاضرين ، فيجدر بك أن تتولى حالات المتهمين الأربعة الأول المدونة أسماؤهم على هذه القائمة التى أحملها» . فى تلك اللحظة فقط أدرك وينوود سبب استدعائه وهو الدفاع عن المسئولين الألمان فى معسكر بلسن إلى جانب بعض العاملين فى وحدة البوليس الخاصة المتهمين بارتكاب جرائم حرب والمزمع محاكمتهم فى غضون أسبوعين أو ثلاثة على أكثر تقدير . وكان هؤلاء المتهمون الأربعة يضمون كرامر والدكتور كلاين واثنين من حرس وحدة البوليس الخاصة . وفى نفس الوقت أسندت هيئة أركان الجيش البريطانى إلى الكابتن ريموند فيلبس Raymond

phillips المحـامى مـهـمـة الدفاع عن أربع سيدات كن يعملن فى وحـدة البوليس الخاصة .

ويذكر وينوود فيما بعد إنه لم تكن لدى هيئة الدفاع فسحة من الوقت لرسم سياسة دفاعية منسقة . فضلاً عن أن الحكومة البريطانية مارست على المحكمة ضغطاً كبيراً كى تنتهى محاكمة المتهمين قبل أن يبدأ الأمريكان فى عقد محاكمات نورنبرج . وبذل الدفاع قصارى جهده للدفاع عن المتـهمين . قـال إن إنشاء معسكرات وغـرف الغاز لايشكلان إنتهـاكًا للقانون الألمانى ، وإن الوقـائع موضع الاتهام حـدثت فى عـامى ١٩٤٢ و ١٩٤٣ أى قـبل صـدور التـشـريعات المحـرمـة لهـا عـام ١٩٤٤ . وطبقًا للتشريعات الدولية لايعتبر الجندى الذى ينتهك قوانين الحرب مذنباً ، طالما أنه ينفذ الأوامر الصادرة إليه من رؤسائه .

أما العقـيد باكهاوس Backhouse ممثل الإدعـــاء ، فقد ذهب إلى أن جـميـع الانتـهـاكـات المنسوبة إلى المتـهـمين تمـــثل خـــرقًا للقانـــون الدولى ومـعـاهـــدتى جـينيف ولاهـــاى . وإذا كـان المتـهم يريد أن يدفع عن نفسـه التـهـمـة، فإنه يتـعين عليـه إثبـات أنه يتـصـرف طبقًا للأوامـر الصادرة إليه .

واستندت التهمة الموجهة إلى كرامر إلى أنه لعب دوراً نشيطاً وبارزاً فى معسكر أوشويتز فى اختيار من يموت ومن يعيش من السجناء . فضلاً عن أنه قتل سجناء معسكر ناتزويلر بالغاز ، إلى جانب مسئوليته المباشرة عن الإهمال الإجرامى وتجويع المعتقلين وإساءة معاملتهم فى بلسن ، الأمر الذى أدى إلى وفاة ألوف النزلاء فيه .

واعتمد الادعاء كثيراً على شهادة الدكتورة هادساه بيمكو ، وعند استدعائها للشهادة فى ٢١ سبتمبر ١٩٤٥ وصفت البشاعات التى اقترفت فى كل من بلسن وأوشويتز كما أنها تعرفت على خمسة عشر متهماً من بينهم كرامر وكلاين . وعلى مدى خمسة أيام روت هذه الطبيبة البشاعات التى شاهدتها فى معسكرات الاعتقال . وقدرت الدكتورة بيمكو عدد وفيات معسكر أوشويتز وحده بأربعة ملايين يهودى ويهودية . وأيضاً شهدت بيمكو بأن كلاين كان يتولى فرز السجناء لتحديد من يموت ومن يعيش ، كما شهدت بأن كرامر وضابطاً آخر اسمه هوسلر Hoessler حضرا طابور عرض فى المستشفى ، واشتركا بهمة ونشاط فى عملية الفرز .

ودافع محامى كرامر عنه بقوله إنه كان ينفذ الأوامر العليا الصادرة إليه ، وأضاف هذا المحامى أن حضور كرامر طابور العرض لايعنى اشتراكه فى عملية الفرز ، فكرامر ليس سوى كبش فداء والمجرم الحقيقى هو هنريش هملر .

وسألت هيئة المحكمة كرامر عن سبب تقاعسه عن الذهاب إلى الثكنات المجاورة لبلسن ليحصل من المخبز الملحق بها على مايسد رمق سجناء هذا المعسكر ؛ حيث أن هذا المخبز قادر على إنتاج ستين ألف رغيف فى اليوم الواحد . فأجاب كرامر بأن قائد هذه الثكنات كان حتماً سيرفض طلبه ؛ لأن إنتاج هذا المخبز كان مخصصاً للقوات الألمانية المحاربة ، ثم إنه من الناحية الإدارية لايحق له طلب إمدادات الخبز من جهة عسكرية بل يتعين عليه طلبها من الإدارة المدنية . ولما كررت عليه المحكمة هذا السؤال : هل حاولت أن تطلب من الثكنات المجاورة إمدادك

بالطعام ، رد بقوله إن مخازن طعام هذه الثكنات مخصصة لأفراد القوات المسلحة الألمانية . وعندما أصرت المحكمة على اتهامه بالتقاعس فى طلب الطعام أجاب قائلاً : «هذا غير صحيح بالمرة ، فقد كتبت إلى عدة شركات أطلب منها توريد كميات إضافية من الطعام» .

ولكن الدكتور فريتز لم يحاول إنكار قيامه بعملية اختيار من يموت ومن يعيش من السجناء . ولكنه احتج بأن مدة عمله فى معسكر بلسن كانت أقصر من أن تسمح له باتخاذ هذا القرار ، وأنه كطبيب حاول جاهداً أن يفعل شيئاً من أجل السجناء .

والجدير بالذكر أن الصحافة لم تهتم بمحاكمة كرامر وكلاين قدر إهتمامها بمحاكمة امرأتين عاملتين فى وحدة البوليس الخاصة وخاصة الشابة الفاتنة إيرما جريس Irma grese . ويبدو أن نشر صورها الجميلة – كما يقول العقيد ديريك سنجتون – كان سبباً فى زيادة توزيع الصحف التى تنشر أخبارها . وقد أدانت المحكمة هذه الحسناء البكر لدورها فى فرز السجناء فى معسكر أوشويتز . وقد أسهمت فترة اشتغالها فى معسكر النساء فى رافنزبروك فى تدريبها على القسوة ، ناهيك عما تعلمته فيما بعد من وحشية فى معسكر أوشويتز .

وفى يوم ١٦ نوفمبر ١٩٤٥ وبعد أن احتجبت المحكمة للتداول قبل النطق بالحكم لمدة ست ساعات وثمانية دقائق ، عادت للنطق بالحكم فأدانت معظم المتهمين الأساسيين ، ولكنها برأت عدداً من المتهمين الأقل خطورة وأهمية . وأصدرت المحكمة أحكاماً بالإعدام على أحد عشر متهماً من بينهم كرامر وكلاين وإيرما جريس. وقدم كرامر التماساً لتخفيف الحكم

عليه إلى الجنرال البريطانى المعروف مونتجومرى ولكنه رفض التماسه ؛ قائلاً إن الدور الذى لعبه فى تنفيذ المخطط النازى لتصفية اليهود يجعله لايستحق الحياة .

وأرسلت بريطانيا أكثر عشماوى تجربة وحنكة فى البلاد ، واسمه ألبرت بييربوينت Albert Pierrepoint على متن طائرة إلى ألمانيا حيث قام بتنفيذ أحكام الإعدام فى الأحد عشر مذنباً يوم ١٢ ديسمبر ١٩٤٥ .

معدلات الوفيات فى بلسن :

اختلفت آراء المؤرخين فى أمر العناية الطبية التى تلقاها السجناء على أيدى السلطات العسكرية البريطانية ، فهناك من المؤرخين من يتهمونها بالتقاعس والتقصير فى العناية بهم . وهناك من يمتدحون الأداء الطبى للجيش البريطانى فى بلسن .

وحسب تقديرات المؤرخ دونيسون Donnison – وهى تقديرات موثوق بها بوجه عام – فإن نسبة الوفيات بعد تحرير المعسكر (يوم ١٥ أبريل) انخفضت بانتظام من خمسمائة حالة إلى ثلثمائة حالة فى نهاية شهر أبريل . وفى يوم ١١ مايو ١٩٤٥ انخفض معدل الوفيات إلى أقل من مائة لأول مرة ؛ الأمر الذى يشير إلى الانخفاض المطرد فى حالات الوفاة بعد وصول الجيش البريطانى ، ويرى آخرون أن هذا غير صحيح .. وهذا التفاوت فى التقديرات يبين استحالة معرفة عدد الهالكين فى الهولوكست ، ليس فى معسكر بلسن وحده ، بل فى جميع معسكرات الإعتقال النازية .

ولكن الباحثين يثقون فى الأرقام التى توصل إليها إيرهارد كولمب فى أبحاثه المنشورة عام ١٩٦٢ ، والرأى عند كولمب أن البريطانيين

عجزوا عن تخفيض نسبة الوفيات في معسكر بلسن ، إلا بعد مرور عدة أسابيع من احتلال هذا المعسكر ، فقد استمرت هذه النسبة مرتفعة للغاية بعد تحرير المعسكر : بل إنها وصلت أحياناً في نهاية أبريل ١٩٤٥ إلى ألف حالة وفاة في اليوم . يقول كولمب في هذا الشأن : «قد يبدو غريباً ألا تتحسن معدلات الوفيات بعد ١٥ أبريل ١٩٤٥ (وهو يوم التحرير) ، بل إنها في الواقع ازدادت سوءاً» .

لقد بدأت كتابي هذا بتقديرات كولمب لمعدلات الوفيات في معسكر بلسن ، ولعله من المفيد أن تختمه بالتذكير بها .

يقول كولمب إن عدد الوفيات في معسكر بلسن بعد يوم التحرير يصل إلى نحو ١٤ ألف حالة موزعة زمنياً على النحو التالي :

من ١٩ إلى ٣٠ أبريل	٨٩٩٢
مايو	٤٥٣١
من ١ إلى ٢٠ يونية	٤٢١
المجموع	١٣٩٤٤

ويضيف بعض الباحثين إلى تقديرات كولمب تقديرات أخرى تقريبية لعدد النزلاء في معسكر بلسن رقم (١) في ذلك الوقت . وإذا افترضنا أن خمسمائة شخص ماتوا يومياً في الفترة من ١٥ إلى ١٩ أبريل فإن عدد نزلاء المعسكر (١) لابد وأن انخفض إبان تلك الفترة بمعدل ألفين على أقل تقدير ، وأن عدد السجناء بحلول ١٩ أبريل كان ٤٢ ألف سجين .

وفيما يلي جدول بمعدلات الوفيات حسب تقدير كولمب وتقدير بعض الباحثين الآخرين لعدد نزلاء المعسكر (١) :

التاريخ	عدد حالات الوفاة	عدد المرحلين	إجمالي سجناء بلسن	تقدير لعدد سجناء المعسكر (١)
١٩ أبريل	٨٢٥	–	٦٠٩٨٥	(٤١١٧٥)
٢٠ أبريل	٦٩٦	–	٦٠٢٨٩	(٤٠٤٧٩)
٢١ أبريل	٤٠٠	–	٥٩٨٨٩	(٤٠٠٧٩)
٢٢ أبريل	١٢٥٠	–	٥٨٦٣٩	(٣٨٨٢٩)
٢٣ أبريل	١٧٠٠	–	٥٦٩٣٩	(٣٧١٢٩)
٢٤ أبريل	١٢٠٠	–	٥٥٧٣٩	(٣٥٩٢٩)
٢٥ أبريل	٧٨٥	–	٥٤٩٥٤	(٣٥١٤٤)
٢٦ أبريل	٣٤٣	–	٥٤٦١١	(٣٤٨٠١)
٢٧ أبريل	٤٩٦	–	٥٤١١٥	(٣٤٣٠٥)
٢٨ أبريل	٤٢١	–	٥٣٦٩٤	(٣٣٦٩٤)
٢٩ أبريل	٣٢٦	–	٥٣٣٦٨	(٣٣٥٥٨)
٣٠ أبريل	٦٠٠	–	٥٢٧٦٨	(٣٢٩٥٨)
١مايو	٤١٠٠	–	٥٢٣٥٨	(٣٢٥٤٨)
٢ مايو	٤٤٩	٤١٧٧	٤٧٧٣٢	(٣٢٠٩٩)
٣ مايو	٣٧٣	٧٣٣	٤٦٦٢٦	(٣١٧٢٦)
٤ مايو	٣١٧	٩٨	٤٦٢١١	(٣١٤٠٩)
٥ مايو	٢٠٩	٩٥٥٩	٣٦٤٤٣	(٣١٢٠٠)

وبالنظر إلى أن هذه الأرقام السالفة الذكر مستقاة من مذكرة صادرة عن قيادة الجيش الثانى البريطانى ، ولاتوجد أية تقديرات أخرى للمقارنة بها فإن كولمب يعلن استحالة التأكد من صحة هذه الأرقام .

غير أن سجلات مكتب التوثيق العام فى لندن تعطينا أرقاماً تختلف عن الأرقام السالفة الذكر ، وهى تقديرات تعتمد على ماورد فى تقدير العقيد مايلز التابع للكتيبة ٢٢٤ ، وهى كالتالى :

التاريخ	الوفيات	المرضى المرحلون من المعسكر (١) إلى مستشفى المعسكر (٢)	الأصحاء المرحلون
١٨ أبريل			
٢٠ أبريل			
٢١ أبريل	٣٢٠		
٢٢ أبريل	٥٢٠		
٢٣ أبريل	٣٤٤		
٢٤ أبريل	٦١٨	٢٣	
٢٥ أبريل	٦٨	٥١٢	
٢٦ أبريل	٣٠١	٦٠٣	٦١٦
٢٧ أبريل	٢٨١		٥٩٦
٢٨ أبريل	٣٠٤	٦٣٧	٥٣٣
٢٩ أبريل	٢٥٩	٧٢٤	٩٠٢
٣٠ أبريل	٣٦٠	٦٢٣	٩٩٨

وهو مايشير إلى تحسن ظروف معسكر بلسن ، غير أن الوثائق سرعان ما أدرجت بياناتها على النحو التالى :

الشهر	اليوم	عدد المدفونين	عدد المرحلين
مايو	١	–	–
مايو	٢	٣٢٥	١٢٩٠
مايو	٣	٢٢٣	١٧٣٤
مايو	٤	٢١٦	٨٣١
مايو	٥	٤٥	٧٩٠
مايو	٦	١٨٦	١٠٤٢
مايو	٧	١٦٢	٩٦٦
مايو	٨	١٠٠	١٥٢٥
مايو	٩	١١٨	١٢٨٥
مايو	١٠	١١٨	٥٨٠
مايو	١١	٦١	٣٦٤
مايو	١٢	٦٠	٥٠
مايو	١٣	٤٥	٧٥
مايو	١٤	٤٧	لايوجد
مايو	١٥	٣٠	لايوجد
مايو	١٦	٣٠	٧٤٦
مايو	١٧	١٤	٤٧٧
مايو	١٨	٢	٧٣
مايو	١٩	١	٤٢١

ويوافق يوم ١٩ مايو آخر يوم في عملية الجلاء عن المعسكر (١)، وقد تم إحراق آخر كوخ في بلسن يوم ٢١ مايو ١٩٤٥ .

وطبقًا لما أوردته مجلة المناطق البريطانية British Zone Review، تولى الضابط المسئول عن قيادة الكتيبة (١٣) مسئولية دفن الموتى في ٢٤ أبريل (١٩٤٥) ، عندما بدأ الطعام والماء يصلان إلى المعسكر بشكل منتظم . وبعد أن كانت أعداد الموتى تقدر على نحو تقريبي أصبحت مؤكدة ومثبتة في السجلات .

وبحلول ١٥ مايو ١٩٤٥ أخذ عدد الوفيات يقل حتى وصل إلى ٨٨ حالة في اليوم الواحد ، وحتى ذلك التاريخ تم دفن مايقرب من ٢٣ ألف سجين منذ تحرير المعسكر في ١٥ أبريل ١٩٤٥ .

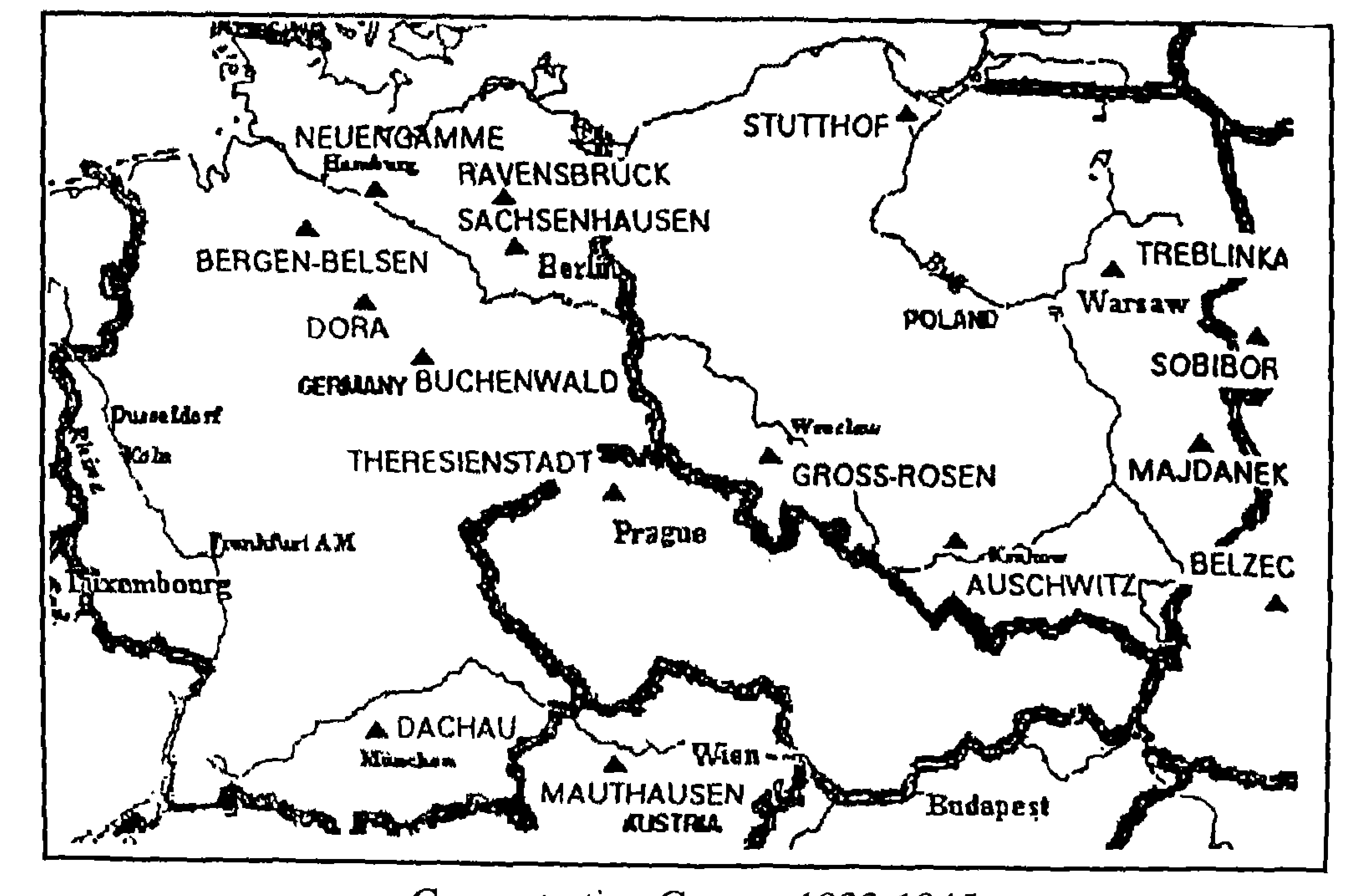
وفيما يلي جدول بأعداد السجناء المرحلين من بلسن إلى أماكن أخرى وتواريخ ترحيلهم وجنسياتهم .

التاريخ	جهة الترحيل	الجهة المرحل إليها	العدد	الجنسية
أبريل ١٩٤٥				
يوم ٢٤	المعسكر (٢)	طريق د.ب DP	١١٦٤	فرنسيون وهولنديون
٢٥	المعسكر (٢)	طريق د.ب DP	١١٣٠	بلجيكيون
٣٠	المعسكر (٢)	سجن سيل Celle	٢٦	ألمان
مايو ١٩٤٥				
١	المعسكر (٢)	محل إقامتهم	٣٠	ألمان
١	المعسكر (٢)	معسكر أسرى الحرب	٢٣	ألمان

(يتبع) :

١	المعسكر (٢)	سيل	٣٠	تشيكيون
٢	المعسكر (٢)	فالنجبو ستل Fallingbostel	٢٤٦٨	روس
٢	المعسكر (٢)	معسكر أسرى الحرب	٣٧	ألمان
٤	المعسكر (٢)	سيل	٤٣٣	إيطاليون ويوغسلافيون
٥	المعسكر (٢)	سيل	٤١٣	تشيكيون
٥	المعسكر (٢)	سيل	٨٠	غجر
٦	المعسكر (٢)	سيل	٤٩٨٤	بولنديون
٧	المعسكر (٢)	سيل	١٦٢	بولنديون
٨	المعسكر (٢)	فاليجمبوستيل	١٨	روس
١٢	المعسكر (٣)	مارينبرج Marienburg	٦١	يوغسلافيون
١٥	المعسكر (٣)	لونبرج Luneburg	٧٦	روس
١٧	المعسكر (٢)	سولتو Soltau	٧	أسبان
١٧	المعسكر (٢)	سولتو	٢	لوكسمبورجيون
١٧	المعسكر (٢)	سولتو	٢٧	بلجيكيون
١٧	المعسكر (٢)	سولتو	١١٤	فرنسيون
١٧	المعسكر (٣)	سولتو	٣٠١	فرنسيون
١٧	المعسكر (٣)	سولتو	٦٣	بلجيكيون
١٧	المعسكر (٣)	سولتو	٣٩	هولنديون
١٨ مايو	المعسكر (٣)	سيل	٧٦	تشيكيون

٢٠	المعسكر	(٣)	مارينبرج	٧٠	يوغسلافيون
٢١	المعسكر	(٣)	باروم Barum	٢١٨٦	روس
٢٢	المعسكر	(٣)	سيل	٢٢	روس
٢٢	المعسكر	(٣)	سيل	٤٢	يونانيون
٢٢	المعسكر	(٣)	سيل	١١٩٤	تشيكيون
٢٢	المعسكر	(٣)	سيل	٥٢	يونانيون ورومانيون
٢٢	المعسكر	(٣)	سيل	٣٤	طليان
٢٢	المعسكر	(٣)	سيل	٥	ليتوانيون
٢٢	المعسكر	(٤)	ف.ب .F.B	١٠٥	روس
٢٢	المعسكر	(٤)	سيل	٣٩	جنسيات مختلفة
٢٣	المعسكر	(٢)	باردويك Barduwick	٢٠١	بولنديون
٢٣	المعسكر	(٣)	باردويك	٩١١	بولنديون
٢٣	المعسكر	(٤)	باردويك	٧٢	بولنديون
٢٤	المعسكر	(٢)	لينجن Lingen	٨١	بدون جنسية
٢٤	المعسكر	(٣)	لينجن	٥٩٦	بدون جنسية
٢٤	المعسكر	(٤)	لينجن	٣٤٣	بدون جنسية



Concentration Camps, 1933-1945

خريطة بمواقع معسكرات الاعتقال النازية فى الفترة من ١٩٣٣ حتى ١٩٤٥.

كتب وأبحاث أخرى للمؤلف

(١) كتب باللغة العربية :

(١) برتراند راسل الإنسان ، الدار القومية ، القاهرة ١٩٦١ .

(٢) برتراند راسل المفكر السياسى ، الدار القومية ، القاهرة ١٩٦٦ .

(٣) دراسات تمهيدية فى الرواية الإنجليزية المعاصرة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٦ .

(٤) توفيق الحكيم الذى لانعرفه ، مطبعة وهدان ، ١٩٧٤ .

(٥) اتجاهات سياسية فى المسرح قبل ثورة ١٩١٩ ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٩ .

(٦) برتراند راسل ، تأليف آلان وود (ترجمة) ، الأندلس ، بيروت ١٩٨١ .

(٧) س. ب. سنو والثورة العلمية ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨١ .

(٨) موسوعة المسرح المصرى الببليوجرافية (١٩٠٠-١٩٣٠) ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٢ .

(٩) موقف ماركس وإنجلز من الآداب العالمية ، مكتبة الأنجلو ، القاهرة ١٩٨٤ .

(١٠) شكسبير فى مصر ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٦ .

(١١) ماذا قالوا عن أهل الكهف ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٦ .

(١٢) جورج أورويل (حياته وأدبه) ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٧.

(١٣) الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها ، الألف كتاب الثانى ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٩ .

(١٤) وول سوينكا (ترجمة) ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٩ .

(١٥) أدباء روس منشقون فى عهد جوزيف ستالين ، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩١ .

(١٦) الأدب الروسى والبريسترويكا ، دار الهلال ، القاهرة ١٩٩١ .

(١٧) الأدب والجنس ، دار أخبار اليوم ، القاهرة ١٩٩٣ .

(١٨) الثالوث المحرم ، دار الهلال ، القاهرة ١٩٩٤ .

(١٩) الشذوذ والإبداع ، دار الهلال ، القاهرة ١٩٩٥ .

(٢٠) دراسات فى الأدبين الإنجليزى والأمريكى ، كلية الألسن . جامعة عين شمس ، ١٩٩٥ .

(٢١) من ستالين إلى جورباتشوف ، مكتبة الأنجلو ، القاهرة ١٩٩٦.

(٢٢) الإلحاد فى الغرب ، سينا للنشر ومؤسسة الإنتشار العربى ، القاهرة وبيروت ١٩٩٧ .

(٢٣) الهرطقة فى الغرب ، سينا للنشر ومؤسسة الانتشار العربى ، القاهرة وبيروت ١٩٩٧ .

(٢٤) شكسبير واليهود ، سينا للنشر ومؤسسة الانتشار العربى ، القاهرة وبيروت ١٩٩٥ .

(٢٥) العلم والدين ، تأليف برتراند راسل (ترجمة) ، دار الهلال ١٩٩٧ .

(٢٦) الرجل الذى مات ، تأليف د.هـ. لورانس (ترجمة) ، دار الهلال ، يولية ١٩٩٧ .

(٢٧) ملحدون محدثون ومعاصرون ، سينا للنشر ومؤسسة الانتشار العربى ١٩٩٨ .

(٢٨) رباعيات الشذوذ والإبداع ، سينا للنشر ومؤسسة الانتشار العربى ١٩٩٨ .

(٢٩) اليهود والأدب الأمريكى المعاصر ، دار الهلال ١٩٩٨ .

(٣٠) موسوعة الرقابة والأعمال المصادرة فى العالم ، مركز الدراسات والمعلومات القانونية لحقوق الإنسان ، القاهرة ١٩٩٨ .

(٣١) فى مدح الكسل ومقالات أخرى ، تأليف برتراند راسل (ترجمة) ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ١٩٩٨ .

(٣٢) سيرة حياة برتراند راسل ، تأليف ألان وود (ترجمة) ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ١٩٩٨ .

(٣٣) اليهود والأدب الأمريكى المعاصر ، دار الهلال ، نوفمبر ١٩٩٨ .

(٣٤) صورة اليهودى فى الأدب الإنجليزى ، دار الهلال ، مارس ١٩٩٩ .

(٣٥) الهولوكوست بين الإنكار والتأكيد ، دار الهلال ، ديسمبر ٢٠٠٠ .

(٣٦) اليهود فى الأدب الأمريكى فى أربعة قرون ، مكتبة الأنجلو المصرية ٢٠٠١ .

(٣٧) الهولوكوست فى الأدب الأمريكى ، مكتبة الأنجلو المصرية ٢٠٠١ .

(٣٨) الهولوكوست فى الأدب الفرنسى ، دار نهضة الشرق ، يناير ٢٠٠٢ .

(٣٩) اليهود فى الأدب الروسى ، دار نهضة الشرق ، يناير ٢٠٠٢ .

(٤٠) محاكم التفتيش ، دار الهلال ٢٠٠٢ .

(٤١) محاكم التفتيش فى إسبانيا ، مركز الدراسات والمعلومات القانونية لحقوق الإنسان ، القاهرة ٢٠٠٢ .

(٤٢) محاكم التفتيش فى إيطاليا ، دار الهلال ٢٠٠٣ .

(٤٣) أبرز ضحايا محاكم التفتيش ، الهيئة العامة للكتاب ، ٢٠٠٤ .

(٤٤) محاكم التفتيش فى فرنسا (المجلس الأعلى للثقافة) ٢٠٠٥ .

(٤٥) ألبرت أينشتاين : سيرة حياته . (المجلس الأعلى للثقافة) ٢٠٠٥ .

(٤٦) ترجمة إنجليزية لكتاب «شكسبير فى مصر» . مكتبة الإسكندرية (٢٠٠٣) .

(٤٧) اليهود فى الأدب الإنجليزى من القرن الثامن عشر إلى القرن العشرين (الهيئة العامة للكتاب) ٢٠٠٥ .

(٤٨) محرقة اليهود : أوشويتز - بيركينو ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ٢٠٠٦ .

(٤٩) من أدب الانشقاق : ألكسندر سولجنتستين ، دار الهلال ، ٢٠٠٦ .

(٥٠) الغجر بين المجزرة والمحرقة ، المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٦ .

(٥١) معسكر اعتقال داكاو ، المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٦ .

(٥٢) معسكر اعتقال برجن - بلسن ، مكتبة الأنجلو المصرية ٢٠٠٧ .

(٥٣) فلادمير نابوكوف حياته وأدبه (تحت الطبع) .

(٢) مقال باللغة العربية :

نقد رواية العنقاء ، تأليف لويس عوض ، المجلة فبراير ١٩٧٠ .

(٣) كتب باللغة الإنجليزية :

(1) Naguib Mahfouz, **The Beginning and the End** (Translation) , The American Univ. in Cairo. 1975.

(2) **George Orwell as an Ambivalent Writer**, National Bookshop, Cairo, 1978.

(3) **Animal Farm**. National Bookshop, Cairo 1978.

(4) **Nineteen Eighty Four**. National Bookshop, Cairo, 1978.

(5) **Hardy's Tragic and Ironic Vision in Tess**, National Bookshop, Cairo, 1978.

(6) **Shakespeae in Egypt**, Rapack, Cairo, 1980.

(7) **English Literary Criticism**, Univ. Book, Tanta, 1985.

(8) **Macbeth**, Anglo, Egyptian, Cairo, 1989.

(9) **The Mayor of Casterbridge**, Anglo, - Egyptian, Cairo, 1989.

(10) **Sons and Lovers**, Anglo, - Egyptian, Cairo, 1989.

(11) **Joseph Andrews**. Anglo, - Egyptian, Cairo, 1989.

(12) **King Lear**, Anglo - Egyptian, Cairo, 1989.

(13) **Merchant of Venice**, Anglo, - Egyptian, Cairo, 1989.

(14) **Jane Eyre**, Anglo, Egyptian, Cairo, 1989.

(15) **A Passage to India**, Anglo, - Egyptian, Cairo, 1994.

(16) **Robinson Crusoe**, Anglo, - Egyptian, Cairo, 1994.

(17) **Animal Farm**, Anglo, - Egyptian, Cairo, 1995.

(18) **Lord of the Flies**, Anglo, - Egyptian, Cairo, 2004.

(19) **As You like It**, Anglo, - Egyptian, Cairo, 2004.

(20) **The Adventures of Huckleberry Finn**, Cairo, 2004.

(21) **Oliver Twist**, Anglo, - Egyptian, Cairo, 2004.

(22) **The Vicar of Wakefield**, Anglo,-Egyptian, Cairo, 2004.

(23) **Emma**, Anglo,-Egyptian, Cairo, 2004.

(24) A **Midsummer Night's Dream**, Anglo, - Egptian, Cairo, 2004.

(25) **The Tempest**, Anglo, - Egyptian, Cairo, 2004.

(26) **Julius Caesar**, Anglo, - Egyptian, Cairo, 2004.

(27) **Hamlet, Anglo**, - Egyptian, Cairo, 2004.

(28) **Romeo and Juliet**, Anglo, - Egyptian, Cairo, 2004.

(29) **Twelfth Night**, Anglo, - Egyptian, Cairo, 2004.

(30) **Sense and Sensibility**, Anglo, - Egyptian, Cairo, 2004.

(31) **To the lighthouse**, Anglo, - Egyptian, Cairo, 2004.

(32) Forthcoming : **Egypt in the Modern British Novel** : A collection of Articles on Newby, Ghali. Enright. Forster, Liddell and Olivia Manning. Published in Al-Ahram Weekley in the following issues, 4 July, 5 September, 10,24 October (1991) and 23,30 January, 1,23 April (1992).

(٤) مقالات باللغة الإنجليزية :

(1) John Wain's "Young Visitors", Faculty of Alsun Journal, 19-5.

(2) "King Lear as a Religious "Play",, Faculty of Alsun Journal, 1976.

(3) "Orwell as a Literary Critic", Faculty of Alsun Journal, 1976.

(4) "The Development of Liberal Culture in Modern Egypt", a series of articles published in the Egyptian Gazette in the following issues, 23,30 March, 6.13. 20. 27. 28 April. 4. 11 May, 1983.

معسكر الاعتقال النازى

برجن بلسن

هذا الكتاب

الحديث عن محرقة اليهود موضوع بالغ الحساسية فى ظل الصراع الفلسطينى - الإسرائيلى . وقد سبق للمؤلف أن عالجه فى كتاب أصدرته دار الهلال بعنوان "الهولوكست بين الإنكار والتأكيد " عام ٢٠٠٠ خلص فيه إلى أن القضاء البريطانى أصدر حكما مفاده أن الهولوكست اليهودى حقيقة تاريخية لايرقى إليها الشك . ولكن هذا - فى رأيى - لاينهض مبرراً أو تعاطفاً مع ما يفعله اليهود ، ولا يبرر التنكيل والخسف الذى يلقاه الفلسطينيون على يد اليهود فى وقتنا الراهن ؛ لأن هذا معناه استبدال الهولوكست اليهودى بهولوكست عربى .

والهولوكست النازى لليهود لم يأت من فراغ ، فهو يضرب بجذوره فى التاريخ الأوربى عبر عشرات القرون منذ أدانت الكنيسة الكاثوليكية بنى إسرائيل لأنهم سفكوا دم السيد المسيح ؛ الأمر الذى جعل أوربا المسيحية تذيق اليهود صنوف الذل والهوان على نحو ما فصّل المؤلف فى كتبه العديدة عن محاكم التفتيش وعن اليهود فى الآداب العالمية : ثم جاء هتلر أخيرا ليقرر إبادتهم عن بكرة أبيهم ومن ثم يمكن استعارة عنوان رواية تيودور دايستوفسكى الشهيرة " الجريمة والعقاب" ، فنقول فى وصف الصراع العربى - الإسرائيلى إن أوربا هى التى ارتكبت الجريمة وإن العرب بضعفهم هم الذين دفعوا الثمن .

ونحن نخطئ إذا ظننا أن اليهود وحدهم كانوا الضحايا الوحيدين للرايخ الألمانى ... امتد الخسف النازى ليشمل الغجر والبولنديين والمجر وأسرى الحرب السوفيت فى ... العالمية الثانية فهل فعل هؤلاء بالعرب - على سبيل القياس - ما فعله اليهود !! ليـ... منطق يبرر ما يحدث للعرب على أيدى اليهود .



The World of Words & Thoughts